قامت الطالبة بعمل التصويبات المطلوبة

المشرف
عبدالباسط إبراهيم بلبول

عضو اللجنة

عضو اللجنة
د/ فهد الرومي

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى بمكة المكرمة ٦/٦/١٤١٦هـ
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم الكتاب والسنة

منهج سيد قطب
في ظلال القرآن

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

تأليف الطالبة
أسماء بنت عمر حسن فدعق

اشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
عبدالباسط إبراهيم بلبول

المجلد الأول

١٤١٦هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، والصلاة والسلام على أشرف المعلمين ، وأكرم المرشدين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فكتاب « في ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب رحمه الله من الكتب المعاصرة المعينة على فهم القرآن الكريم والمهتمة بدراسة نواح عديدة فيه ، أحببت أن ألقي عليه بعض الضوء بدراستي هذه ، والتي ملخصها ما يأتي :

أولاً : ذكرت أسباب اختياري للموضوع ، ومن ثم التعريف بالتفسير ، وبيان تطوره في العصر الحديث .

ثانياً : ذكرت أحوال العصر الثقافية التي نشأ فيها المؤلف ، وبيئته التي ترعرع فيها ، وحياته وثقافته وجهوده العلمية ومؤلفاته ثم وفاته .

ثالثاً : بينت اهتمام المؤلف بالتفسير المأثور ، وطريقة عرضه للواقع التاريخي .

رابعاً : تحدثت عن تركيزه على الوحدة الموضوعية في السورة ، وعن اعتماد المؤلف على التصوير الفني ، ودلالته وألفاظه فيه .

خامساً : تناولت بيانه وتوضيحه للعبر المستفادة من الآيات والقصص .

سادساً : تحدثت عن اهتمام المؤلف بالإصلاح الاجتماعي ، وذكرت مبادئ الإصلاح وهي القرآن والسنة ، والعقيدة ، والتشريع ، والأخلاق ، ثم تحدثت عن الشبه الموجهة للظلال وصاحبه ، وأخيراً كانت نتائج البحث والتي من أهمها :

١ - دعوة المسلمين لتطبيق القرآن في واقعهم المعاصر الحديث ليصلح مجتمعهم الإسلامي ، ودعوتهم للسير على خطى الأجداد الصالحين ، من الصحابة والتابعين .

٢ - بيان أن تطبيق التشريعات والأحكام والأوامر الإسلامية له آثار اجتماعية فاضلة كما أن فيه مصلحة للعباد

٣ - تصوير العواطف والانفعالات أثناء عرض القصص القرآني وجعل القارئ يعيش في الجو القرآني المؤثر .

٤ - إظهار عظمة الخالق في خلقه للإنسان وقدرته جل وعلا على إعادته للحياة يوم البعث .

٥ - تناول بعض القضايا والمسائل التي تهم الدعاة العاملين ، هذا بالنسبة للمحاسن ، أما المآخذ فأهمها :

١ - إظهار موقفه من بعض الروايات الصحيحة كتقديم غيرها عليها ، وعدم التزامه بالتخريج الحرفي لمتن الحديث الصحيح .

٢ - الإكثار من استعمال المصطلحات الفنية مثل (التصوير ، الفن ، النغم ، الإيقاع ، الموسيقى) .

٣ - الاستطراد والتطويل كحديثه عن الحاكمية والجاهلية والعزلة والمفاصلة ، وعن واقع العرب قبل الإسلام .

وأعتقد أن المتفق عليه وما يشدنا للظلال يتمثل في أمور هي :

١ - السهولة والوضوح .	٢ - تبسيط المسائل العلمية .
٣ - الأسلوب المشوق الجذاب .	٤ - التكرار .

وهذه الأمور كما نعلم تساهم مساهمة كبيرة في تثبيت المعاني في النفوس ، وجعلها ماثلة في الأذهان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدم من الطالبة	المشرف على الرسالة	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
أسماء بنت عمر حسن فدعق	د . عبد الباسط إبراهيم بلبول	د . عبد الله عمر الدميجي


شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا ملء السموات وملء الأرض ، وملء مابينهما ، وملء ما شاء من شيء بعد ..... هو أهل الثناء ، والحمد والمجد ، أحمده سبحانه أولا وأخيرا ، وأصلى وأسلم على خير خلقه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبينا الحبيب ومرشدنا الكريم ، ومعلمنا الجليل ، جزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء .

وأتقدم بشكرى وتقديرى بعد ذلك لكل من بذل جهده في تعليمى وكان له فضل في ارشادى ، وتوجيهى من مدرسات كريمات ، وأساتذة أفاضل وأخص بالشكر استاذى المشرف على هذه الرسالة فضيلة الاستاذ الدكتور عبد الباسط بلبول ، فقد كان موجها ومرشدا ومعلما ، أحاطنى برحابة صدره وحلمه وتشجيعه ، وأعطانى من علمه الغزير ووقته الثمين الشيء الكثير ، فجزاه الله عني ، وعن طلبة العلم خيرا ، وأطال فى عمره ومنحه من خيرى الدنيا والآخرة ، انه سميع مجيب .

ثم أتقدم بجزيل شكرى وعظيم امتنانى لوالدىّ العزيزين الكريمين اللذين لم يألوا جهدا وحرصا على الاهتمام بحصولى على أكبر قدر من العلم والفهم ، والخلق القويم حيث وفرا لي كل سبل

اتمام هذا البحث المتواضع حفظهما الله تعالى ،وأطال عمرهما في طاعتـــه ، وأمدهما والمسلمين بالعفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ٠

وأتقدم بخالص الشكر وأطيبه الى جامعة أم القرى وعلى رأسها فضيلة الدكتور راشـد الراجح - مدير الجامعة - ، كما أشكر عمادة كلية الشريعة وادارة الكلية ، وعمادة كلية الدعوة وأصول الدين وادارة الكلية وعلى رأسها فضيلة الدكتور علي بن نفيع العلياني - عميد الكلية - ، فقد هيأت لنا الجامعة واداراتها الدراسات العليا للحصول على الدرجات العلمية التي تفيد الطلاب والطالبات فجزاهم الله أحسن الجزاء ٠

كما لا يفوتني أن أتقدم بشكرى الى كل من الأساتذة الكرام الدكتور الشريف منصور بن عون العبدلي ، والدكتور عويد بن عياد المطرفي والدكتور أحمد أحمد غلوش ، وكل من مد لي يد العون والمساعدة من أقرباء أعزاء ، وأخوات حبيبات حتى تم هذا البحث على هذه الصورة ٠

والله أسأل أن يوفق الجميع الى ما يحبه ويرضاه وأن ينفعنا بما علمنا ويزيدنا علما انه سميع مجيب ٠

* * *

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا نحمده حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات ، وملء الارض ، وملء ماشاء من شيء بعد ٠٠٠٠

نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئآت أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلقه ، وأفضل مبيّن ومفسر من عباده ٠٠ الذى أرسله تبارك وتعالى شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ٠

وبعد :

فقد تفاوت الصحابة رضوان الله عليهم في تدبر القرآن الكريم وادراك معانيه بحسب سليقتهم العربية ، وربطوا بين تلاوته وفهمه ، وعاشوا نصوصه بكل وجدانهم ، ووعوه بكل عقولهم ، وترجموا تعاليمه فى سلوكهم فترة حياتهم ، وحينما كان يخفى عليهم شيء منه يرجعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبينه لهم ، لقوله تعالى : (**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ**

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ). [(١)]

ثم توالت الجهود العلمية - من بعدهم - التي بذلت في الاهتمام بدراسة القرآن الكريم وفهمه والاستقامة على العمل به ، وكشف أسراره ، فلم يدع العلماء موضوعا يتعلق بالكتاب العزيز الا وتناولوه بحثا وتمحيصا وألفوا في ذلك المؤلفات القيمة العديدة ، فبعضهم كتب في رسمه ، وبعضهم في استنباط أحكامه ، ومنهم من ألف في أسباب نزوله ، ومنهم في اعرابه ومنهم في تناسب سوره ، والكثير منهم ألف في تفسيره ، وتسابقوا في ذلك حتى ازدحمت المكتبة الاسلامية بتراث عظيم من كتب التفاسير على اختلاف مذاهبها ، وألوانها ، ومن الكتب الاخرى المعاصرة المعينة على فهمه مثل كتاب " **في ظلال القرآن** " فهو كتاب طيب مفيد من الكتب المعاصرة التي اهتمت بدراسة نواح عديدة في القرآن الكريم ، كما أنه تميز عن غيره من الكتب باسلوبه الادبي - السهل الممتنع - فأحببت أن ألقي بعض الضوء عليه بالاضافة الى وجود بعض النقاط التي كانت أسبابا في اختياري هذا الموضوع ، والمتمثلة فيما يأتي :

(١) أخذ الكتاب مكانة بارزة عند معظم المسلمين في العصر الحالي .

(٢) حظي باهتمام بالغ لديهم للوسائل المهمة التي اعتمدها صاحب الظلال " الاستاذ سيد قطب " في كتابه : من ثقافته المنوعة ، ومن

---

(١) سورة النحل آية/ ٤٤

حسه المرهف ، ومن تجربته العلمية ، ومن اسلوبه الادبى البليغ ومن معرفته بأحوال العالم المعاصر ، ومن نظريته حول التصوير (الفنى) في القرآن ٠

(٣) صاغ المؤلف - الاستاذ سيد - ماهو موجود في كتب التفسير القديمة التى يصعب اسلوبها في الغالب - على أهل هذا العصر - باسلوب أدبى مسترسل تتقبله عقول أهل هذا العصر ٠

(٤) قسّم السورة الواحدة الى دروس ومشاهد وصفية استخلص منها العبر وحاول ربطها بالواقع وتطبيقها عليه ٠

(٥) استغل معانى آيات الكتاب العزيز في جميع المواضيع التى تناولها وحاول أن يصل الى اسباب القوة التى ساد بها المسلمون في حياتهم الاولى - والتى من أهمها التصاقهم بعقيدتهم وتفاعلهم فيها[1] - وأسباب الضعف التى وهنوا بها في تلك العصور ٠

فأحببت لذلك كله الاطلاع على منهج المؤلف - سيد قطب رحمه الله - الذى سار عليه في كتابه ، ودراسة هذا المنهج واستخلاص النتائج منها ، ومن ثم بيان بعض مانسب الى صاحب الكتاب ، وكتابه (الظلال) والرد على ما نسب اليه ٠

---

(١) انظر على سبيل المثال المجلد الاول من الظلال : ص ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، والمجلد الثانى : ص ١٠٤٦ ، ١٠٥٩ ، والثالث : ص ١٥٧٠ ، ١٥٧٨ ٠

* **واتبعت منهجا في دراسة هذا الموضوع على النحو التالى :**

(١) أخذ المعلومات من مصادرها الاصلية .

(٢) ترجمة لحياة المؤلف من كتبه ، ومن كتب معتمدة أخرى .

(٣) تخريج كل الاحاديث التى صادفتنى الواردة في البحث من أصولها .

(٤) ترجمة الاعلام الذين وردوا في بحثى فيما عدا المشاهير منهم .

(٥) مقارنة بين تفسير الظلال وبعض التفاسير الاخرى كتفسير الطبرى ، والقرطبى وابن كثير ، والالوسي .... وغيرهم .

(٦) الرجوع الى كتب اللغة لبيان معنى كل كلمة تحتاج الى توضيح .

ولا يخفى أن ذلك كله يحتاج الى جهد ووقت طويل بالاضافة الى بعض الصعوبات التى واجهتها من عدم توفر الكتب المهمة بين يدى كالكتب الخاصة بحياة المؤلف ، ومن عدم استطاعتى التنقل بحرية من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد للحصول على أمثال هذه الكتب .

هذا وقد علمت مؤخرا عندما قاربت على الانتهاء من بحثى أن الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدى كتب عن الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - وعن الظلال ، فاطلعت على ماكتبه فوجدت أن ماسار عليه يختلف عما كتبته:

(١) فهو قد كتب في الجزء الاول : عن سيد قطب في سطور ، وعن صلته بالقرآن ، قبل الظلال ، ثم تحدث عن كتب التفسير في مصر في العصر الحديث .

ثم وضح أهداف الظلال ، وما الذى اعتمده من مصادر ووسائل فيه ، ثم تحدث عن الفروق بين طبعات الظلال ٠

وتحدثت في التمهيد للبحث عن نقطتين :

* الاولى : متضمنة لسبب اختيارى للموضوع ٠
* والثانية : تعريف بالتفسير ، وبيان تطوره في العصر الحديث ٠

(٢) وتحدث في الجزء الثاني عن منهج سيد قطب في التفسير ، وبيّن قواعد هذا المنهج التى منها المقاصد الاساسية للقرآن ، وبيان المهمة العملية الحركية للقرآن ، وغنى النصوص بالمعانى والدلالات ، وبيان أهمية العقيدة ، وأثرها ، والوحدة الموضوعية للقرآن والبعد الواقعى للنصوص وعموم دلالتها ، وبيان حكمة التشريعات وتعليل الاحكام وغير ذلك ، ثم تحدث الدكتور الخالدى عن طريقة سيد قطب في التفسير وعرضه لبعض موضوعات علوم القرآن ، وموقفه من بعض موضوعات التفسير كالسيرة النبوية ، والاقوال المأثورة والاسرائيليات وغير ذلك ٠

وكتبت في الباب الاول عن أحوال العصر الثقافية التى نشأ فيها المؤلف وعن بيئته التى ترعرع فيها ، ثم تحدثت عن حياته وثقافته وجهوده العلمية ، وما خلّفه من مؤلفات ٠

(٣) وتحدث في الجزء الثالث عن :

أ ـ منهج الاستاذ سيد قطب فى أخذ العقيدة وموقفه من علم الكلام ٠

ب ـ المصطلحات التى ذكرها في الظلال والتى تبين معنى كل من الالوهية

والربوبية ، الحاكمية ، الجاهلية ، العزلة والمفاصلة ٠

جـ - الشبهات التى اثيرت حول الظلال وصاحبه ، كتهمة تكفير المسلمين ومواقفه من الفقه الاسلامى ٠

د - وعن سمات الظلال من الواقعية والجدية وبيان دور الانسان ، ومركزه والاستشهاد للنص بالواقع التاريخي وعرض النعم بمنظار جديد ٠٠٠٠٠٠٠٠ وغير ذلك ٠

وقد لاحظت أن الدكتور صلاح الخالدى - كان يسهب ويسترسل في بعض الموضوعات ويعطى أمثلة عديدة من الظلال ٠

وتناولت أنا في الباب الثانى بيان اهتمام المؤلف بالمأثور في التفسير بعد التعريف به ، وتحدثت عن تركيزه على الوحدة الموضوعية في السورة ، وعن اعتماد المؤلف على التصوير الفنى **ودلالاته** ، وألفاظه فيه ٠

ثم تناولت بيانه وتوضيحه للعبر المستفادة من الآيات والقصص ٠

وأخيرا اهتمامه بالاصلاح الاجتماعى ، وكنت اكتفى بالاستشهاد على كل أمر من هذه الامور بثلاثة أمثلة من الظلال ، وأشير الى موضعها منه ٠

هذا بالنسبة للشكل العام أما بالنسبة للتفصيلات فأذكر من الفروق على سبيل المثال :

* **أولا : اهتمام الاستاذ سيد بتفسير القرآن بالقرآن في تفسيره بالمأثور :**

وفيه بينت أن ما استطعت معرفته من ذلك يتمثل في ثلاث نقاط :

(١) تفسير بعض موضوعات السورة الرئيسية بآيات يجمعها من نفس السورة تكون مرتبطة تماما بالمعنى المراد ايصاله وتوضيحه ٠

(٢) تفسير بعض آيات السورة بآيات من سور أخرى لها ارتباط كبير بنفس معاني الآيات المراد تفسيرها ٠

(٣) وتفسير بعض السور بدون استعانة بآيات من سور أخرى ٠

أما الدكتور الخالدي فقد ذكر أن الاستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ كان حريصا على تفسير القرآن بالقرآن ، وقال : " والامثلة على هذا كثيرة جدا في الظلال ..." [١] وذكر نماذج من تلك الامثلة ، وكانت مختلفة عن النماذج التي ذكرتها ٠

* **ثانيا : طريقة المؤلف في عرضه للواقع التاريخي:**

وفيه كتبت عن طريقة عرضه للواقع التاريخي ، ويتمثل في اربع نقاط هي :

(١) أنه كان يجمل الواقع التاريخي للمجتمع وقت النزول ٠

(٢) يؤيد هذا الواقع بالاحداث المروية في كتب السيرة والتاريخ الدالة على وجود هذا الواقع ٠

---

(١) انظر المنهج الحركي في ظلال القرآن ص ٢٦٠ ، ٢٦٢

(٣) يربط هذا الواقع بالآية أو بالآيات ٠

(٤) يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة ٠

وضربت لذلك مثالين من سورة الاحزاب ومن سورة البلد ٠

أما الدكتور الخالدى فقد ذكر أن الاستاذ سيد - رحمه الله - استخدم في اثبات صحة الحوادث التى عرض لها القرآن ، وسيلتين :

* الاولى : الروايات التاريخية البشرية ، وهذه ليست قطعية ٠

* والثانية : هى العقل ، فهو يتلقى عن المصدر الموثوق الذى يطمئن اليه

كما أنه رحمه الله فرق بين تاريخ الاسلام وتاريخ المسلمين ٠

ثم أورد الدكتور الخالدى أمثلة من الظلال لاستشهاد الاستاذ سيد رحمه الله بالواقع التاريخى وتفسير النصوص القرآنية به ٠ (١)

* * *

---

(١) انظر في ظلال القرآن في الميزان للدكتور الخالدى ص ٣٥٠ : ٣٥٢

خطة البحث

وكانت خطة البحث تتمثل في النقاط التالية :

(١) **تمهيد :** ويشتمل على :

* مقدمة متضمنة سبب اختيار الموضوع .

* تعريف بالتفسير وبيان تطوره في العصر الحديث .

(٢) **الباب الاول :** ويشتمل على فصلين :

* **الفصل الاول :** في بيان أحوال العصر الثقافية والبيئة التى نشأ فيها المؤلف .

* **الفصل الثانى :** في حياة المؤلف وثقافته وجهوده العلمية .

(٣) **الباب الثانى :** وفيه خمسة فصول :

* **الفصل الاول :** الاهتمام بالمأثور في التفسير .

* **الفصل الثانى :** التركيز على الوحدة الموضوعية في السورة .

* **الفصل الثالث :** اعتماده على التصوير الفنى ودلالاته .

* **الفصل الرابع:** العبر المستفادة من الآيات والقصص .

* **الفصل الخامس:** الاهتمام بالاصلاح الاجتماعى .

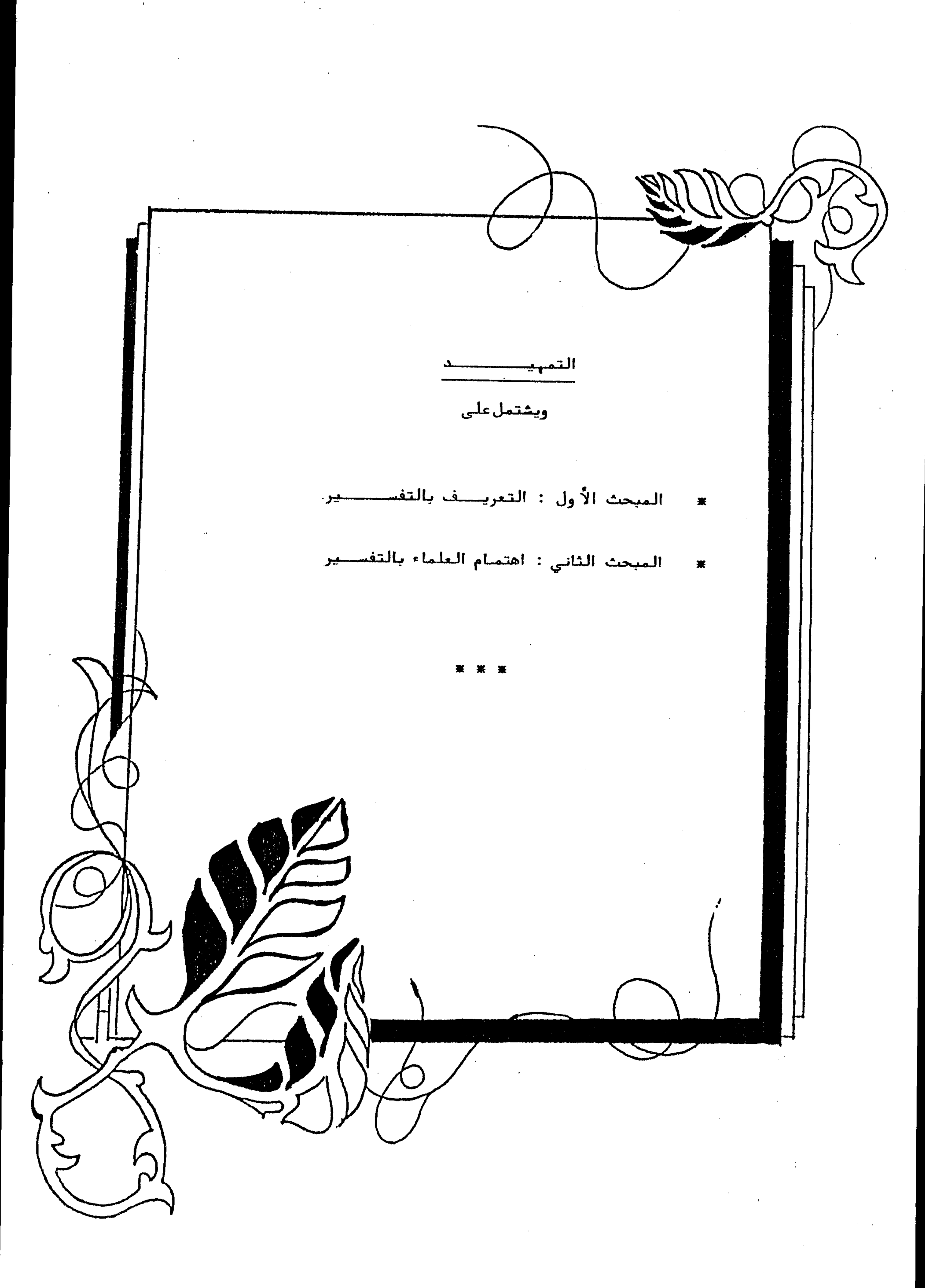
(٤) **ثم الخاتمة :** وتتكون من :

* أهم الشبه الموجهة للمؤلف والردود عليها .

* نتائج البحث .

وانى لا رجو الله تعالى أن يتقبل عملى هذا الذى قصدته لوجهه الكريم كما أرجوه أن يكون فى هذا البحث الذى اجتهدت فيه وأخلصت الهداية والرشاد ٠ فان كان كذلك فله الحمد ، فهو بفضله وتوفيقه وهو الذى علم الانسان مالم يعلم ، وان وجد فيه تقصير فالكمال لله والحمد لله في الاولى والآ خرة ٠

* * *



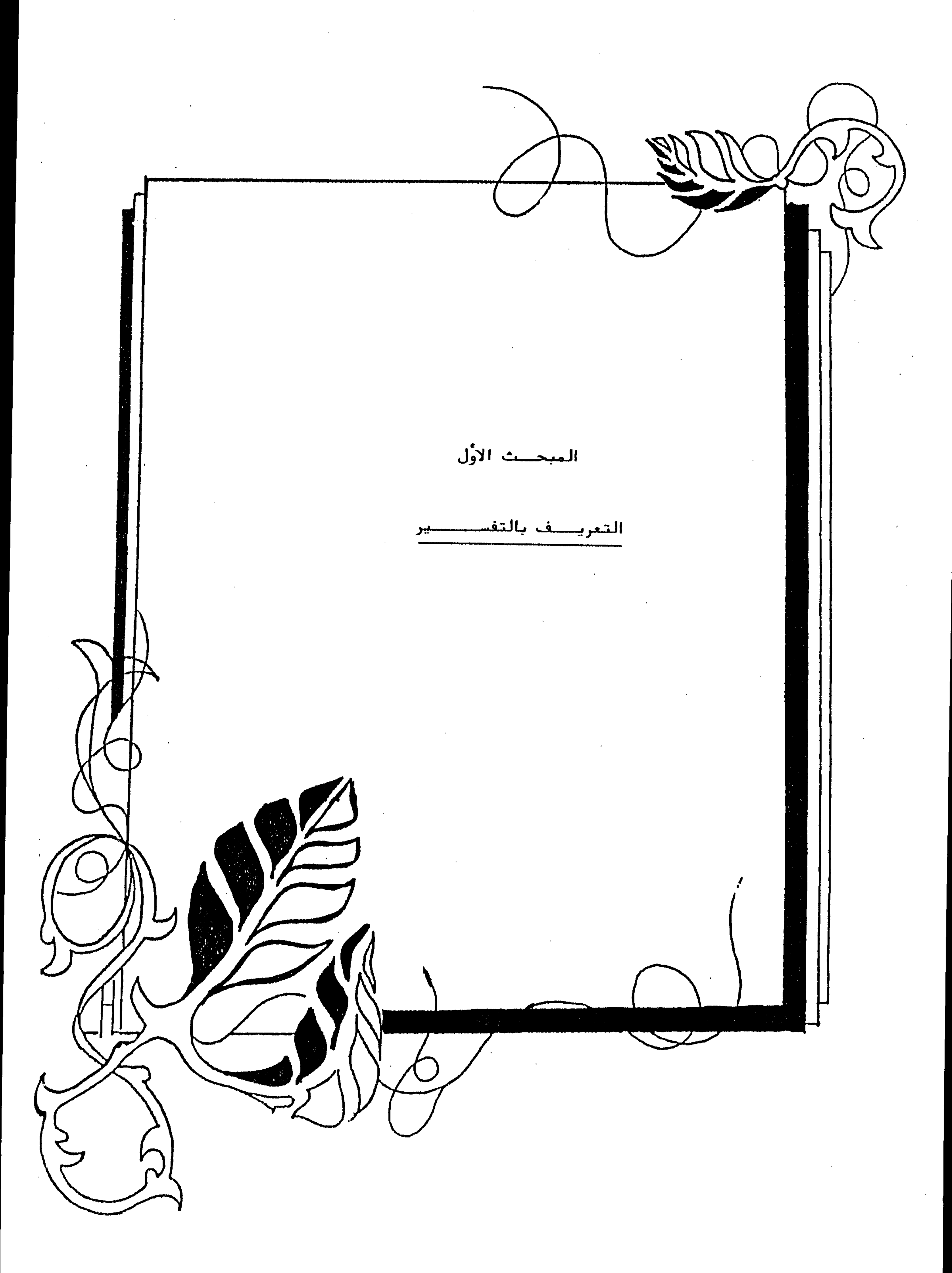
التمهيـــــــــد

ويشتمل على

* المبحث الأول : التعريـــف بالتفســـير.

* المبحث الثاني : اهتمام العلماء بالتفســير

* * *



المبحـــث الأول

التعريـــف بالتفســـير

المبحث الأول

التعريف بالتفسير

حيث أنني بصدد بيان معنى التفسير فانه يجدر بي أن ألم المامة سريعة بتعاريف بعض الكلمات وهي الفهم - والتأويل - والتفسير - وبالله الاستعانة ٠

جاء في لسان العرب : الفهم معرفة الشيء ،تقول : فهم بمعنى علم ،كفرح فهما باسكان الهاء وتحرك الهاء بالفتح وهو الافصح (١) ٠

وجاء في الرائد أيضا نفس المعنى وهو أن فهم يفهم فهما بمعنى : علمه وعرفه بقلبه وأحسن تصوره (٢) ٠

وفي دائرة المعارف نفس المعنى لكلمة فهم وهو العلم والمعرفة بالقلب مع زيادة أن الفهم انما يتعلق بالمعاني لا بالذوات ،فيقال فهمت الدرس وعرفت الرجل (٣) ٠

والذى يهمنا من كلمة الفهم أنها تفيد معنى البيان والتوضيح للمعاني التى في القلب ،تقول : أفهمه الأمر وفهّمه اياه : جعله يفهمه كما ورد في اللسان وتاج العروس (٤) ٠

---

(١) لسان العرب ، المجلد الثاني : ص ١١٤١ ، القاموس المحيط مادة (ف هـ م) ٠
(٢) الرائد : جـ ٢ ص ١١٣٥ ٠
(٣) دائرة المعارف : م ٧ ص ٥٤٠ ٠
(٤) لسان العرب ،جـ ٢ ص ١١٤١ ،تاج العروس ،جـ ٩ ص ١٦ ٠

وأما التفسير فمعناه : البيان وكشف المغطى،[١] وفسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسرا وفسره : أبانه .[٢]

وجاء في المعجم الوسيط : فسر الشيء وضحه .[٣]

كما جاء التفسير بمعنى البيان أيضا في الصحاح .[٤]

فكأن أصحاب اللغة " على رأى الزركشي " اتفقوا على أن التفسير هو البيان والاظهار وكشف المغطى ، وكأنهم رأوا أن المفسر انما يكون عمله الكشف عن شأن الآية ومعناها والسبب الذى أنزلت فيه .[٥]

المعنى الاصطلاحي للتفسير :

اذا تتبعنا أقوال العلماء في حد التفسير وجدناهم قد عرّفوه بتعاريف كثيرة يمكن رجوعها كلها الى واحد منها لأنها وان اختلفت من جهة اللفظ ، فقد اتحدت من جهة المعنى وما تهدف اليه .

فقد عرّفه أبو حيّان في البحر المحيط بأنه علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها ، وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك .[٦]

---

(١) القاموس المحيط : ج ٢ ص ١١٠ .
(٢) لسان العرب : ج ٢ ص ١٠٩٥ .
(٣) المعجم الوسيط للمعجم اللغوى،وشارك في اخراجه د. ابراهيم انيس د. عبد الحليم منتصر ،عطيه الصوالحى ،محمد خلف الله أحمد :ج٢ص ٦٨٨
(٤) الصحاح للجوهرى ،تحقيق أحمد عطار : ج ٢ ص ٧٨١ .
(٥) البرهان في علوم القرآن : ج ٢ ،ص ١٤٧ .
(٦) البحر المحيط : ج ١ ،ص ١٣ – ١٤ .

وعرّفه الزركشي بأنه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه .(١)

وذكر صاحب مناهل العرفان أن : " التفسير علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية "(٢)، ولقد أشار صاحب البرهان الى تعريف عزاه الى بعض العلماء وهو علم نزول الآيات وسورها وأقاصيصها والاشارات النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها .(٣)

وزاد في الاتقان : وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها .(٤)

فتعريف أبي حيّان الذى شرحه وضمنه بعض العلوم اللازمة للتفسير تعريف توسط فيه غير أنه لا يعتبر جامعا مانعا لأنه لم يصرح بغرضين هامين نزل لهما القرآن وهما :

(١) كونه كتاب هداية بينة لو اتبعها البشر لحققت لهم السعادتين الدنيوية والأخروية .

(٢) كونه كتابا سماويا معجزا لا يستطيع أحد الاتيان بمثله أو بأقصر سورة منه .

اما تعريف الزركشي فقد تضمن هذين الغرضين ، كما أنه أوضح وأيسر من تعريف أبي حيان ، ومن التعريف المطول المذكور في الاتقان ، والذى نسبه الى بعض العلماء .

---

(١) البرهان : جـ ١ ص ١٣ .
(٢) مناهل العرفان : جـ ١ ص ٤٧١ .
(٣) البرهان : جـ ٢ ص ١٤٨ .
(٤) الاتقان : جـ ٢ ص ٢٢٢ .

وبالنسبة لتعريف الزرقاني فانه وان كان موجزا الا أنني أراه جامعا مانعا فهو حينما ذكر أنه علم يبحث فيه عن القرآن الكريم ، أدخل الغرضين الهامين وأثبتهما ، وهما كونه كتاب هداية وكونه معجزة خالدة ، ومنع من دخول العلوم التى تناولت موضوعات خارجة عن القرآن كالفلسفة والحساب والنحو والكيمياء والجغرافيا وغيرها ٠

وحينما قال : " من حيث دلالته على مراد الله فانه قصد بذلك توضيحه وتفسيره سواء أكان تفسيرا بالمأثور أم بالاجتهاد والرأى المقبول ، وأخرج العلوم الأخرى التى تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته كعلم القراءات الذى يضبط ألفاظه ، وعلم الرسم العثماني الذى يبين كيفية كتابته ، وعلم الكلام الذى يخوض في مثل كونه مخلوقا أوغير مخلوق ، وعلم الفقه الذى يبحث عن أحواله من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها ٠

وهو حينما قال : " بقدر الطاقة البشرية " أبان أن هذا قيد لابد منه لأنه لايمكن القطع في كثير من آياته بأن هذا مراد الله تبارك وتعالى ٠

وبعد ، فهذه التعاريف الاصطلاحية وان اختلفت فاختلافها جزئي بسيط ولكنها على العموم تتفق على أن علم التفسير هو علم يبحث في القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه بيان المعنى وفهم المراد ٠

وأرى كذلك أن بين التعاريف الاصطلاحية والمعاني اللغوية علاقة ظاهرة تدور على معنى التبيين والتوضيح واظهار المراد ، ومهما يكن من شيء فقد اشتهر أن التفسير اعم من أن يكون بالمأثور أو بالرأى والاجتهاد ، وأعم من أن يكون متعلقا باللفظ أو بالمعنى ٠

ولا يزال العلماء قديما وحديثا يولون كتاب الله عز وجل عناية فائقة من حيث التفسير بالمأثور أو بالرأى المقبول حسب طاقتهم البشرية ٠

أما بالنسبة لكلمة التأويل ، فالتأويل مأخوذ من الأول : وهو الرجوع قال في القاموس : آل اليه أولا ، ومآلا رجع وعنه ارتد ، ثم قال : وأول الكلام تأويلا وتأويله : دبره وقدره وفسره ٠ (١)

وجاء في لسان العرب قوله : " الأول الرجوع ، آل الشيء يؤول أولا ومآلا رجع ٠ ثم قال : وأول الكلام وتأوله دبره وقدره ، وأوله وتأوله : فسره (٢)

كما ورد في قطر المحيط أن المآل المرجع والنتيجة ومآل الكلام مفاده وفحواه ٠ (٣)

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذاً من الأول بمعنى الرجوع ، وهذا باعتبار أحد معانيه اللغوية ، فكأن المؤول أرجع الكلام الى ما يحتمله من المعانى ٠

وذكر الفيروز أبادى : أن التأويل مأخوذ من الايالة ، وهى السياسة ، يقال آل الأمير - أو الملك - رعيته أى ساسها وأحسن رعايتها ٠ (٤)

والتأويل في الاصطلاح عند السلف له معنيان :

أحدهما :

تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء أوافق ظاهره أم خالفه ، فيكون التأويل

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادى : جـ ٣ ص ٣٣١
(٢) لسان العرب : المجلد الأول : ص ١٣٠
(٣) قطر المحيط لبطرس البستاني : جـ ١ ص ٦٠
(٤) القاموس المحيط : جـ ٣ ص ٣٣١ ٠

والتفسير على هذا مترادفين[١]. وهذا ما فهمه مجاهد[٢]، وما كان يعنيه ابن جرير بقوله في تفسيره :" القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا " أي تفسيره.

وثانيهما :

ان التأويل هو نفس المراد بالكلام ، فان كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وان كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر عنه ، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر ، فالذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام كالتفسير والشرح ويكون وجود التأويل في القلب واللسان وله الوجود الذهني واللفظي والرسمي، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء أكانت ماضية أم مستقبلة ...[٣]

قال الذهبي : وعليه يمكن ارجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل الى هذا المعنى الثاني.[٤]

وقد جاء معنى التأويل عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين والمتصوفين أنه صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ... وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف ، فاذا قال أحد منهم هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، ص ٢٣٣ .
(٢) رسالة الأكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية جـ ٢ ص ١٤ .
(٣) من رسالة الأكليل لابن تيمية جـ ٢ ص ١٨ .
(٤) التفسير والمفسرون للذهبي : جـ ١ ص ١٧ .

على كذا ، قال الآخر هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج الى دليل ، والمتأول عليـه وظيفتـان :

(١) بيان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعـاه ٠

(٢) بيان الدليل الموجب للصرف اليه عن المعنى الظاهر ٠ [1]

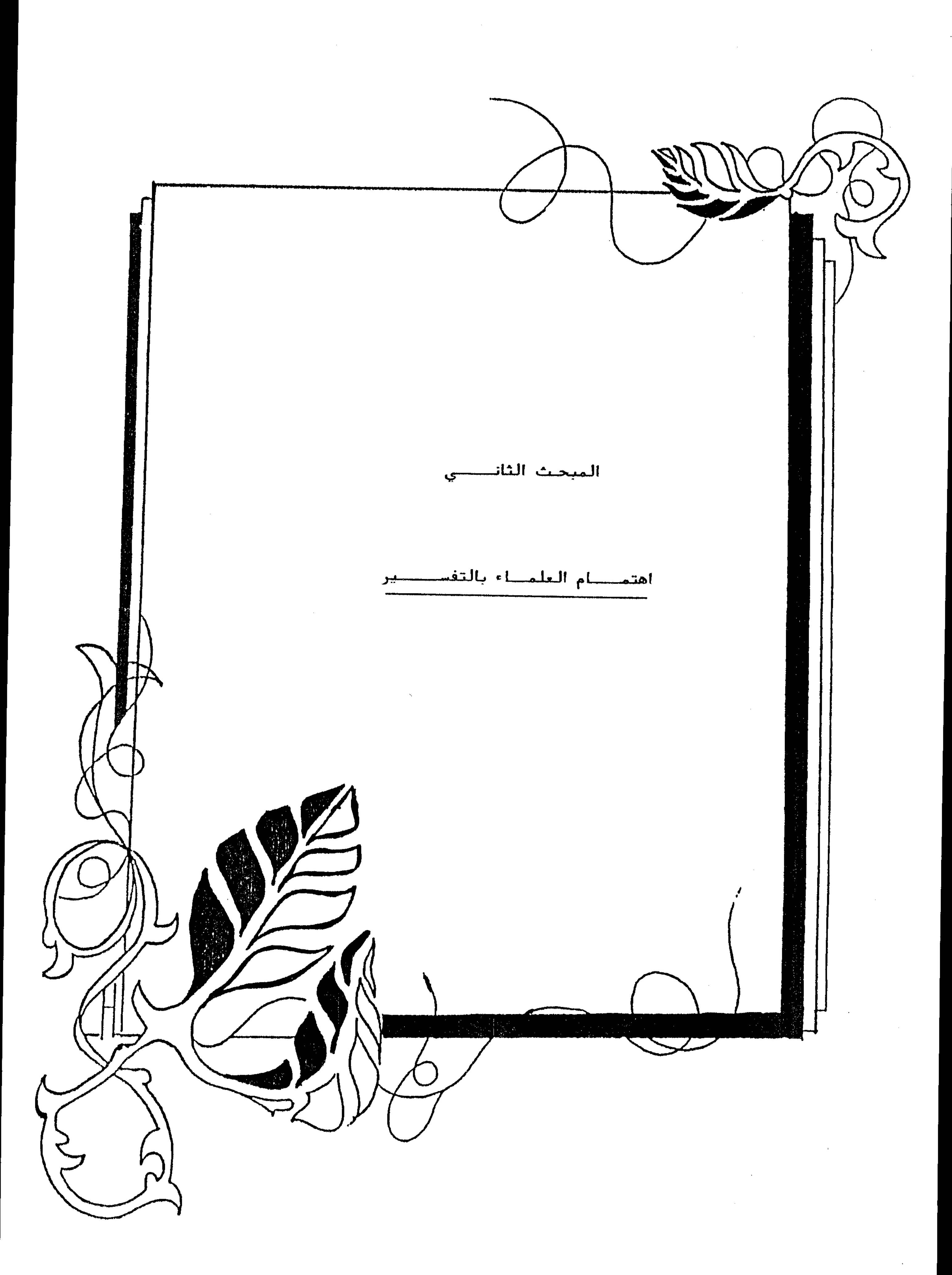
قال في جمع الجوامع وشرحه : " التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح فان حمل عليه لدليل فصحيح ، أو لما يظن دليلا في الواقع ففاسد أولا لشيء فلعب لا تأويـل " ٠[2]

* * *

---

(١) من رسالة الاكليل : ج ٢ ص ١٧

(٢) جمع الجوامع : ج ٢ ص ٥٣ ٠



المبحث الثانـــي

اهتمـــام العلمـــاء بالتفســـير

المبحث الثانـــي

اهتمام العلماء بالتفسيـــر

التفسير مرّ بأطوار كثيرة حتى اتخذ هذه الصورة التى نراه عليها الآن فـــي بطون الكتب والمصنفات ، فلقد نشأ التفسير مبكرا في عصر النبي صلى اللـــــه عليـه وسلم الذى نعتبره أول شارح لكتاب اللـه تحقيقا لقولـه تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّـــــرُونَ﴾ (١)

وامتثالاً لقوله تعالى أيضا :

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)

فكان عليـه الصلاة والسلام يبين لصحابته الكرام من القرآ ن العظيـــــم ما يستطيع بيانه ... وذلك لأن من القرآ ن ما استأثر اللـه بعلمه ، ومنه ما يتبادر الى الفهـم ، فليس للرسول صلى اللـه عليـه وسلم من حاجـة لتفسيره ، ومن أمثلـــــه ما بيّنـه لهـم من غير سؤال منهم : ما رواه الترمذى عن أبي هريرة قـــــال : " قرأ رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم هذه الآيـة (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَـــا) (٣) قال أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : اللـه ورسولـه اعلم . قال : فان أخبارها أن تشهـد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول : عمل يوم كذا كذا وكذا ، فهـــذه أخبارهــا " (٤) قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب .

---

(١) سورة النحـل آ يـة : ٤٤

(٢) سورة النحـل آ يـــة : ٦٤

(٣) سورة الزلزلة آ يـــة : ٤

(٤) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب في تفسير سورة " اذا زلزلت " ج ٥ ص ١١٧ .

ومن الأمثلة أيضا ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قال : أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف فقلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر [١] ، وما كان عليه الصلاة والسلام يقتصر في وصف شيء ما بجملة واحدة ، أو كلمة واحدة دائما ، بل كان يوضحها ويفصلها ان احتاجت للتوضيح والتفصيل من ذلك ما جاء في تفسير الكوثر فيما رواه الترمذي عن أنس بن مالك : قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر ؟ قال : " ذاك نهر أعطانيه الله يعني في الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر [٢] ، قال عمر : ان هذه الناعمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلتها أنعم منها " وقال هذا حديث حسن . والجزر بضمتين جمع جزور وهو البعير . [٣]

وفي تفسير الحساب روى البخاري بسنده من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس أحد يحاسب الا هالك قالت : قلت : يارسول الله جعلني الله فداءك أليس يقول الله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [٤] قال : ذاك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك " [٥]

ومن أمثلة تفسيره صلى الله عليه وسلم لبعض ما جاء في القرآن ما رواه مسلم عن عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب في تفسير سورة " الكوثر " جـ ٨ ص ٥٦٢ من فتح الباري .

(٢) سنن الترمذي أبواب صفة الجنة باب ماجاء في صفة طير الجنة جـ ٤ ص ٨٧ .

(٣) القاموس المحيط مادة (ج . ز . ر) (٤) سورة الانشقاق آية / ٨

(٥) رواه البخاري كتاب التفسير ، باب فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، جـ ٨ ص ٥٣٥ من فتح الباري .

يقول : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[1] ألا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، ألا ان القوة الرمي " .[2]

وجاء اللفظ القرآني " قوة" معجزا لإنه يتسع لجميع ألوان القوة ، ولذا كانت الكلمة المفسرة لهذا اللفظ أيضا معجزة لأنه يدخل فيها الرمي بالقوس و النبال والحراب والرمي بالمنجنيق ، وكل ما استحدث بعد ذلك كالمدافع والقنابل الذرية والهيدروجينية ، والصواريخ ونحوها .

ومن ثم فهناك أمثلة كثيرة في تفسيره عليه الصلاة والسلام لأكثر الآيات المتعلقة بالاحكام ، أما الآيات المتعلقة بنشأة الكون و أسرار الوجود وما فيه مجال للتفكير والنظر ، فقد فتح القرآن بها للعقول أبواب التقدم العلمي ومن ثم كانت هذه الآيات صالحة لكل مكان وزمان ، وكان ذلك سرا من أسرار الاعجاز القرآني ، لذلك لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم في تفسيرها الا الشيء القليل ، وقد حرص أغلب المفسرين على نقل الاحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم في التفسير ، وتجنب الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

ولقد ذهب الزركشي الى أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كثير .[3]

ولكن السيوطي قال : " الذى صح من ذلك قليل جدا ، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة ، وسأسردها كلها آخر الكتاب ان شاء الله تعالى ".[4]

---

(١) سورة الأنفال آية / ٦٠

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٣ ص ٦٤ كتاب الامارة باب فضل الرمي والحث عليه .

(٣) البرهان : جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٤) الاتقان : جـ ٢ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

ولقد رأيت أن البخارى قد أورد كثيرا من الاحاديث في التفسير مما جعلني أفهم كلام السيوطي على أن ماعناه بالقلة قلة نسبية ، أى بالنسبة لما يرفع من الأحاديث .

والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر للصحابة رضوان الله عليهم بعض القرآن مما يحتاج الى تفسير وشرح لهم مجملة ، وأزال عنه مشكلة .(١)

ونحن اذا لم نجد التفسير في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة رجعنا الى ماصح وثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم لأن القرآن كان هدفهم يحفظونه ويفهمونه ويطبقونه على أنفسهم ، ومن ثم ينشرون نوره ويبينون معناه .

وقد كان لهم من صفاء نفوسهم وسلامة فطرتهم وعلو منزلتهم في البيان والفصاحة ما يؤهلهم للفهم الصحيح لكلام الله ، وهم بلا شك كانوا أعلم الناس بالظروف والملابسات التى أحاطت بنزول القرآن الكريم ، واعانت على فهمه وتدبره .

ومن ثم كانوا علماء بأساليب اللغة العربية ، وفهم أسرارها ، ولكنهم يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن ، وبيان ما يراد منه وذلك راجع الى اختلافهم في أدوات الفهم ، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم ، فمنهم من كان واسع المعرفة بها ملما بغريبها ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول مالا يعرفه غيره .

---

(١) المجمل : مالم تتضح دلالته ، وهو واقع في القرآن ، والمشكل : ما يوهم التعارض بين الآيات : الاتقان في علوم القرآن للسيوطي : ج ٢ ص ٢٤ ـ ٣٥

أضف الى هذا وذلك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء ، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافا عظيما [١]، وليس أدل على ذلك مما أورده البخارى عن عدى بن حاتم قال : قلت : يارسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهما الخيطان ؟ قال : " انك لعريض القفا ان أبصرت الخيطين ، ثم قال : لا بل هو سواد الليل وبياض النهار " .[٢]

وعنه أيضا ما رواه البخارى بسنده من حديث ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : انه من حيث علمتم ، فدعا[٣] ذات يوم فأدخل معهم فما رئيت أنه دعاني يومئذ الا ليريهم قال : ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فقال بعضهم : أمرنا نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس فقلت لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له . قال اذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة أجلك " فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا " ، فقال عمر : ما أعلم منها الا ما تقول " .[٤]

ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة كما قال السيوطي في الاتقان :

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) صحيح البخارى مع فتح البارى كتاب التفسير " باب قوله تعالى وكلوا واشربوا " ج ٨ ص ١٣٧ .

(٣) وفي رواية " فدعاه " وفي أخرى " فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم " انظر فتح البارى ج ٨ / ٥٦٦ .

(٤) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله (فسبح بحمدربك واستغفره انه كان توابا) ج ٦ ص ١١٣ - ١١٤ و ج ٨ ص ٥٦٥ من فتح البارى.

" الخلفاء الأربعة وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، اما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم علي بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة نزرة جدا ، وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم " .(١)

وهؤلاء العشرة الذين اشتهروا بالتفسير(٢) كانوا على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة ، ولعل السبب في قلة الرواية عن الخلفاء الثلاثة راجع كما نبه السيوطي الى قصر مدة خلافتهم - وانشغالهم بالفتوحات - وتقدم وفاتهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فلقد عاشوا في وسط معظم أهله علماء بكتاب الله واقفون على أسراره عارفون بمعانيه وأحكامه فلم يكن هناك كبير داع الى الرجوع اليهم في التفسير أما علي بن أبي طالب فقد كثرت مروياته في التفسير لأنه عاش حتى اتسعت رقعة الاسلام ودخل كثير من العجم في الدين الجديد ، ونشأ جيل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة الى دراسة القرآن وتفهم أسراره وحكمه ، وقد كثرت الرواية في التفسير عن علي بن أبي طالب ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب لحاجة الناس اليهم ، ولصفات خاصة مكّنت لهم وأهم هذه الصفات هي :

(١) اجادتهم للغة العربية واحاطتهم بمناحيها وأساليبها .

(٢) عدم تحرجهم من الاجتهاد ، وتقرير ما وصلوا اليه باجتهادهم .

(٣) مخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التى نزلت فيها آيات القرآن .

---

(١) الاتقان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) وأحسب - والله أعلم - أن تقييده المفسرين بالعشرة راجع الى شهرتهم بالتفسير مع أن هناك بعضا من الصحابة الآخرين كالسيدة عائشة رضى الله عنها وآنس بن مالك وأبي هريرة وغيرهم رضى الله عنهم يعتبرا من المفسرين .

ويستثنى من ذلك ابن عباس فانه لم يلازم النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سن الثالثة عشرة أو قريب منها ، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم[1].. أمثال عمر بن الخطاب ، وأبي بن كعب ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، فهؤلاء الأربعة بالاضافة الى تلقيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هم الذين تلقى منهم معظم دراسته وثقافته ، وكان لهم أثر في توجيهه تلك الوجهة العلمية الدقيقة .

أما باقي العشرة وهم زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، فهم وان اشتهروا بالتفسير الا أنهم قلت عنهم الرواية ، ولم يبلغوا في التفسير مبلغ ما وصل اليه أولئك الأربعة المكثرون .

يقول الذهبي في كتابه :" التفسير والمفسرون" : ولو أنا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم : عبد الله بن عباس ، ثم عبد الله بن مسعود ، ثم على بن أبي طالب ، ثم أبي بن كعب .[2]

وقد سبق ذكر أمثلة لتفسير الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ويعد تفسير الصحابة تفسيرا بالمأثور على النحو الذى أشرت اليه .

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبى : جـ ١ ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٦٤ .

(١) اما أن يكون في أسباب النزول وفي كل أمر ليس للرأى ولا للاجتهاد مجال فيه كأمر الآخرة مثلا .

(٢) واما أن يكون للرأى فيه مجال .

القسم الأول :

له حكم الحديث المرفوع وعلى المفسر أن يأخذ به ولا يعدل عنه الى غيره بأية حال : وهذا ما أطلقه الحاكم في المستدرك[١]، ولكن ابن الصلاح قيد هذا الاطلاق بما يرجع الى أسباب النزول ، وما لا مجال للرأى فيه حيث قال : ماقيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند ، فانما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤ خذ الا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا مدخل للرأى فيه كقول جابر رضي الله عنه : كانت اليهود تقول من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[٢]، فأما سائر تفاسير الصحابة التى لا تشتمل على اضافة شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعدودة في الموقوفات والله اعلم .[٣]

ولكن الحاكم رجع الى ماقيده ابن الصلاح وصرح به في كتابه :" معرفة علوم الحديث " حيث قال : ومن الموقوف الذى يستدل به على أحاديث كثيرة ما ورد عن أبي هريرة رضى الله في قول الله تعالى ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾[٤] قال : تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحما على عظم

---

(١) مستدرك الحاكم جـ ٢ ص ٢٥٨ ، كتاب التفسير في تفسير سورة الفاتحة .

(٢) سورة البقرة / آية ٢٢٣ .

(٣) شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقي تحقيق عبد الرحمن عثمان ص ٧٠ .

(٤) سورة المدثر / آية ٢٩ .

وخلاصة ما أمتاز به التفسير في عصر الصحابة هي :

(١) ان القرآن الكريم لم يفسر كله وانما وصلنا تفسير بعض منه ٠

(٢) ان التفسير في أكثر الاحيان يكون اجماليا وتظهر معاني الآيات في أقصر العبارات مثل تفسيرهم لقوله تعالى : (غير متجانف لاثم)(١) ٠ أى غير متعرض لمعصية ٠٠٠٠٠ ومايزيدون عليه فانما هو من أسباب النزول ٠

(٣) ان التفسير لم يدون عند أحدهم كاملا بل كان بعضهم يتلقاه سماعا وبعضهم يكتبه في مصحفه حتى ظن بعض الناس الجهال أنه من القرآن كما أن التدوين لم ينتشر الا في القرن الثاني(٢) ٠

---

(١) سورة المائدة آية / ٣ ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي ص ١٢ ٠

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ،ج ١ ص ٩٧ بتصرف ٠

(٤) ان التفسير لم يتخذ شكلا مستقلا منظما بل كانت جميع التفاسير تروى منشورة لآيات متفرقة دون تنسيق على أبواب مثلا حيث نرى تفسير آية من سورة بجوار تفسير آية من سورة أخرى ،وهكذا كالحديث تماما فحديث صلاة بجانب حديث جهاد وبجانب حديث ميراث وهكذا .

وأما التفسير المعروف بتفسير ابن عباس والذى جمعه الفيروز أبادى ونسبه لابن عباس فغير صحيح لأنه اعتمد فيه على رواية واهية هى رواية محمد بن مروان السدى عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس وهذه هى سلسلة الكذب كما قيل (١) .

---

(١) الاتفاق في علوم القرآن للسيوطي ج ٢ ص ٢٤٢ .

أما بالنسبة لتفسير التابعين فترى كماذكر الذهبي فى كتابه : " أنهم أخذوا دروس التفسير من أعلام الصحابة واعتمدوا في ذلك على ماجاء في القرآن الكريم وعلى ماجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ،وعلى ماروراه الصحابة وعلى مايفتح به عليهم من الفهم والاجتهاد والنظر .(١)

ولقد ذكر الشيخ الذهبي ،أن أربعة من الصحابة اشتهروا بالتفسير فأما على بن أبى طالب فقد كان مشغولا بمهام الخلافة عن تفريغ نفسه للتفسير ،وأما الثلاثة الباقون فقد جندوا أنفسهم للتفسير والتدريس وتكونت لهم مدارس خاصة للتفسير وحلقات معينة في بعض المدن التى رحلوا اليها ،أو استقروا فيها ،ففي

---

(١) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٩٩ .

مكة أنشأ ابن عباس مدرسة للتفسير وأخذ يشرح للتابعين فيها ماخفى عنهم من كتاب الله ،ويوضح لهم ما أشكل عليهم وهم بدورهم كانوا يصغون اليه جيدا ويعون عنه غزير علمه ،ولقد أشتهر من تلاميذه بمكة سعيد بن جبير ومجاهد بن جبر ،وعكرمه مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان اليماني ،وعطاء ابن أبي رباح (١) ،وفي المدينة قامت مدرسة للتفسير وكان استاذها الصحابي الجليل أبي بن كعب الذى تتلمذ على يديه كثير من التابعين اشتهر منهم ثلاثة أبو العالية ومحمد بن كعب القرظي ،وزيد بن أسلم ،وهؤلاء منهم من تعلم منه مباشرة ومنهم من أخذ عنه بالواسطة (٢) .

---

(١) مناهل العرفان جـ ١ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، التفسير والمفسرون للذهبي جـ ١ ص ١٠١ بتصرف .

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي جـ ٦ ص ١١٤ بتصرف .

وفي العراق نشأت مدرسة للتفسير واشتهرت بتفسير القرآن بالرأى ، والاجتهاد لأن أهل العراق أمتازوا بأنهم أهل الرأى ،وهم الذين تعلموا من معلمهم الأول عبدالله بن مسعود وبرز علقمه بن قيس ومسروق بن الأجدع وقتادة بن دعامة والحسن البصرى ومره الهمداني وعامر الشعبى ، والأسود بن يزيد .(١)

وبعد هؤلاء المفسرون من التابعين هم مشاهيرهم في ذلك الزمان وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة والبعض منها رجعوا فيه الى أهل الكتاب

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ١١٨ بتصرف .

أما الباقي فهو من قبيل اجتهادهم الدقيق ٠

ولاشك أن هؤلاء الرجال الأفاضل قد بذلوا جهدهم في التلقي عن الصحابة وفي الرجوع الى أهل الكتاب في بعض الأحيان[١]، وكرسوا حياتهم ووقتهم لخدمة العلم والدين فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خيرا ٠

ثم حمل أتباع التابعين هذا التراث العلمي وأضافوا اليه بقدر جهودهم أيضا ، وبذلك تناقل الخلف علم السابقين وفتاويهم وتفاسيرهم وزادوا عليها أو اختصروا فيها بحسب تدرج العلوم في زمانهم ٠

هذا وقد اختلف العلماء في الأخذ بأقوال التابعين اذا لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صحابته الميامين ذلك أنهم لم يشاهدوا الأحوال والقرائن التى نزل عليها القرآن ، فيجوز أن يخطئوا في فهم المراد ، لذا يتوقف البعض عن الأخذ بأقوالهم في التفسير ٠٠٠ وفي هذا يقول أبو حنيفة " ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وماجاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال " ٠[٢]

أما أكثر المفسرين فقد ذكروا أقوالهم في كتبهم ونقلوها عنهم اعتمادا عليها فأخذوا بأقوالهم لأن التابعين تلقوا غالب تفاسيرهم عن الصحابة بشهادتهم أنفسهم ، فعن مجاهد قال : " عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث

---

(١) الرجوع الى أهل الكتاب ترتب عليه دخيل في التفسير بحكم ما أخذ عنهم ولبيان ما يقبل عنهم وما يرد نراجع مايلي :
(*) البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ٦ - ٧
(*) فتح البارى شرح صحيح البخارى في كتاب أحاديث الأنبياء باب ماذكر عن بني اسرائيل ج ٦ ص ٣٦١ ٠

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٢٨ ٠

عرضات أقف عند كل آيـــة منه وأسألـه عنها فيما نزلت وكيف كانت ؟ ".[١]

وعن قتادة قال"مافي القرآ ن آية الا وقد سمعت فيهاشيئا"[٢] وما تميـــل اليـه النفس : أن قول التابعي لايجب الأخذ به الا اذا كان مما لا مجال للرأى فيـه فعندئـذ يجب الأخذ به".

قال ابن تيميـة قال"شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست حجـة فكيف تكون حجـة في التفسير ؟ يعنى انها لاتكون حجة على غيرهـم ممن خالفهـم ... وهذا صحيح أما اذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونـه حجـة فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهـم حجة على بعض ولا على من بعدهـم ويرجع في ذلك الى لغـة القرآن أو السنة أو عموم لغـة العرب أو اقوال الصحابـة في ذلك" .[٣]

وفي أواخـر العهد الأموى وأوائل العهد العباسي اتسعت دائرة التدويـن والتأليـف عما قبلـها حيث أمر الخليفـة الراشد عمر بن عبد العزيز العلماء بجمـع أحاديث رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم خوفا من ذهاب بعضها بوفاة حافظيهـا ،[٤] وحتى يكون في الاستطاعـة التفريق بين صحيحهـا وسقيمها .

وكان بعد جمع الاحاديث التأليف في معظـم علوم الدين واللغـة العربيـة ، وكان لعلوم القرآ ن نصيب من هذا التأليف ، حيث ظهـر الاهتمام بالتفسـير الذى يعتبر الأ صل في فهـم القرآ ن وتدبره .

---

(١) الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٣، وانظر التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٢٨، ١٢٩ .

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٥

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ٧٦/١ .

وكان من العلماء من تابعي التابعين من اهتم بالتفسير وأخذوه عن التابعين فكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال التابعين أولأقوال الصحابة من قبلهم - رضوان الله عليهم - أو للروايات المنسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير بمعنى أنهم اهتموا بها اهتماما خاصا بجانب اهتمامهم بجمع الحديث رغم كون تلك التفاسير غير منفردة بتأليف خاص ولكنها - حاليا - موجودة في كتب التفسير بالمأثور ، من هؤلاء العلماء يزيد بن هارون السلمي (ت ١١٧ هـ) وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠ هـ) ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧ هـ) وسفيان بن عيينه (١٩٨ هـ) وروح بن عبادة البصرى (٢٠٥ هـ) وغيرهم ٠

ثم جاء بعد هؤلاء من فصل التفسير عن الحديث فأفرده بتأليف مستقل وفسر القرآ ن على حسب ترتيب المصحف العثماني كابن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ، وأبوبكر بن المنذر النيسابورى (ت ٣١٨ هـ) وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) والحسين ابن مسعود البغوى (٥١٠ هـ) وجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) وغيرهم من الأئمة ٠٠٠ وهؤلاء كان اهتمامهم الأكبر بالتفسير بالمأثور ولكن ابن جرير كان يرجح بعض الأقوال على بعض ، ويستنبط الأحكام ويذكر بعض وجوه الاعراب التى تزيد المعاني وضوحا (١) وكذلك فعل ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) في تفسيره - القرآ ن العظيم - بل ربما فاقه بأمور منها :

(١) كلامه في الجرح والتعديل لرواة الحديث ٠

(٢) التحذير من الأخذ بالآثار المنكرة من الاسرائيليات ٠

(٣) تفسيره الآية بالآية وربطه بينهما بعبارة سهلة موجزة حتى يتبين المراد ٠

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ بتصرف ٠

(٤) تكلمه في المناقشات الفقهية عند تفسير آيات الاحكام مع عدم اسرافه في ذلك ٠[١]

ثم اتسعت العلوم وتشعبت فروعها وظهرت كتب الفلاسفة المترجمة وعملت الفرق الاسلامية على نشر مذاهبها فظهرت ألوان من التفاسير المتأثرة بهذا كله ٠

لذا وجد التفسير بالرأى وأباحه العلماء اذا لم يعارض تفسيرا مأثورا ثابتا صحيحا وتوفرت فيه الشروط التالية :

(١) النقل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

(٢) الأخذ بقول الصحابة رضوان الله عليهم ٠

(٣) الأخذ بمطلق اللغة العربية ٠

(٤) الأخذ بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع ٠[٢]

ومن أشهر كتب التفسير بالرأى التى توافرت فيها هذه الشروط :

(١) تفسير الفخر الرازى (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) المسمى " بمفاتيح الغيب" والذى اهتم فيه بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وبذكر المناسبات بين الآيات ، وبين السور بعضها مع بعض ، كما اهتم بتقسيم الآية أو الآيات الى عدد من المسائل يتأولها ويرد عليها مدافعا عن عقيدة أهل السنة والجماعة وان كان

---

(١) التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ بتصرف ٠

(٢) البرهان في علوم القرآن جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٦١ وقد أورد الشيخ الذهبي في كتابه " التفسير والمفسرون " أيضا العلوم التى يحتاجها المفسر برأيه والمنهج الواجب السير عليه جـ ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٧٧ ٠

دفاعه أحيانا يكون قاصرا ٠ (١)

(٢) تفسير البيضاوى(٢) " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " الذى عنى فيه بتقرير الأدلة على أصول أهل السنة واهتم بقواعد اللغة العربية فهو بجملته يعتبر مختصرا - كما يقول الذهبي - من كتاب الكشاف للزمخشرى مع ترك مافيه من اعتزالات ٠

(٣) تفسير أبي السعود " المتوفى سنة ٩٨٢ هـ " ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم " وفيه اهتم بتقرير مذهب أهل السنة وكشف عن اسرار البلاغة القرآنية بصياغة حسنة وتعبير دقيق كما عنى بابداء المناسبات بين الآيات،(٣) وتناول ما تحتمله الآيات من وجوه الاعراب ٠ (٤)

والتفسير بالرأى اذا لم يكن بينه وبين التفسير بالمأثور تعارض فكل واحد منهما يؤكد الآخر ويثبته ، أما اذا عارضه أو اذا لم تتوفر فيه الشروط

---

(١) التفسير والمفسرون للشيخ الذهبي جـ ١ ص ٢٩٥ كما أن كتاب الفخر الرازى فيه أحاديث ضعيفة بل موضوعة ومثالها جـ ٣٢ ص ٤٧ - ٨١ ، وكذلك البيضاوى في تفسير سورة الفاتحة ، وكذلك في نهاية كل سورة أحاديث غير مقبولة انظر تفسير البيضاوى مع حاشية الشهاب ومثاله جـ ١ ص ١٥٢ ٠

(٢) التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٢٩٧ ٠

(٣) وكتاب أبي السعود أيضا فيه أحاديث ضعيفة كما في تفسير سورة الاسراء آية ٤٧ ، وآية ١١١ ، وفيه أحاديث موضوعة يذكرها عقب تفسير كل سورة ٠

(٤) التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٣٥٢ ٠

السابقة فهو مذموم لايجوز الأخذ به كتفاسير المعتزلة والمتصوفة والباطنية فمعظمها لايجوز العمل بها لأن أصحابها لم يؤلفوها الا لنشر مذاهبهم أو لتأييد أهوائهم ذلك أن الغالب على تفاسير المعتزلة هو الطابع العقلي والمذهبي الكلامي ومن أمثلتها تفسير الكشاف[1] للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) .

والغالب على تفاسير المتصوفة وجود النظريات الفلسفية التي لا صلة لها بالورع والتقوى ووجود الأفكار التي تتنافى مع الاسلام وعقيدته ومن أمثلتها تفسير محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) صاحب نظرية وحدة الوجود ، فهذا التفسير ونظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها ، ويغرق في التأويلات الباطنية البعيدة ، ويجر الى متاهات من الالحاد والزيغ ، فالاحرى أن نبتعد عنه .[2]

والحاصل : أن التفسير أخذ حظه الوافر من المنقول والمعقول واشتمل على دراسات مختلفة النواحي من لغوية وأدبية وبلاغية وفقهية ومذهبية وفلسفية ، فلم يترك المفسرون الأوائل لمن جاء بعدهم من المفسرين من عمل جديد ممكن اضافته للتفسير اللهم الا عملا ضئيلا كجمع أقوال المتقدمين وشرح الغامض منها أو ترجيح رأي على رأي ، أو نحو ذلك .. وجاءت بعد ذلك النهضة العلمية في العصر الحديث وشملت فيما شملته التفسير،

---

(١) وان كان للكتاب قيمته العلمية من ناحية الكشف عن جمال القرآن وسحر بلاغته ...
مناهل العرفان ج ١ ص ٥٣٨ والتفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ٤٣٣ ومابعدها ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٤١١ ، مناهل العرفان للزرقاني ج ١ ص ٥٥٨ .

وقد بين الشيخ الزرقاني أن هناك آثارا مشتركة لامتزاج العلوم الكونية والأدبية بالتفسير تتلخص فيما يأتى :

(١) زيادة الثقة بالقرآن وعروبته ومعارفه واعجازه .

(٢) الايمان بأنه كتاب غنى بكل ما يحتاجه البشر من ألوان السعادة .

(٣) الايمان بكونه كتاب الساعة ودستور الناس الى يوم القيامة ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ، ولا يستغنى عن كنوزه وذخائره .(١)

وكان العمل في التفسير يتلخص في أمور عديدة أذكر منها :

(١) تنقية التفسير من القصص الاسرائيلى .

(٢) تمحيص ماجاء في التفسير من أحاديث ضعيفة أو موضوعة .

(٣) الباس التفسير ثوبا أدبيا اجتماعيا .

(٤) التوفيق بين القرآن الكريم والجديد من النظريات العلمية الصحيحة .

وظهر التفسير في العصر الحديث بأربعة ألوان تتلخص في التالى :

(١) **التفسير العلمى :**

وهو الذى يهدف الى جعل القرآن الكريم مشتملا على سائر العلوم دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح ، وذلك - باعتقاد أصحابه - لبيان اعجازه وصدقه وصلاحيته للبقاء .(٢)

وخير مثال على هذا التفسير كتاب " الجواهر في تفسير القرآن الكريم " للشيخ طنطاوى جوهرى .

---

(١) مناهل العرفان جـ ١ ص ٥٦٩ بتصرف يسير .

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي جـ ٢ ص ٤٩٧ بتصرف .

حيث كان رحمه الله يفسر القرآن تفسيرا لفظيا مختصرا ، ثم يدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها لطائف أو جواهر . هذه الابحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث جاء بها - كما يقول - ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق الى هذه الأبحاث ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل اليها هؤلاء العلماء بقرون طويلة ، ونجد الشيخ طنطاوي يضع في تفسيره كثيرا من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم ليزيد القارىء وضوحا للحقائق ، كما أنه يستشهد أحيانا ببعض النصوص من انجيل (برنابا) ، كما انه يشرح بعض الحقائق الدينية بما ورد عن أفلاطون أو بما جاء عن اخوان الصفا في رسائلهم موضحا رضاه عنها مع مخالفتها للثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم .[1]

* **ومن أمثلة تفسيره :**

١) نراه عند تفسير قوله تعالى ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ...** ﴾ الآية[2]

يذكر الفوائد الطبية ويبين ما أثبته الطب الحديث من نظريات ومناهج هي نفسها التي نهجها القرآن الكريم فكأنه يقول هنا : ان العيشة البدوية على المن والسلوى أفضل بكثير من حياة المدينة الشقية حيث الاكثار من ألوان الطعام مع الذلة وجور الحكام ، وبمثل هذا تفسير هذه الآيات وبمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله " .[3]

٣) ونراه عند تفسير سورة الزلزلة يفسرها تفسيرا لفظيا مختصرا ثم يستعرض ماوقع من حوادث الزلزال في ايطاليا وما وصل اليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبترول من الأرض ومن استخراج آثار القدماء في مصر وغيرها . ثم يقول : ان السورة تشير في طرف

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ج ٢ ، ص ٥٠٨ .
(٢) آية / ٦١ سورة البقرة .
(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج ٢ ، ص ٥١٠ بتصرف .

خفي الى ذكر أحوال الدنيا – مع أنها في الأصل واردة لأحوال الآخرة ،فالارض الآن كأنها في حالة زلزلة ،وقد أخرجت اثقالها من كنوز وموتى وغيرها ، والناس الآن يتساءلون ويلهمون بالاختراع وهم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الاعمال بحيث تكون كل أمة في عمل يناسبها وكل انسان في عمله الخاص به"(١) .

٢) التفسير المذهبي :

هو تفسير القرآن الكريم بما يتمشى مع مذهب كل فرقة من الفرق الباقية – المنسوبة الى الاسلام – التى مازالت تحتفظ بتعاليمها وعقائدها في العصر الحديث فمثلا الزيدية – وهى أقرب فرق الشيعة الى مذهب أهل السنة –(٢) كان لها أثر مميز وطابع خاص في التفسير ،ومثاله كتاب " فتح القدير للشوكاني " المتوفي سنة ١٢٥٠هـ (٣) . حيث كانت طريقته في التفسير كالاتي : يذكر الآيات ثم يفسرها ناقلا عن أصحاب كتب التفسير كابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطي وغيرهم .

فهو يذكر المناسبات ويعنى بالنحو والصرف ويعلل ماذهب اليه ،ويعدد الآراء ،ويعنى بالقراءات ،ويعنى بالقراءات ،ويعزوها لأصحابها ،ويحدد معاني الألفاظ ويحيل على ماسبق تفسيره ،ويستشهد بالشعر العربى ،ويحلل المعاني تحليلا دقيقا ،ثم يذكر المأثور في النص الكريم بعد ذلك ،ويعزو مايذكره للمصادر التى استقى منها الآثار . ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا) الآية (٤) .

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ،ج ٢ ، ص ٥١٥ بتصرف .

(٢) وهو اشتراط الاجتهاد في الامام ورواية معظم الأحاديث عن زيد بن على زين العابدين ، التفسير والمفسرون ،ج ٢ ،ص ٢٨٠ بتصرف .

(٣) انظر ترجمة المؤلف في أول فتح القدير ،ص ٤ – ٩ .

(٤) الآية ٢٥ من سورة البقرة ،وانظر فتح القدير : ٥٤/١ .

وانظره عند تفسير قوله تعالى للآية (٥٥ من سورة البقرة) : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

يقول رحمه الله وانما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم ، لأنهم طلبوا مالم يأذن الله به من رؤيته الدنيا ، وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم الى انكار الرؤية في الدنيا والآخرة ٠

وذهب من عداهم الى جوازها في الدنيا ، ووقوعها في الآخرة ، وقد تواترت الاحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة ، وهي قطعية الدلالة لاينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها ، دعوى مبنية على شفا جرف هار وقواعد لا يغتر بها الا من يحظ من العلم النافع بنصيب)(١) ٠

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين : بأن العين لا تأثير لها في المعين وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢)

وقد انكر بعض المعتزلة أن للعين تأثيرا ، وصار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأى مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك ، و قد وردت الاحاديث الصحيحة بأن العين حق (٣) ، وأصيب بها جماعة في عصر النبوة ، ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) فتح القدير ج ١ ، ص ٠٨٧

(٢) سورة يوسف آية / ٦٧ ٠

(٣) رواه البخارى في كتاب الطب باب العين حق ، ج ٧ ، ص ٣١ ، ج ١٠ ص ١٧١ : ١٧٣ من فتح البارى ومسلم في كتاب السلام باب الطب و المرض و الرقى ج ١٤ ص ١٧١ ٠ ورواه الترمذى في كتاب الطب باب ماجاء أن العين حق ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ وقال فيه هذا حديث صحيح ٠

وأعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة مايقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف ، لمجرد الاستبعاد العقلي ، والتنطع في العبارات ، كالزمخشري في تفسيره ، فانه في كثير من المواطن لايقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد ، حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة ، على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة ، والمذاهب الزائفة ، وبالجملة ، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفا وخلفا ، وبما هو مشاهد في الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الانساني ، وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب "(١)

ونلاحظ أيضا أن له موقفا من مقلدى الأئمة وأتباعهم حيث أنه عند تفسيره لبعض الآيات يشبههم بالكفرة ، يقول الشيخ الذهبي رحمه الله : " نجد الشوكاني يذم المقلدة وأئمة المذاهب بما لايليق أن يصدر من عالم في حق آخر ربما كان أفضل منه عند الله " .(٢)

ومثال ذلك ماجاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣)

حيث قال مانصه (وان في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر ، وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فان ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فانهم القائلون : " إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٤١ بتصرف .
ولي ملاحظة على قوله في حق الزمخشري (حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة) فقد يقصد بها ماذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (عفا الله عنك لم اذنت لهم) من سورة التوبة / ٤٣ حيث قال : كناية عن الجناية ومعناه أخطأت وبئس مافعلت - وذلك في الكشاف ج ٢ ص ١٩٢ ، وأيضا ماذكره عند تفسير قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) حيث قال: لم تحرم من ملك اليمين أو العسل .. وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله لأن الله عز وجل انما أحل ما أحل لحكمة أو مصلحة عرفها في احلاله فاذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة ... ، قال الامام أحمد : ما أطلقه الزمخشري في حق النبي صلى الله عليه وسلم تقوّل وافتراء، ج ٤ ، ص ١٢٥.

(٢) التفسير والمفسرون ، ج ٢ ، ص ٢٩٢.

(٣) سورة الاعراف آية / ٢٨.

آثَارِهِم مُّقتَدُونَ " (١) .

والقائلون (وَجَدنَا عَلَيهَآ آباءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) (٢) والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودى على اليهودية ، والنصراني على النصرانية ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات الا كونهم وجدوا آباءهم في اليهوزدية أو النصرانية أو البدعة ، وأحسنوا الظن بهم ، بأن ماهم عليه هو الحق الذى أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغي وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص .

فيامن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الاسلامية ، أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة ، وتستمر على الضلالة ، فقد اختلط الشر بالخير والصحيح بالسقيم ، وفاسد الرأى بصحيح الرواية ، ولم يبعث الله الى هذه الأمة الا رسولا واحدا أمرهم باتباعه ، ونهى عن مخالفته فقال ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنهُ فَانتَهُوا ﴾ (٣)

ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد ، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعد أهل الرأى ، المكلفين للناس بمالم يكلفهم الله وان من أعجب الغفلة ، وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله ، ووجود من يأخذونها عنه ، ووجود آلة الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم). (٤)

---

(١) سورة الزخرف آية / ٢٣

(٢) سورة الاعراف آية / ٢٨

(٣) سورة الحشر آية / ٧

(٤) فتح القدير ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(٣) التفسير الالحادي:

وهو تفسير للقرآن على وجوه غير صحيحة تتنافى مع مافي القرآن من هداية ،وتناقض ماهو عليه من محجة بيضاء وتدخل فيه آراء سخيفة ومزاعم منبوذة يدخلها المغتر بعلمه القليل المفسر الذى لا يتقيد بأى أصل من أصول التفسير ، ومثاله كتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) فقد أنكر مؤلفه المعجزات التي جاءت عن الأنبياء بقدرة الله سبحانه ، كما أنكر أحكام الدين ومنها تعدد الزوجات وحد السرقة وهو في شأن المعجزات يقول في قوله تعالى : ﴿ واذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ والمراد انسان خفيف كالطير ،

وفي قوله تعالى : ﴿ وتبرىء الأكمه ﴾ يقول الأكمه من ليس عنده نظر ،

وفي قوله سبحانه : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم ﴾ والمراد به التدبير المنزلي ،

ويقول في ضرب موسى الحجر معجزة له .. الحجر اسم مكان والمراد اذهب الى هذا المكان وينص على أن ابراهيم عليه السلام لم يدخل النار ، ويقول في ذلك يستحيل دخول ابراهيم في النار ، وفي قوله سبحانه : ﴿ قالت نملة ﴾ المراد قبيلة وينكر تشريع الزكاة ، ويقول الأمة هي التي تقرر الزكاة الى غير ذلك من الالحاد ، وقد صودر الكتاب واختفى عن الأعين ولله الحمد.[١]

(٤) التفسير الأدبي الاجتماعي:

هو تفسير النصوص القرآنية باظهار موانع الدقة في التعبير القرآني وصياغة المعاني في اسلوب شيق أخاذ ، ثم تطبيق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع ونظم العمران .

---

(١) انظر التفسير والمفسرون ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ ، بتصرف يسير ففيه مختصر ماجاء في الكتاب من الحاد وغواية وانحراف وا,وكذا جـ ٢ ، ص ٥٣٢ : ٥٤٦ .

وخير من يمثله الشيخ محمد عبده ثم الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وان كان الأخيران قد تأثرا بالشيخ محمد عبده وبمدرسته التى أقامها للتفسير حيث بذل فيها مجهودا كبيرا يذكر له منه :

(١) البعد عن التأثر بأى مذهب من المذاهب ٠

(٢) الوقوف من الروايات الاسرائيلية موقف الناقد البصير ٠

(٣) البعد عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون التى استعملها السابقون ٠

(٤) نهج المنهج الأدبى الاجتماعى بالتفسير للكشف عن بلاغة القرآن واعجازه ومعالجة مشاكل الأمة الاسلامية خاصة والأمم الأخرى عامة ٠

(٥) التوفيق بين القرآن الكريم وما أثبته العلم من نظريات صحيحة ٠

وكل ذلك باسلوب شيق جذاب يحبب القارىء في النظر في كتاب الله ويرغبه في معرفة أسراره ومعانيه ٠

يقول الشيخ الذهبى ما ملخصه :

ان انتاج الشيخ محمد عبده في التفسير لم يشمل القرآن كله ، وانما ينحصر فيما يأتى :

(١) تفسيره المشهور لجزء " عم " وهو مطبوع ٠

(٢) تفسيره لسورة العصر ٠

(٣) بعض البحوث التفسيرية التى عالج بها بعض مشكلات القرآن كشرحه لآيات من سورة النساء ، وآيات من سورة الحج ، وأخرى من سورة الاحزاب٠

(٤) تفسيره لسورة الفاتحة والبقرة وجزء من سورة النساء ٠

ويقول ان ذلك كله لم يدون ، وانما كان عبارة عن دروس ألقاها على طلابه

قال : ان القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين ، فالمعنى أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله واذنه) لأمورها بالسنن التى عليها مدار نظامها كما قال (فالمدبرات أمرا) مسخرة لآدم وذريته اذ خلق الله هذا النوع كخواص الماء والهواء والكهرباء والنور والأرض معادنها ونباتها وحيوانها واظهاره لحكم الله تعالى وآياته فيها ومستعدا لاصطفاء الله بعض أفراده واختصاصهم بوحيه ورسالته ، واقامة من اهتدى بهم لدينه وميزان شرعه ، وقد أشير الى ذلك فى الآية (٣١) من سورة البقرة ، بقول تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلها) الا أنه جعل الشيطان عاتيا متمردا على الانسان ، بل عدوا له ، من حيث أن الانسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله واقامة سنته فى صلاح الخلق وبين روح الجن الذى يغلب على شرارهم – وهم الشياطين – التمرد والعصيان ، وقد أعطى الانسان ارادة واختيارا من ربه فى ترجيح مابه يصعد الى أفق الملائكة ، ومابه يهبط الى أفق الشياطين) (١) .

ومثال ما أبدى فيه رأيه فى أصحاب الكبائر ماذكره عند تفسير قوله تعالى فى شأن المرابين : (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) حيث خالف أهل السنة ، وأكد أن صاحب الكبيرة التى فى درجة أكل الربا وقتل العمد اذا مات ولم يتب منها يخلد فى النار ولايخرج منها ... فنراه يقول : (أى ومن عاد الى ماكان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه ، فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم الذى لاينهاهم الا عما يضرهم فى أفرادهم أو جمعهم . هم أهل

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٣٣٢ .

النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه فيكونون فيها خالدين) (وقد أول الخلود المفسرون لتتفق الآية مع المقرر فى العقائد والفقه من كون المعاصى لاتوجب الخلود فى النار ، فقال أكثرهم : ان المراد ومن عاد الى تحليل الربا واستباحته اعتقادا ، ورده بعضهم بأن الكلام فى أكل الربا وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم ، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم ، فاذا كان الوعيد قاصرا على الاعتقاد بحله لايكون هناك وعيد على اكله بالفعل) .

(والحق ان القرآن فوق ماكتب المتكلمون والفقهاء ، يجب ارجاع كل قول فى الدين اليه ، ولايجوز تأويل شىء ليوافق كلام الناس ، وما الوعيد بالخلود هنا الا كالوعيد بالخلود فى آية قتل العمد ، وليس هناك شبهة فى اللفظ على ارادة الاستحلال) .

(وصار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات مع الاعتراف بأنها من كبائر ماحرم كما بلغنا عن بعض كبرائنا انه قال : اننى لا أنكر أننى آكل الربا ولكننى مسلم أعترف بأنه حرام ، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد ، وبأنه يرضى أن يكون محاربا لله ولرسوله ، وظالما لنفسه وللناس . فهل يعترف بالملزوم؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ نعوذ بالله من الخذلان) .(١)

---

(١) أنظر المنار حـ ٣ ص ٩٨ - ٩٩ .

أما بالنسبة لكتاب " تفسير المراغى " فقد نهج فى تأليفه النهج التالى :

أولا : كان يصدر كل بحث بآية أو آيتين أو آيات من الكتاب الكريم والتى تؤدى غرضا واحدا .

ثانيا : كان يردف ذلك بتفسير للمفردات اللغوية غير الواضحة للقراء .

ثالثا : كان يتبع ذلك بذكر المعنى الاجمالى للآيات ليكون القارئ صورة مجملة حتى اذا جاءه التفسير وضحت لديه المعانى وفهمها .

رابعا : كان يعرض عن ذكر مصطلحات العلوم من نحو وصرف وبلاغة واشباه ذلك .

خامسا : كان يستعين بذكر الروايات المأثورة المقبولة لانه يرى ذلك اسلم لصادق المعرفة وأشرف لتفسير كتاب الله ، وأجذب لقلوب المثقفين - ثقافة علمية - والتى لايقنعها الا الدليل والبرهان ونور المعرفة الصادقة .

سادسا : بيّن أسلوبه فى كتابه التفسير حيث قال : " كان أهم ماعنيت به ان أقرأ فى الموضوع الواحد ماكتبه اعلام المفسرين على اختلاف نزعاتهم وتباين أزمنتهم حتى اذا اطمأننت الى فهم ماقرأت وتمثلته وهضمته ، كتبته بأسلوب العصر الحاضر ، واستبدلت بأساليب المؤلفين

أسلوبا سهل المأخذ قليل الكلفة فى الفهم ، حتى يستطيع القارئ ان يلم بأسرار كتاب الله دون كد ولا نصب ، وهذا هو منهجى فى تأليف هذا التفسير " (١) •

كذلك نجده يعتنى اعتناء كبيرا باظهار اسرار التشريع الاسلامى وحكمة التكليف الالهى ليظهر محاسن الاسلام ، ويكشف عن هدايته للناس فيستطرد مثلا عند تفسيره لآيات الصوم (٢) مبينا اسراره وحكمه حيث يقول :

" فرض عليكم الصيام كما فرض على المؤمنين من أهل الملل قبلكم من لدن آدم عليه السلام ، وفى هذا تأكيد له وترغيب فيه ، وتطييب لأنفس المخاطبين فانه عبادة شاقة والامور الشاقة اذا عمت كثيرا من الناس سهل تحميلها ورغب كل احد فى عملها •

وفرضه عليكم ليعدكم لتقوى الله بترك الشهوات المباحة الميسورة امتثالا لأمره واحتسابا للأجر عنده ، فتتربى بذلك العزيمة والارادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر عنها ، وقد جاء فى الحديث : " الصيام نصف الصبر " (٣) •

---

(١) تفسير المراغى حـ ١ ص ١٦ : ١٨ بتصرف •

(٢) سورة البقرة (١٨٣ : ١٨٥) •

(٣) رواه الترمذى فى كتاب الدعوات فى ابواب فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد حـ ٥ ص ١٩٧ وقال فيه هذا حديث حسن •

وبهذا نعلم أنه ماكتب علينا الصوم الا لمنفعتنا "(١)

" واعداد الصوم لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة اعظمها شأنا :

(١) انه يعود الانسان الخشية من ربه فى السر والعلن ، فاذا ترك الشهوات التى تعرض له من أكل شهى وشراب عذب ، وفاكهة حلوة وزوجة جميلة ، امتثالا لأمر ربه ، وخضوعا لتعاليم دينه مدة الصيام شهرا كاملا .. فاذا تركها .. لاجرم أنه بتكراره ذلك يتعود الحياء من ربه والمراقبة له فى أمره ونهيه ، وفى ذلك تكميل له وضبط للنفس عن شهواتها وشدة مراقبتها لبارئها .

ومن كملت لديه هذه الخلة لايقدر على غش الناس ومخادعتهم ، ولا على اكل اموالهم بالباطل ، ولا على هدم ركن من اركان الدين كالزكاة ، ولا على اقتراف المنكرات وفعل السيئات ، واذا ألم بشىء منها يكون سريع التذكر قريب الرجوع بالتوبة الصحيحة كما قال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ "(٢) .

(٢) أنه يكسر حدة الشهوة ويجعل النفس مصرفة لشهواتها بحسب الشرع .

---

(١) تفسير المراغى حـ ١ ص ٦٨ / ط ٤ .

(٢) سورة الاعراف آية (٢٠١) .

(٣) انه يعود الشفقة والرحمة الداعيتين الى البذل والصدقة فهو عندما يجوع يتذكر من لايجد قوتا من أولئك البائسين ، فيرق قلبه لهم ويشفق عليهم ، وفى ذلك تكافل للامة وشعور بالاخوة الدينية .

(٤) أن فيه المساواة بين الاغنياء والفقراء ، والملوك والعامة فى أداء فريضة دينية واحدة .

(٥) تعويد الامة النظام فى المعيشة فهم يفطرون فى وقت واحد

(٦) أنه يفنى المواد الراسبة فى البدن خاصة فى اجسام المترفين قليلى العمل والحركة ، ويجفف الرطوبات الضارة ويطهر الامعاء من السموم التى تحدثها البطنة ، ويذيب الشحم الذى هو شديد الخطر على القلب "(١)

ثم فسّر بقية الآيات بأسلوب سهل بسيط موضحا رخصة الشارع الحكيم فى اباحة الفطر للمريض والمسافر " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم " اليه من الاحكام التى فيها سعادة المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، " وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "(٢) اى تشكرون له نعمة كلها فتعطوا كلا من العزيمة والرخصة حقها فيكمل ايمانكم ويرضى عنكم ربكم (٣) .

---

(١) تفسير المراغى حـ ١ ص ٧٠

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٣) تفسير المراغى حـ ١ ص ٧٤ .

وهناك امر ظاهر فى دروس المراغى - رحمه الله - وتفسيره وهو عدم خوضه فى مبهمات القرآن بالتفصيل فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم " تراه يقول : " ونحن لانعلم ماهو الذى فرضه الله على الامم السابقة من قبل أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس أم غيره ؟ وليس لنا مايهدينا الى شيء معين من دليل يطمئن اليه القلب . والتشبيه لايدل على المماثلة فى كل شيء ، فنحن نؤمن بأن صوما فرض على الامم السابقة لانعلم مقداره ولاكيفيته ولايزال الصوم معروفا عند الامم الاخرى على اوضاع مختلفة "(١) .

وفى تفسيره اثبت ماذكره القرآن من ان الصوم فرض علينا كما فرض على المؤمنين من اهل الملل السابقة من لدن آدم عليه السلام (٢) . فلم يفصل فى ذلك ولم يتعرض للاختلافات فيه . ثم طبعت هذه الدروس (٣) .

وجاء بعدهما الاستاذ سيد قطب بكتابه " فى ظلال القرآن" وقد أثر هذا الكتاب فى الفكر الاسلامى المعاصر - نتيجة لمناقشته أيضا موضوعات وقضايا معاصرة - حيث اقبل عليه الكثير من المسلمين وأفادوا منه ، واعترض عليه بعض المثقفين فأحببت ان ابين منهج

---

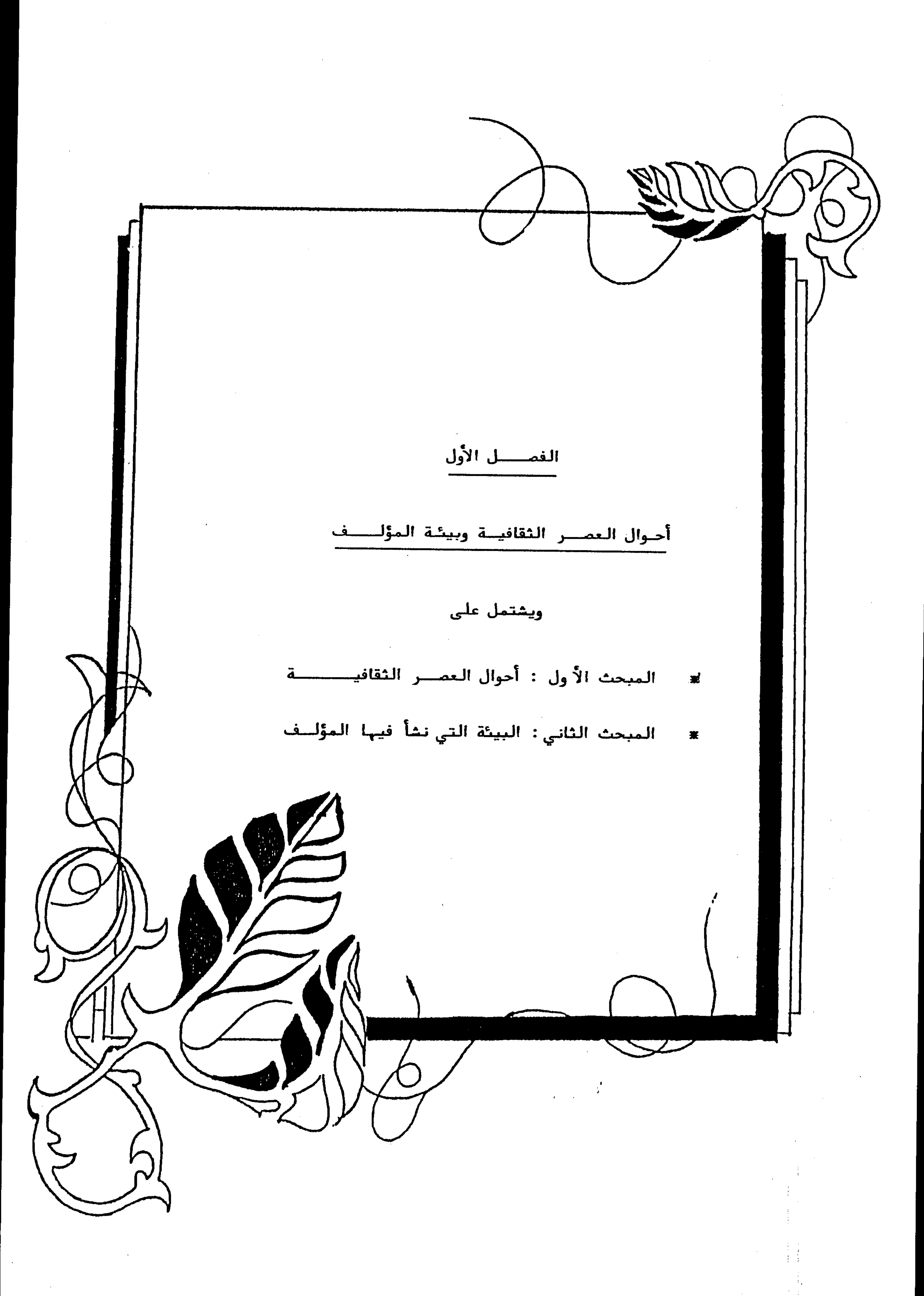
(١) التفسير والمفسرون حـ ٢ ص ٥٩٦ .

(٢) تفسير المراغى حـ ١ ص ٦٨ .

(٣) راجع التفسير والمفسرون للشيخ الذهبى جـ ٢ ص ٥٧٧ - ٦٠٩ لترى الفرق بين تفسير كل من الشيخ محمد رضا والشيخ محمد المراغى واستاذهما الشيخ محمد عبده .

المؤلف - رحمه الله - فى كتابه " فى ظلال القرآن " بصورة عامة بعد التعرض لحياة المؤلف - رحمه الله - ومدى تأثره بالعصر الحديث ٠

وبالله التوفيق ،،

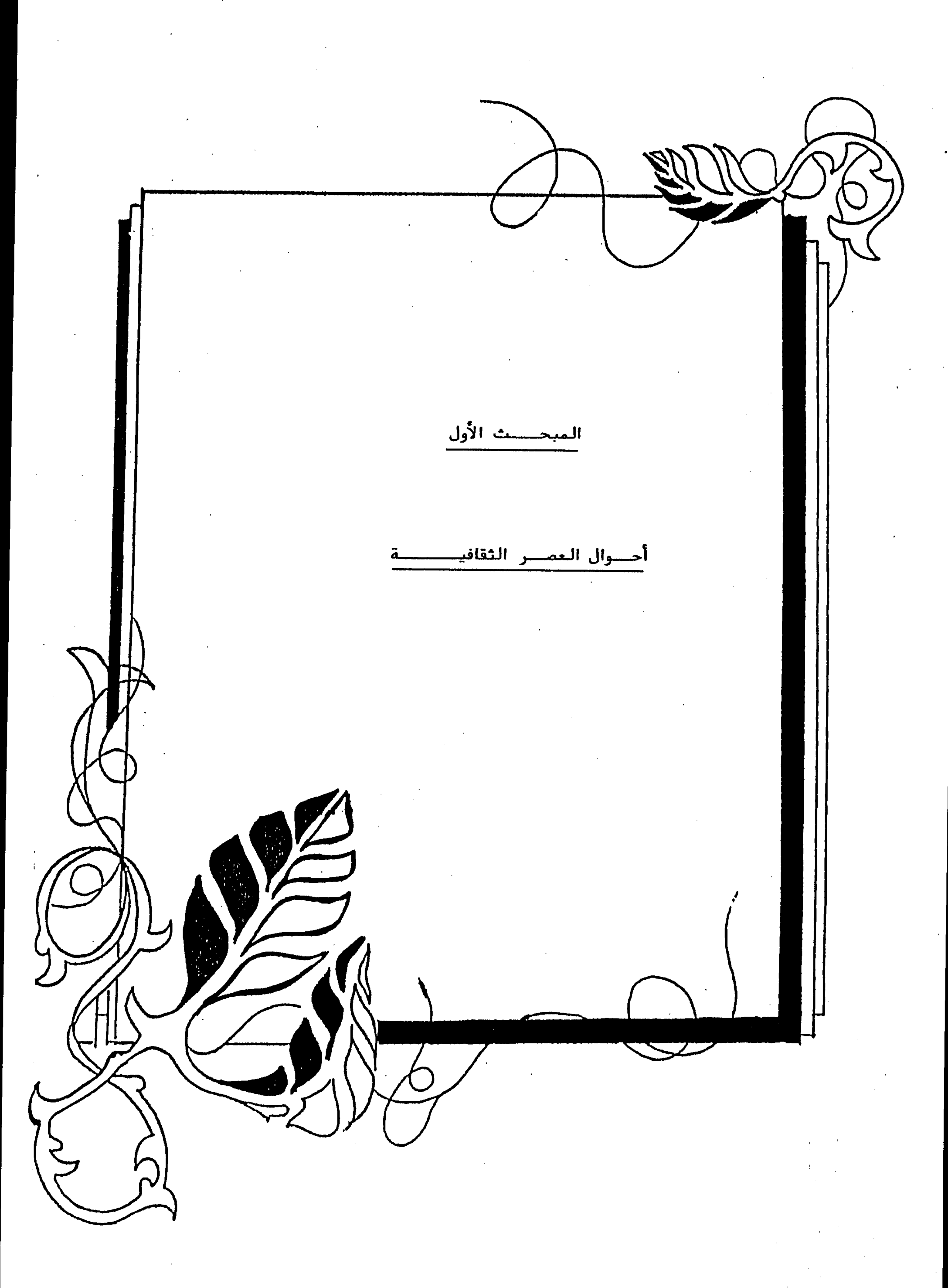


الفصـــل الأول

أحـوال العصـر الثقافيـة وبيئة المؤلـف

ويشتمل على

* المبحث الأول : أحوال العصـر الثقافيـة
* المبحث الثاني : البيئة التي نشأ فيها المؤلـف



المبحث الأول

أحوال العصر الثقافية

الفصل الأول

أحوال العصر الثقافية وبيئة المؤلف

المبحث الأول : أحوال العصر الثقافية :

قامت في مصر نهضة فكرية كبيرة شملت مختلف النواحي أشهرها الناحية الأدبية ، والناحية الدينية ، وعن الناحية الأدبية كانت هناك نهضة أدبية حديثة أساسها يرجع الى افتتاح المدارس واطلاع كثير من الأدباء على الأدب الغربي سواء عن طريق البعثات الى الخارج أو عن طريق الاطلاع على الكتب المترجمة ، ومن ثم قراءة ما أحياه البعض من تراث العرب .[1]

وقد ظهرت مدارس أدبية مختلفة ، ولمع كثير من الشعراء والأدباء وكان نشاطهم ملحوظا في تأليف الكتب العديدة المختلفة الموضوعات .

وفي ترجمة الكتب الأجنبية وعقد الندوات ، وفي نشر المقالات والقصائد في الصحف والمجلات التى اشتهرت مصر باصدارها أكثر من غيرها من البلاد العربية .

وبالتالي ساهمت هذه الصحف والمجلات في انماء الوعى لدى الشعب حيث عرّفت الناس بنتاج الأدباء من قصص وقصائد ومقالات وبحوث وغيرها كما حثتهم على المطالبة بحقوقهم الأساسية في العدل والحرية والاستقلال ودعتهم الى الرجوع الى فضائل الأعمال وتحكيم الاسلام في جميع النواحي .

---

(١) في الأدب الحديث لعمر دسوقي ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

أما بالنسبة للنهضة الدينية فقد قامت على يد الشيخ محمد عبده - الذى كان أستاذا في الأزهر ، ثم أصبح المفتى العام للبلاد - حيث ابتدأها باصلاح الأزهر ، ثم اصلاح مناهج التعليم والمحاكم الشرعية والمساجد كما أسس جمعية خيرية ، وترأس جمعية احياء الكتب العربية ، كما كانت له اعمال اصلاحية أخرى ٠ (١)

هذا وقد حمل راية الاصلاح من بعده الشيخ رشيد رضا ، وقام بواجبه الاسلامي في هذا الاصلاح ، كما ألف عدة كتب اسلامية ٠ (٢)

وفي عام ١٩٢٨ للميلاد أنشأ الشيخ حسن البنا جماعة الاخوان المسلمين وكانت تهدف الى اقامة مجتمع اسلامي ، وتحاول تربية الأفراد تربية اسلامية متوازنة ، وقد أثبتت وجودها فعلا في المجتمع المصرى ، فأنشأت المدارس والمستشفيات والمساجد والمكتبات ، والمصانع والشركات (٣) وأثبتت امكانية قيام مجتمع اسلامي يطبق أفراده التعاليم الاسلامية بقدر الامكان ، هذا وقد كان نشاط رجال الجماعة الثقافي بارزا للعيان ، فقد كتبوا العديد من المؤلفات الاسلامية (٤) التى تتحدث في شتى المواضيع وتهدف الى بيان الحياة الاسلامية السعيدة التى يجب أن يكون عليها المسلمون

---

(١) الفكر الاسلامي المعاصر ص ١٣ : ٥٤ ٠

(٢) وان كانت لنا ملاحظات على الشيخ محمد عبده ومدرسته ، ليس هنا مجال تفصيلها٠

(٣) الاخوان المسلمون والمجتمع المصرى ص ١٣٧ : ٢٢٥ ٠

(٤) الاخوان المسلمون والمجتمع المصرى ص ١٧٤ - ١٨٠ ٠

اليوم ، بالاضافة الى مقالاتهم التى كانت تظهر في الصحف والمجلات سواء منها من كان تابعا لهم[١]، أو لغيرهم ولا يغيب عن البال المحاضرات التى كانوا يلقونها في سبيل نشر الثقافة الاسلامية .[٢]

ولاشك أن سيد قطب تأثر بهذه النواحي الأدبية والدينية تأثرا كبيرا حيث كان يعايشها بكل كيانه ، واستعداده كامل للتفاعل معها والاضافة اليها ونشرها بين الناس .

* * *

---

(١) الاخوان المسلمون والمجتمع المصرى ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٢) الاخوان المسلمون والمجتمع المصرى ص ١٨٣ ـ ١٨٥

المبحـــث الثانـــي

البيئـة التي نشـأ فيها المؤلـــف

المبحث الثاني : البيئة التى نشأ فيها المؤلف :

ان البيئة التى نشأ فيها المؤلف الشهيد سيد قطب كانت في بدايتها في قرية صغيرة ، وفي أسرة كريمة متوسطة الحال متدينة شجعت ابنها البكر على الالتحاق بمدرسة القرية ، فكان أن أظهر تفوقا ملحوظا في دروسه ،، وكان يكثر من الاطلاع على الكتب الأدبية بطبعه وبتشجيع من أساتذته وأهل قريته الذين توقعوا له مستقبلا باهرا خاصة وأنه قد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره ،[١] يضاف الى ذلك أنه كان يقرأ الجريدة اليومية - التى كان والده مشتركا فيها - لمن يحضر لاستماعها في منزله من أهل قريته ، كل هذا عمل على تكوين حصيلة ثقافية لديه بالاضافة الى التصورات التى رسخت في ذهنه عن قصص الريف الخرافية والأصوات التى ساعدت في تكوين الشعور المرهف لديه من فنون المحبين والغرباء وصياح المفجوعات من النساء وأدعية المصلين والاتقياء .[٢]

أما البيئة التى عاشها شابا فكانت في المدينة حيث بدأ في تقوية حصيلته الثقافية منذ التحاقه بمدرسة المعلمين الى أن تخرج من كلية دار العلوم ، فكان أن ألمّ بكثير من العلوم الدينيةوالعربية بنسب مختلفة بالاضافة الى اطلا عاته في علوم التاريخ والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والفيزياء وغيرها وكان يعى مايدرس ويفهم ما يقرأ حتى فاق زملاءه وحاز اعجاب أساتذته ، وكان بعد تخرجه من الكلية يقرأ كل ما اتصلت اليه يداه، أو تقع عليه عيناه .

---

(١) سيد قطب خلاصة حياته ومنهجه في الحركة ص ٠٩

(٢) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢١ بتصرف .

وكان أن تأثر بعدة أدباء تأثرا أدبيا وفكريا وخاصة شخصية استاذه العقاد الذى استفاد كثيرا من مكتبته وثقافته ومن نظراته في الأدب ، والشعر والنقد والفن فصارت اهتمامات سيد أدبية فنية لفترة طويلة من الوقت - مع أن المتوقع له أن يسير في طريق اسلامي لنشأته الدينية الأولى - وبعد علاقاته الأدبية والفكرية اتصل بالقرآن الكريم وتأثر بالشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، وكان ذلك عام ١٩٤٨ وهما من ذوى الاتجاه الاسلامي الذين يدافعون عن الاسلام ويدعون الى تحكيمه في شئون الحياة ويبرزون سمو النظام الاسلامى[١]، ثم ظهرت كتبه الاسلامية " التصوير الفني في القرآن " و " مشاهد القيامة في القرآن " و " العدالة الاجتماعية في الاسلام " ثم تتابعت كتبه الاسلامية بعد ذلك ·

* * *

---

(١) سيد قطب خلاصة حياته لبركات ص ١٤ ·



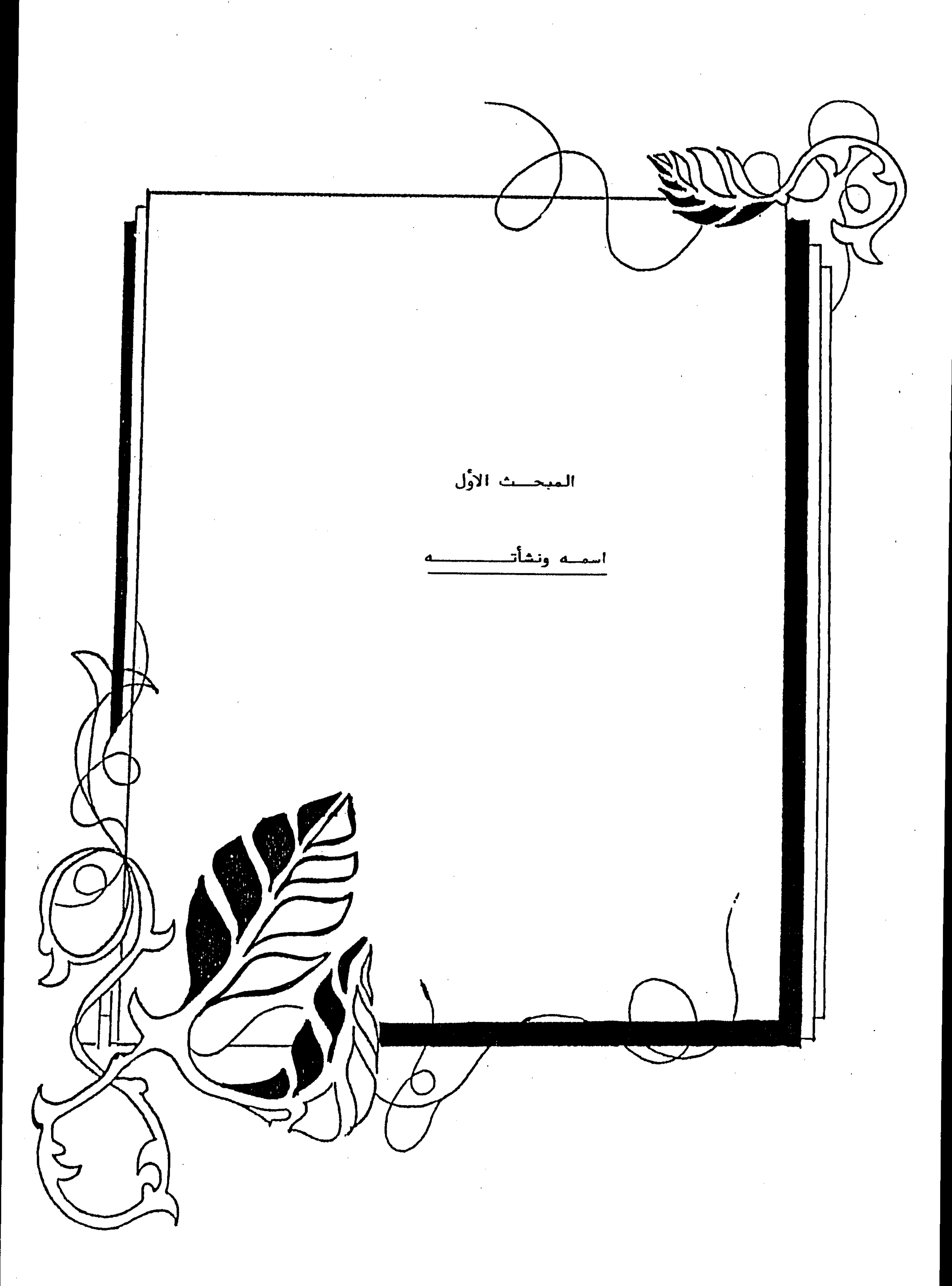
الفصل الثاني

حياة المؤلف

وفيه خمسة مباحث

* المبحث الأول : اسمه ونشأته
* المبحث الثاني : حياته الاجتماعية
* المبحث الثالث : ثقافته الفكرية
* المبحث الرابع : جهوده العلمية ومؤلفاته
* المبحث الخامس : وفاته

* * *



المبحـــث الأول

اسمــه ونشأتـــــه

الفصل الثاني

حياة المؤلف وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول : اسمه ونشأته :

أصله ونسبه :

هو سيد بن قطب بن ابراهيم بن حسين شاذلي[(١)]، ولد عام ١٩٠٦ م في قرية موشا جنوب مدينة أسيوط حيث نشأ في اسرة ميسورة الحال .[(٢)]

هذا وقد اختلف في أصله ، أهو مصرى أم هندى ؟ فذهب بعضهم ومنهم المجاهدة السيدة زينب الغزالي[(٣)] الى أن أصله هندى ، وأن أحد أجداده قدم من الهند الى مكة للحج ، ثم استقر واستوطن قرية موشا في صعيد مصر .

وذكر الاستاذ أبو الحسن الندوى في كتابه " مذكرات سائح في الشرق " أن سيدا قد حدثه بذلك مبينا له السبب لزيارته للهند ومحددا له اسم جده السادس[(٤)]، غير أن الاستاذ محمد قطب نفى ذلك وقال " سمعنا من الوالد أن اسمه ينتهي بلقب " الفقير عبد الله " ولما كان لقب الفقير من الألقاب التى يسمى بها المنقطعون للدين وللعلوم الشرعية فقد ظننا - مجرد ظن - أن نسب الوالد ينتهي الى أصل هندى ، ولكن ليس عندنا ما يقطع بذلك .[(٥)]

---

(١) عن طريق الاستاذ محمد قطب .
(٢) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٠
(٣) حينما أتت للجامعة عام ١٤٠٣ هـ مشافهة .
(٤) مذكرات سائح في الشرق ص ١٥٣ .
(٥) عن طريق الاستاذ محمد قطب سنة ١٤٠٣ هـ .

أسرتـــــه :

نشأ سيد في أسرة ميسورة الحال متميزة عن بقية أسر القرية ويوضح ذلك ما بينه سيد نفسه من مكانة والديه في اسرتيهما حيث قال :

" كان والده قد صار عميد الأسرة المكلف بحفظ اسمها ومركزها في الوقت الذى لم ينله من الميراث الا نصيب محدود لا ينهض بما كانت تنهض به ثروة الأسرة مجتمعة علىّ حين لايستطيع أن ينقص شيئا من تكاليف المظهر في الريف وكان هو بعد هذا متلافا مضيافا فزاد ذلك في التكاليف التى لا تحتملها ثروته ، ولكنه حافظ على كل المظاهر والمطالب الى اللحظة الأخيرة .

وكانت والدته من أسرة مماثلة أو أعرق وقد وقع لها ما وقع لاسرة الوالد حرفا بحرف ... ولكن زاد عليها أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا الى الأزهر في القاهرة شأن غالبية الأسر الريفية الثرية ، فأنشأ هذا في الأسرة نوعا من الرقي العلمي بجانب الوجاهة الريفية ." (١)

وبتفصيل أكثر وبالنظر في بعض الكتب نرى :

أولا : والـــده :

كان رجلا متدينا مرموقا بين سكان القرية يهتم بزراعة أراضيه ويعطف على الفقراء ويبر بهم مما اضطره على ما يبدو الى أن يبيع قسما كبيرا من أطيانه .(٢)

---

(١) سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٣ ـ ٢٤

(٢) مع سيد في فكره السياسي لمهدى فضل الله ص ٤٣ .

كما كان هذا الوالد مستنيرا بعض الشيء ، وكان عضوا في لجنة الحزب الوطني ومشتركا في جريدته اليومية . (١)

وذكر الاستاذ " محمد توفيق بركات " أنه كان كريما في الانفاق ويعتمد في معيشته على أراض واسعة نسبيا ، يشتغل له فيها الفلاحون بالاجرة ، ومع ذلك لم تكن نفقاته تتناسب مع مردود أرضه ، فلا يزال يبيع منها شيئا بعد شيء للوفاء بالديون التى تراكمت عليه لكثرة انفاقه . (٢)

وأرى أن كثرة الانفاق ـ استنتاجا من وصف سيد لوالده ـ راجعة لكونه متلافا مضيافا ، والى اقامته الولائم الكبيرة والحفلات والاجتماعات للقراء والخطباء ولمن يحضر من أهل القرية .

مع ملاحظة أن هذا الوالد كان يعيش واليوم الآخر نصب عينيه بمعنى أنه كان متسامحا ، جوادا ، متصدقا ، يؤثر غيره على نفسه ، ويعفو عمن أساء اليه وذلك كله ابتغاء مثوبة الله في ذلك اليوم ، وخير مايدل على هذه الصفات ماجاء في اهداء سيد لوالده كتابه " مشاهد القيامة في القرآن " حيث قال : " لقد طبعت في حسي ـ وأنا طفل صغير ـ مخافة اليوم الآخر ، لم تعظني أو تزجرني ولكنك كنت تعيش أمامي ، واليوم الآخر في حسابك ، وذكراه في ضميرك وعلى لسانك كنت تعلل تشددك في الحق الذى عليك ، وتسامحك في الحق الذى لك بأنك تخشى اليوم الآخر . وكنت تعفو عن الاساءة وأنت قادر على ردها لتكون لك كفارة في اليوم الآخر . وكنت تجود أحيانا بما هو ضرورة لك لتجده زخرا في اليوم الآخر . وان صورتك لمطبوعة في مخيلتي ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء

---

(١) سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٣

(٢) سيد قطب خلاصة حياته ـ لمحمد توفيق بركات ص ٩ بتصرف .

فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها الى روح أبويك في الدار الآخرة ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات قبل ان نجيد حفظها كاملات ٠[(١)]

ثانيا : والدته :

كانت أمه من أسرة لها مكانة مرموقة في القرية جمعت بين الوجاهة العلمية والوجاهة الاجتماعية نظرا لايفاد اثنين من أبنائها الى القاهرة ليتعلما في الأزهر ٠

وكانت والدته كريمة سخية تصنع الطعام وتعده بنفسها للقراء الذين يأتون لتلاوة القرآن في منزلهم ، وللعمال الغرباء الذين يعملون في حقول الأسرة تجهزه - كما كانت تجهز طعام الأسرة - بنفس راضية راغبة ثوابه جل وعلا ٠ [(٢)]

وكانت دائمة الاستماع الى القرآن الكريم بخشوع وتأمل كما كانت تحث ابنها سيدا على أن يقرأ لها القرآن وقد ذكر سيد هذه الصفة فيها في اهدائه كتابه " التصوير الفني في القرآن " لها ، قائلا : " لطالما تسمعت من وراء الشيش في القرية للقراء يرتلون في دارنا القرآن ، طوال شهر رمضان وأنا معك - أحاول أن ألغو كالاطفال - فتردني منك اشارة حازمة ، وهمسة حاسمة ، فأنصت معك الى التريتل ، وتشرب نفسي عذوبة اداثه وان لم أفهم بعد معناه وحينما نشأت بين يديك بعثت بي الى المدرسة الأولية في القرية ، وأولى أمانيك أن يفتح الله عليّ ، فأحفظ القرآن وأن يرزقني الصوت الرخيم فأرتله لك كل آن٠

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ص ٣ باختصار٠

(٢) طفل من القرية ص ١٦٦ ٠

ولقد رحلت عنا - يا أماه - وآخر صورك الشاخصة في خيالي جلستك في الدار أمام المذياع تستمعين للترتيل الجميل ويبدو في قسمات وجهك النبيل أنك تدركين بقلبك الكبير وحسك البصير - مراميه وخفاياه " .(١)

وكانت الأم حريصة على تربية أبنائها التربية الايمانية وكانت تعتني بسيد عناية فائقة - لأنه الابن الكبير بعد اخته التى تكبره بثلاثة اعوام - وتغرس في نفسه من الصفات الايمانية مايجب أن يكون عليه رجل المستقبل من عزة وكرامة واقتصاد ، وتحمل مسئولية ، فقد كانت تريد منه أن يكون رجلا قبل أوانه ، لذا كانت تفضى اليه ببعض ماكان يكدر صفو حياتها . (٢)

وقد توفيت والدته عام ١٩٤٠ م . (٣)

فاذا كانت والدته على هذه الصفات الحميدة فلا شك أنها تركت أثرا كبيرا ملموسا على حياته جعلت منه فعلا رجلا عظيما .

ثالثا : قريته :

ولد سيد في قرية تسمى قرية موشا في جنوب مدينة أسيوط ، وقد نشأ فيها ولم يغادرها الا عندما أراد الالتحاق بالمدرسة الثانوية أى في شبابه ، ونحن حينما نذكر شيئا عن قريته نذكره لأنها تركت أثرا عظيما عليه وساهمت في تكوين شخصيته .

---

(١) أنظر التصوير الفني في القرآن ص ٥ لسيد قطب بتصرف يسير .
(٢) طفل من القرية لسيد قطب من ص ١٧٤ : ١٨٠
(٣) الأطياف الأربعة ص ١٦٨ .

وقد تميزت قرية سيد قطب بما يلى :

(١) لم تكن هناك فوارق كبيرة مادية بين أهالي القرية أى أن مستوى المعيشة في القرية بشكل عام متوسط بدليل أن الاطفال اذا فرحوا بالملاليم كان سيد في كفه بضعة قروش ، واذا نال بعض الصغار قطعا من الحلوى كان حظه منها وافرا تعده أم رؤوم مدبرة من نفقة أب كريم وسع الله عليه بعض الشيء .(١)

وعن مستوى المعيشة يحدثنا سيد فيقول :

لم تكن الملكيات الكبيرة التى تشبه الاقطاع معهودة فيها فأكبر ملكية زراعية لم تكن تتجاوز المائتي فدان ، وقل أن يكون في القرية فرد أو بيت لا يملك قطعة أرض صغيرة أو كبيرة ،(٢) ولكل اسرة بيت مملوك صغيرا كان أو كبيرا ، أما الأكواخ الطينية فلم تكن معروفة في القرية ، وكان أكثر من نصف بيوتها مبنيا بالطوب الأحمر وسائرها من اللّبن .

وكان معظم البيوت تتألف من طابقين أو ثلاث وبعضها يصل الى الأربع وندر أن يتألف المنزل من طابق واحد حتى بيوت الفقراء .(٣)

والعلاقة بين أفراد القرية كانت قائمة على الود والمساعدة والحب ولا مجال للحقد الطبقي فيها أو استعباد الآخرين .

يقول سيد في كتابه " طفل من القرية " لم يكن هناك خدم بالمعنى المعروف في المدينة ... كان الخادم في القرية انسانا فقيرا محتاجا الى العمل ، ولكنه

---

(١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٠

(٢) طفل من القرية ص ١٥٧ .

(٣) طفل من القرية ص ١٥٨ .

لاينطق بكلمة " سيدى " المقيتة بل يستعيض عنها بكلمة " عمي " لسيد البيت ، وكلمة " امرأة عمي " لسيدته ٠٠٠٠ ثم هو يعمل في الدار أو في الحقل أو في تربية المواشي طوال اليوم فاذا جن الليل عاد الى بيته وأهله[(١)]

أما مستوى المعيشة في القرية فهو مستوى معقول بالقياس الى القرى المجاورة - فأفقر بيت يأكل اللحم كل اسبوعين مرة وغالبا ما يأكلونها كل اسبوع ، والسمن البلدى معروف في البيوت جميعا ٠

والفاكهة من البطيخ والشمام والبلح والرمان والنبق والقثاء والخيار والجوافة والتفاح البلدى والقصب ٠ تدخل البيوت جميعا مع اختلاف المقادير[(٢)]٠

(٢) ولما كانت قرية سيد ثرية ومعروفة بالرقى نظرا لبناء بيوتها ونظافة سكانها فلا شك أنها بما حوته من مناظر طبيعية مرئية أو أصوات شجية قد أثرت في الطفل ذى الحس المرهف ٠٠٠ فمثلا خروجه المتكرر الى الحقول - تلك الأرض الطيبة الخضراء التى تغطى مساحات واسعة من القرية - ومن ثم مرحه مع اصدقائه فيها وانتقاله فيها من مكان الى آخر وتمتعه بما تشمله من مناظر خلابه - وخاصة في المواسم الثلاثة : اللوق ، الحصاد ، وجني القطن[(٣)] - لاشك أن ذلك كله كان له أكبر الأثر في صدره وحبه للحرية وحب الطبيعة والتأمل فيها وحب عطاء الخير للآخرين ٠

---

(١) طفل من القرية لسيد قطب ص ١٥٨

(٢) طفل من القرية لسيد قطب ص ١٥٨

(٣) راجع طفل من القرية ص ١٥٦ ٠

وشيء آخر مرتبط بالحقول قد أثر في حس الطفل الصغير هو أصوات العمال الذين كانوا يفدون للعمل في القرية من قرى أخرى - نظرا لقلة الأيدى العاملة فيها - ويصور سيد لنا هذا التأثير بقوله :

كانت أغاني هؤلاء الناس الشجية التى تقطر بالمرارة والأسى في رجولة وتحمل تستجيش في نفسه الصغيرة انفعالات لايدريها ولا يحاول التعبير عنها . ولكنه أبدا يحنّ اليها وينتظرها من العام للعام ، ويستكثر من انشادها ويطلب المزيد منها ان صمت القوم من التعب والاعياء ... وهم في كل مرة يجيبونه الى ما يطلب . فهو ابن سيد البيت الصغير ثم هو صديقهم فردا فردا ورئيسهم بوجه خاص ... فكل مطالبهم من الدار وأهله تتم عن طريقه"[1] .

ولا شك أن لمدرسة القرية أيضا دورا كبيرا في التأثير فيه حيث غرست في نفسه حب النظافة والنظام وعلمته كيفية احترام المعلمين و حبهم لدرجة أنه كان - رغم صغر سنه - يتمنى ان يكون مثلهم ... كيف لا وقد كان يكن لهم تقديرا ملأ عليه أقطار نفسه .

نعم لقد أثرت فيه المدرسة أيما تأثير وليس أدل على ذلك من وصفه لها بافتخار حيث يقول :

" كان من مفاخر فريق المدرسة أشياء وأشياء ... بناء مدرستهم الأنيق النظيف بجانب بناء الكتّاب القديم القذر وفناؤها الفسيح والشجرتان الظليلتان به ، وزهرتهما الجميلة التى لا نظير لها في القرية كلها الزهرة ذات الرائحة العطرة .[2]

---

(١) انظر طفل من القرية لسيد قطب ص ١٦٠ .

(٢) طفل من القرية لسيد قطب ص ٣٦ .

ويستمر في وصفه للمدرسة وما تحتويه من أدوات وأشياء يفتخر بها ويعتز وانه ليعترف بفضل معلمى المدرسة عليه ، وخاصة ذلك الناظر الشاب الذى كان يعتنى بتربية التلاميذ التربية الخلقية والروحية والذى حاول بشتى الطرق تنقية أذهانهم من الخرافات المسيطرة على أحاسيسهم وشعورهم لدرجه أنه قام معهم بتجربتين[1]، لاثبات أن هذه الخرافات أساسها الجهل وبيان أن أصلها قصص مكذوبة أو حيوانات حقيقية يخاف المارة في الليل من أصواتها أو اشكالها في الظلام ٠

فقيام هذا الاستاذ الناظر - الذى يثق به ويحبه ويصدقة ويتأثر به - بهاتين التجربتين معهم وتوجيهاته في كثير من الحصص حول هذا الموضوع جعل عنده عقيدة جديدة في الخرافات تخالف عقائد أهل القرية جميعا ٠

يقول سيد في كتابه " طفل من القرية " : " أرانب الدرب الضيق وامرأة البئر المهجورة كلتاهما مع تعاليم الاستاذ المحبوب كان لها أثرها في الطفل وكانت سنه قد بلغت العاشرة وكاد يتم دراسته بالمدرسة ، فأخذت اسطورة الخرافات تفقد شيئا من قوتها في نفسه ٠٠٠ أخذت تتزعزع الى الحد الذى يمكنه من اجراء التجارب بنفسه ، وهذا تقدم عظيم ٠[2]

(٣) ان القرية فيها شيء من التنوير العلمي بدليل وجود مدرسة القرية النظامية بالاضافة الى كتّاب القرية وعلاوة على زيارة بائع الكتب للقرية بين الحين

---

(١) التجربة الأولى : وأثبت فيها أن ما يجدونه في الدرب الضيق هو أرانب حقيقية ٠ والتجربة الثانية : أكد فيها ان المرأة الموجودة عند البئر المهجورة ما هى الا عجوز خرفة معروفة في القرية " طفل من القرية ص ١٠٠ - ١٠٥ "٠

(٢) طفل من القرية ص ١٠٥ لسيد قطب ٠

والآخر ، وسيد قد جمع بين حسنتي المدرستين أخذ حفظ القرآن عن الكتّاب ونظام الصفوف وساحة المدرسة الفسيحة ومنهاج الحساب والقراءة والنشيد من مدرسة الدولة .(١)

وبالنسبة لعلاقته بشراء الكتب من البائع الجوّال فيقول عن نفسه :

" اشتهر صاحبنا بالكتب والقراءة في أوساط المثقفين بالقرية فارتفع في أعينهم درجات وأخذ الجميع يتنبأون له بالمستقبل الزاهر ... ماذا ؟ أليس على صغره يقتني مكتبة ضخمة يبلغ من ضخامتها أن تملأ صندوقا كاملا " .(٢)

كما يقول أيضا في موضع آخر : " وشيئا فشيئا أصبحت مكتبته هذه مصدر حركة ثقافية دائمة بما اجتمع له فيها من كتب ثمينة تبقى متداولة في الأيدي مستعارة على مدار العام " .(٣)

مما سبق يتبين لنا مدى تأثر الاستاذ سيد قطب بالمدرسة والناظر والكتّاب والكتب حيث كان طالبا شجاعا مثابرا حافظا للقرآن ، وكان راضيا عن نفسه وعن مكتبته مغتبطا بسعة ثقافته وسعة شهرته ، ثم أصبح - فيما بعد - أديبا كبيرا ورائدا من رواد الفكر الاسلامي .

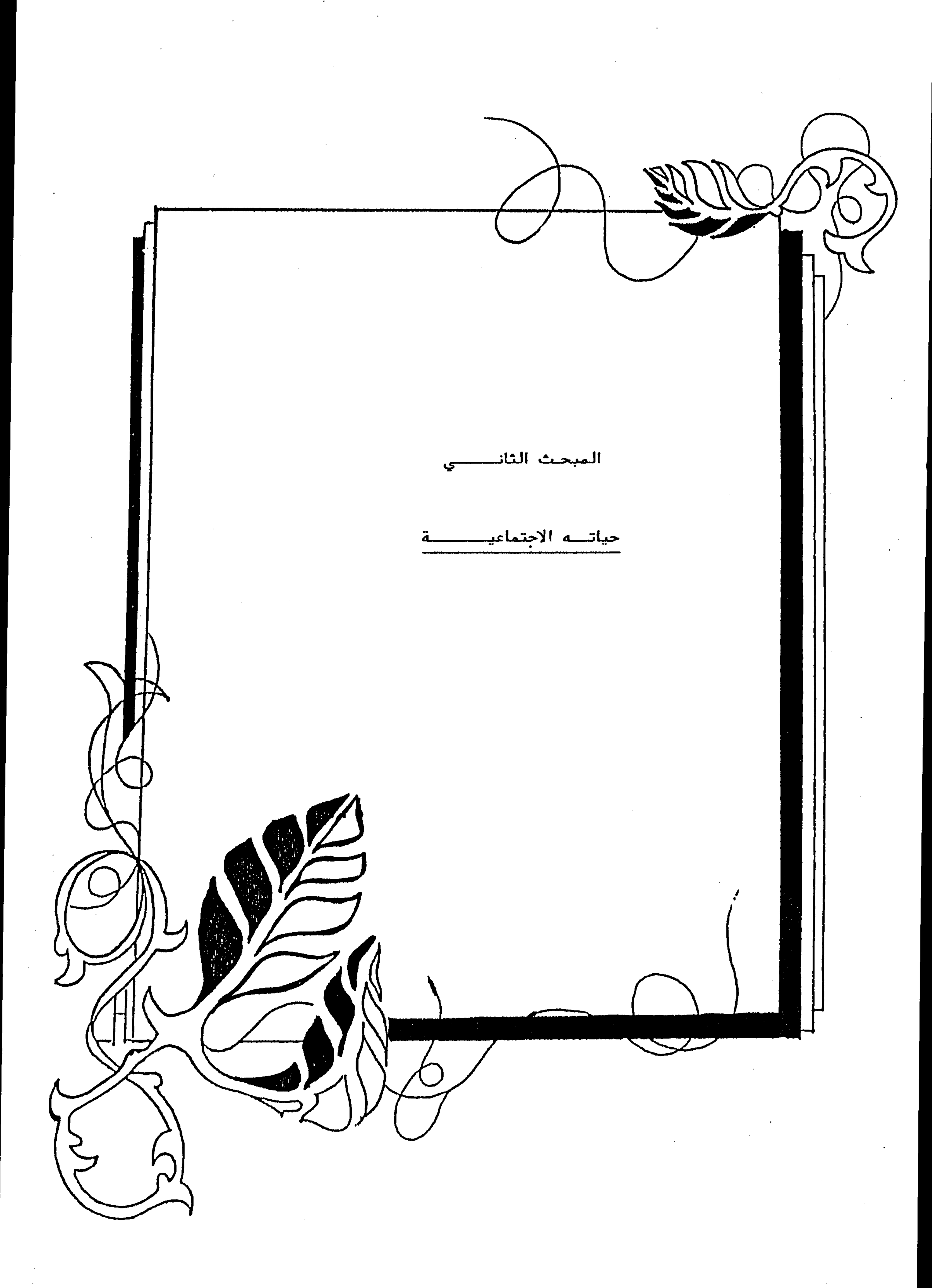
* * *

---

(١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٠

(٢) طفل من القرية لسيد قطب ص ١١٣ بتصرف يسير .

(٣) طفل من القرية لسيد قطب ص ١٢٧ .



المبحث الثانـــــي

حياتـــه الاجتماعيـــــــة

المبحث الثاني : حياته الاجتماعية :

لقد كان أثر القرية وما تحتويه على سيد قطب واضحا جليا ، فالمناظر الطبيعية الفاتنة من منظر المياة التى تغطى الأرض الى منظر الأرض المعدة للنبات الى منظر العمال الذين يبذرون الحبوب غي الأرض ويعملون بجد ونشاط الى منظر الدور المتشابهة في الارتفاع والبناء الى منظر الأشجار المثمرة المختلفة الأشكال والالوان ... الى غير ذلك من المناظر ، كل ذلك ترك أثرا كبيرا في نفسه ، فاذا كانت عيناه تقع على تلك المناظر وغيرها فلا شك في الحصول على رصيد ضخم من الجمال في مخيلته ... كل ذلك وغيره قد أثر في حسه ، وساعد في بناء شخصيته وشعوره المرهف ، ومن ثم نشأته في اسرة متدينة قد غرس في نفسه أيضا الشيء الكثير : فوالده كان كثيرا ما يصلى في المساجد ويسير والخوف من اليوم الآخر نصب عينيه ، وكان كريما معطاء يحب العطف على المساكين ... ووالدته كانت كثيرا ما تتصدق على فقراء القرية ، وكانت تنصت الى القرآن بخشوع على النحو الذى اسلفت القول فيه ، كل هذا غرس في قلبه ونفسه المبادىء الايمانية السليمة من حفظ القرآن الكريم الى المحافظة على الصلاة في المساجد ، ومن محبة المساكين والعطف على الفقراء ومساعدة المحتاجين الذين يحس أنهم مظلومون أمثال العمال الغرباء الذين أطلع على أسرارهم ، وأحوالهم وعرف طريقة حياتهم ، وكل ما يتعلق بهم . ولا ننسى أثر مدرسة القرية عليه .(١)

---

(١) القرية ص / ١٢٧

هذا بالنسبة لنشأته الأولى في القرية ، أما بالنسبة لفترة حياته التى عاشها في المدينة شابا ، فقد عاش حياة اجتماعية مخالفة لروح الدين وروح الحضارة الانسانية ، وروح العصر .... عاش في وضع رأى أنه قد بلغ القمة في الفساد ولا يستحق البقاء اطلاقا .

يقول في أحد كتبه :

" وكل وضع اجتماعي يكون من نتائجه شل قوى الأمة عن العمل والانتاج ، فتعويقها بهذا عن النمو والتقدم ... هو وضع شاذ لا يفقد فقط حقه في البقاء بل يصبح بالفعل غير قادر على البقاء . فكيف اذا اجتمع الى هذه الآفة أنه يهدر الكرامة الانسانية ويفسد الخلق والضمير ، ويقضى على كل معاني العدالة ويقتل الثقة الضرورية في المجتمع والدولة وينشر القلق ويذهب بالاطمئنان . (١)

هذا وقد فهم من بعض كتبه أن المجتمع المصرى يتألف من طبقتين : طبقة راقية مترفة تخلت عن دينها ووطنيتها ، تعيش عالة على المجتمع المستعبد وهى طبقة الحكام والاقطاعيين أصحاب رؤوس الأموال ، وطبقة فقيرة عاملة وتنقسم الى مجموعتين : الأكثرية منها تعمل بأمانة وتضحى في سبيل الدين والشرف والكرامة ، والأقلية تعمل بنفاق لتحافظ على مصالحها الخاصة وهي أيضا تنقسم الى فئتين سماسرة وضحايا ، ويؤيد هذا

---

(١) معركة الاسلام والرأسمالية لسيد قطب ص ٥.

التقسيم قوله : " ان تضخم الثراء في جانب ، وبروز الحرمان في جانب من شأنه أن يخلق طبقة من الأثرياء الفارغين المتبطلين الذين يجدون لديهم وفرة من المال ووفرة من الوقت ، ووفرة من الطاقة الجسدية التى لابد لها من متصرف ٠ (١)

وقوله في موضع آخر : " عندئذ ينقسم المحرومون والمحرومات فريقين فريق السماسرة ، وفريق الضحايا ، فريق القوا دين وفريق الرقيق ، ولا عبرة بالفريق الثالث : فريق الشرفاء الذى يأبى أن يخضع للاغراء الضعيف ، انه فريق الذين لايريدون الحياة ولا يريدون المتاع ، أو فريق الابطال والقديسين ٠ وما كل الناس ولا كثرتهم أبطال ولا قديسون (٢) ، ونظرا لسعة اطلاعه على النظم السائدة في عصره - كمذهب الحياء والمذهب القومي ، و النظام الرأسمالي والشيوعي - البعيدة عن الدين ، ونظرا للوضع الاجتماعي الذى عاشه كانت له نظرة جيدة سليمة النتائج في المجتمع السليم ، وهي أن لكل نظام من النظم الاجتماعية فلسفته والأسس التى ترتكز عليها سواء أكان نظاما سياسيا أم أخلاقيا أم اقتصاديا ، وان أنجح النظم الذى يقوم على عقيدة فكرية ثابتة - تعرف الانسان حق المعرفة - تعطى الانسان التصور الكامل والسليم عن الكون والوجود والحياة ٠ (٣)

اما ما يتعلق بمسألة زواجه فالمعروف أنه أحب فتاة قاهرية وحينما أراد الاقتران بها اكتشف انها كانت تحب غيره ، فآثر الابتعاد عنها بعدا

---

(١) معركة الاسلام والرأسمالية ص ١٢

(٢) معركة الاسلام والرأسمالية ص ١٣

(٣) مع سيد في فكره السياسي والديني لمهدى فضل الله ص ٨٣ بتصرف ٠

عن المشاكل وحفاظا على كرامته ، فكان أن تزوجت بأول رجل تقدم لها - غير من كانت تظن أنه يحبها - وبقى سيد بدون زواج .

يقول يوسف العظم :

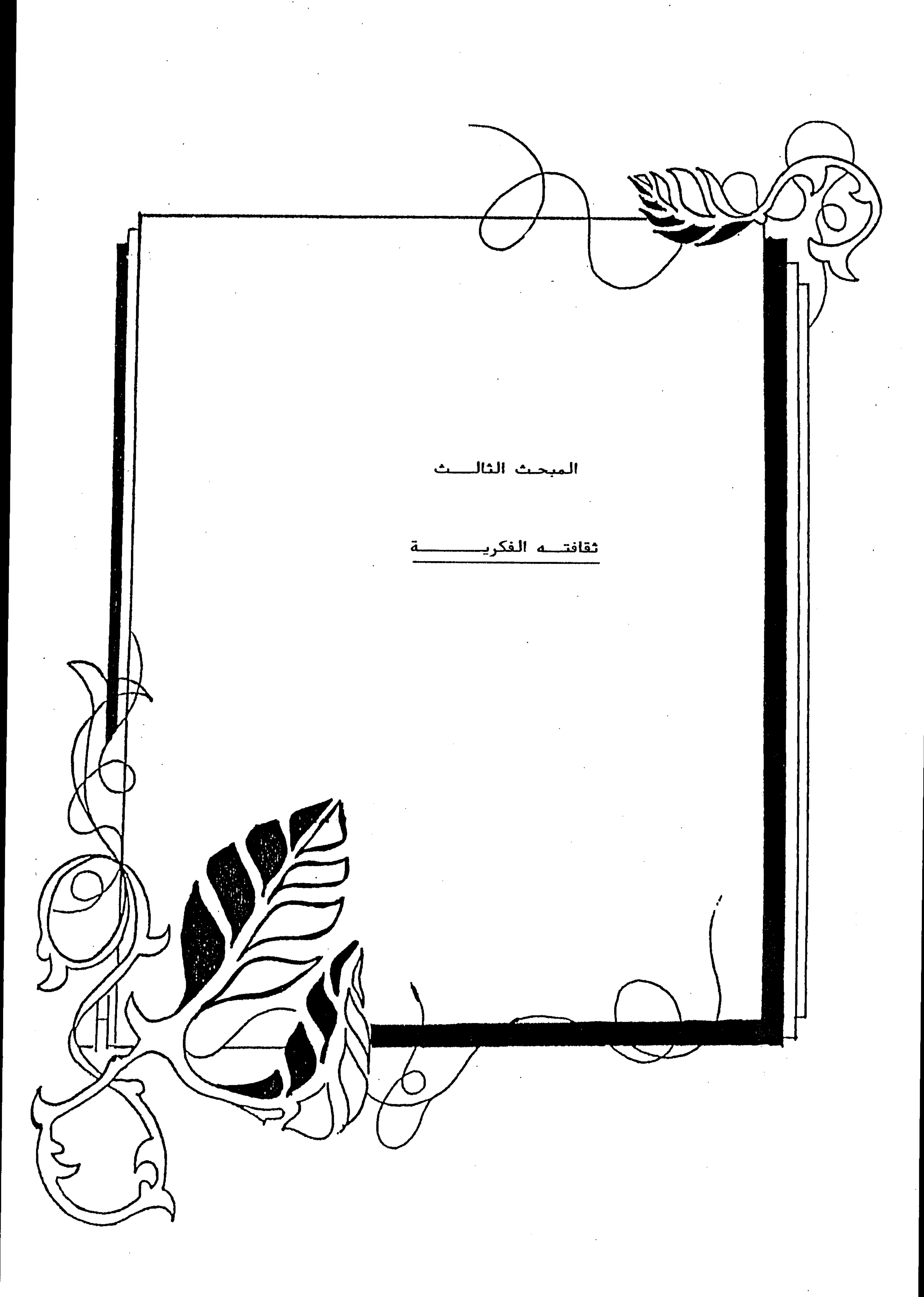
" فعاش للفكر والعلم والكتاب .... ثم للدعوة والجهاد . (١)

ورأيي أن هذا لايمنع من أن يحاول ثانية ، خاصة اذا عرفنا أنه يقول بأن الزواج سنة طبيعية وضرورية ، ويحاول أن يجمع بين السلوك والمعتقد .... فكيف لا يطبق ما يقول أو لعل له وجهة نظر.

* * *

---

(١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٣٤ .



المبحث الثالث

ثقافته الفكرية

المبحث الثالث : ثقافته الفكرية :

كانت نهضة الحياة الفكرية التى عاصرها سيد قطب كبيرة ، فقد شملت معظم المجالات السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية ، وكان للأدباء والشعراء والمصلحين دور بارز فيها خاصة في المناداة بأهمية الدين في المجتمع .... هذه النهضة كانت نتيجة الاحتلال الانجليزى المستعمر للمجتمع المصرى - أولا - ونتيجة لاطلاع الكثير من المصريين على الثقافة الغربية الحديثة - ثانيا - هذه الثقافة التى تنادى بتنمية الفرد وباستقلال الفكر المادى الحر المتضمن فصل الدين عن الدولة -(١)

ويجدر بنا أن نقول : كان لهذه النهضة أثر فعال في المجتمع حيث أدت الى مطالبة الناس بحقوقهم في الاستقلال والعدل والحرية ، ومن ثم قيام الثورة وطرد الانجليز من البلاد .

وفي هذا الجو الفكرى كان سيد قطب مايزال يتزود من المعارف المختلفة والمعلومات الجيدة - من الثقافة الغربية - مضيفا رصيدا جديدا الى ثقافته الواسعة التى تحصل عليها أثناء دراسته ، وكان أن تأثر بعدة شخصيات بارزة أهمها الشيخ محمد عبده(٢) صاحب المدرسة الفكرية الاصلاحية ، والاستاذ عباس محمود العقاد(٣) ، صاحب المدرسة التاريخية ، والشيخ حسن البنا(٤) صاحب المدرسة التربوية ، كما اشرت الى ذلك سابقا ،

---

(١) مع سيد في فكره السياسي لمهدى فضل الله ص ٣٤ بتصرف .

(٢) ، (٣) ، (٤) راجع الفكر الاسلامي المعاصر لغازى التوبة ص ١٣ - ١٢٧ - ١٩٧ .

وهذه الشخصيات تركت أثرا كبيرا في فكر سيد قطب ، وكان هذا الأثر ظاهرا فيما بعد في كتبه كما نرى في الظلال أمثلة لذلك حيث نجد فيها نفس الأسس التى اعتمد عليها الشيخ محمد عبده في تفسيره وهي:

(١) ان لله سننا في الخلق من حيث نظام الاجتماع البشرى وأسباب رقي الأمم وتأخرها وقوتها وضعفها .

(٢) ان الاسلام هو الدين الذى يجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة .

(٣) بيان أن المسلمين ليس لهم جنسية الا دينهم فهم أخوة في الاسلام لايجوز أن يفرق بينهم نسب أو حكومة أو غنى أو غيره .[1]

أما بالنسبة لتأثره بالعقاد فقد كان من الناحية الفكرية الأدبية يؤيد ذلك :

أولا : مساندته له في المعركة الأدبية التى قامت بينه وبين مصطفى صادق الرافعي .[2]

ثانيا : تعليقه على الفقرة التى وردت في كتابه " التصوير الفني في القرآن " وفيها يقول :

" ومن تمام القول في طريقة القرآن التصويرية أن نجعل هنا ما تفرق في مواضع مختلفة في الكتاب عن الحياة التى يبثها التعبير في التصوير ، فهى سمة بارزة فيه تحدد نوع التصوير ومستواه . ان المعاني

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ص ١١ ج ١

(٢) مع سيد في فكره السياسي والديني ص ٤٧ .

الذهنيــة والحالات المعنوية لم تستبدل بها صور فحسب ، ولكـن اختيرت لها صور حية ، وقيست بمقاييس حية ومرت من خلال وسط حي" فعلق عليها في الهامش بقوله : " كان للاستاذ العقاد فضل توجيهي الى افراد هذه السمة القرآنية بالاشارة بعدما ورد منها في ثنايا الكتاب أمثلة متفرقة " (١)

أما الشيخ حسن البنا الذى طبّق التعاليم الاسلامية وسار على نهجها فقد كان له تأثير كبير وقوى في الشهيد سيد قطب وفي اسلوبه - الذى كان يهتم بالتربية الروحية والدينية - كيف لا وقد علق غازى التوبة على ذلك فقال : وقد تطابق منهج البناء في التطبيق مع منهج الاسلام وتوازى أسلوبه مع أسلوب الرسول عليه الصلاة والسلام فأولى الانسان عنايته الكبرى ورباه واعيا عناصره من روح وفكر وجسد موازنا بين هذه العناصر مبتكرا في وسائل التربية بما يحقق الغرض ويتناسب مع أجواء القرن العشرين ⋅ (٢)

ولا شك أنه تأثر بغير هذه الشخصيات الثلاث خاصة اذا عرفنا أنه كان يقرأ مختلف المعارف التى انتجتها الثقافة الغربية ، وكل

---

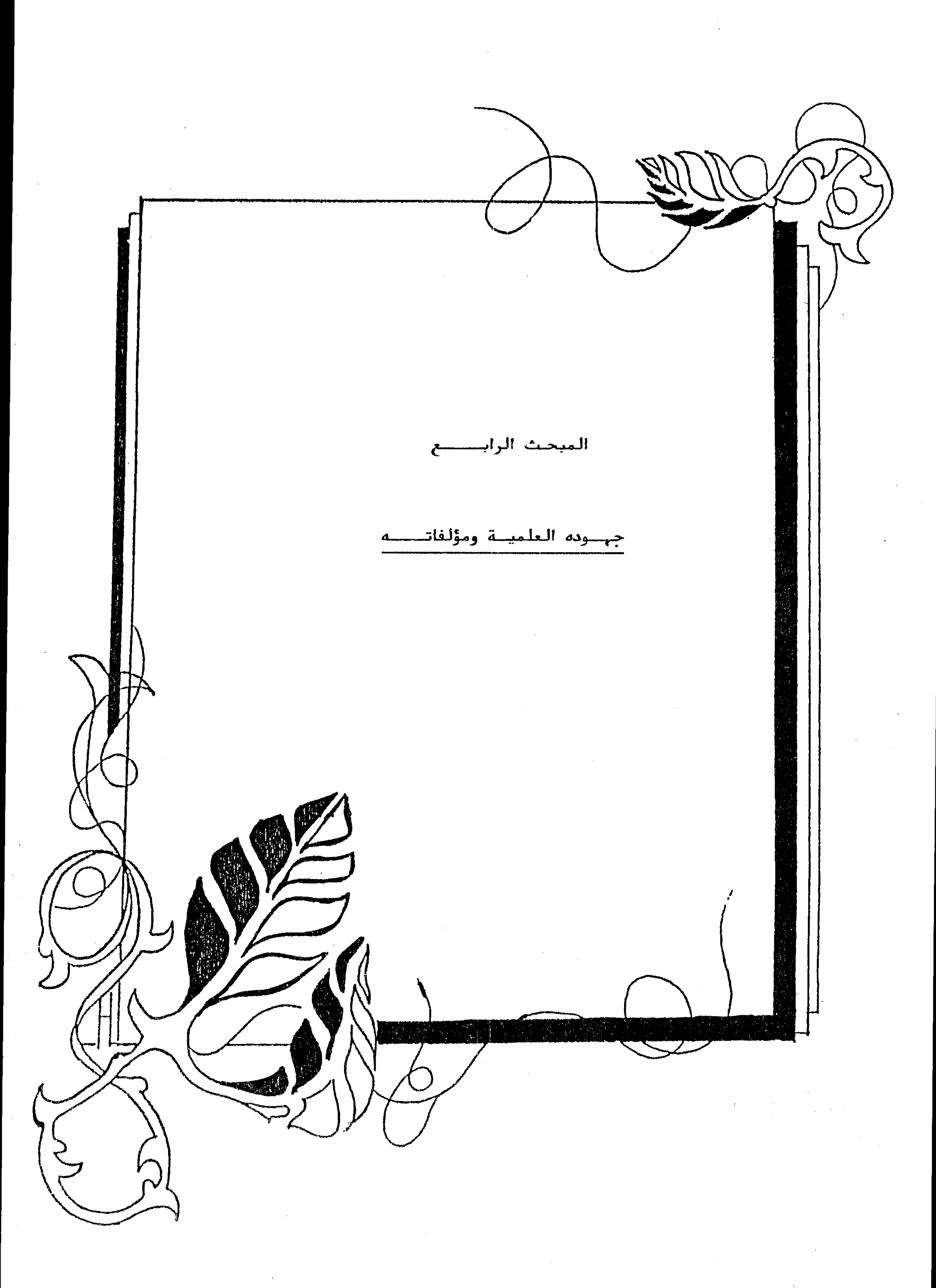
(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٢٠٠ ⋅

(٢) الفكر الاسلامي المعاصر لغازى التوبة ص ٢٢٠ ، ولي تعليق على رأى غازى التوبة القائل بأن حسن البنا اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته ، حيث لايمكن ان توازى دعوته دعوة النبي عليه الصلاة والسلام وتكون مساوية لها كما يفهم من كلمة توازى⋅

ما كانت تنتجه المطبعة العربية من كتب مؤلفة أو مترجمة ، وكان يقرأ لمختلف الأدباء و الشعراء والمصلحين السابقين والمعاصرين أمثال : حافظ ابراهيم ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، واحمد أمين ، واحمد شوقي ، ونجيب محفوظ ، والمنفلوطي .... وغيرهم . (١)

* * *

(١) لسيد قطب مؤلف بعنوان " نقد كتاب مستقبل الثقافة بمصر " أصدر طبعته الأولى عام ١٩٣٩م ومستقبل الثقافة صدرت طبعته الأولى ١٩٣٧ ، وطه حسين يدعو في كتابه أن تكون مصر جزءا من الحضارة الغربية ، وفند سيد قطب آراءه من الوجهة التربوية والتعليمية .



المبحث الرابـــع

جهـوده العلميـة ومؤلفاتـــه

المبحث الرابع : جهوده العلمية ومؤلفاته :

يمكن اعتبار أن جهوده العلمية قد ظهرت فور تخرجه من كلية دار العلوم ، حيث عمل بالتدريس ست سنوات ، سنة في بني سويف ، وأخرى في دمياط وسنتين في القاهرة ، وسنتين في حلوان ، وكان خلال هذه السنوات يكتب في المجلات والصحف ما يحضره من قصة أو شعر أو نقد أو مقالة .

ثم انتقل موظفا في وزارة المعارف حيث عين مفتشا لفترة قصيرة ثم عمل في مراقبة الثقافة العامة ، وبقى في عمله مدة ثمان سنوات من عام ١٩٤٠ م الى عام ١٩٤٨ م وبعدها أرسل الى أمريكا في بعثة حكومية لدراسة نظم التربية فيها ،[١] وحينما عاد من أمريكا بعد عامين نادى بأن مناهج التربية الأمريكية غريبة عنا لا تناسب مجتمعنا الاسلامى ولا ترتبط بأصالته العربية بأى رباط .

ثم أقبل على الثقافة الاسلامية أقبالا منقطع النظير حتى بلغ مجموع ساعات مطالعاته في اليوم عشر ساعات كحد أدنى للبحث والاطلاع .

هذا ويعتبر سيد قطب صاحب مدرسة جديدة لها خصائصها المتميزة عن غيرها مدرسة اتجهت نحو التصوير الفني ،[٢] تأثر فيها بمن سبقه وأثّر في غيره كما كان له نشاط قيّم في النقد الأدبي واللغة العربية ، وكان

---

(١) أخبرني بهذا الاستاذ محمد قطب .

(٢) راجع نظرية التصوير الفني عند سيد قطب لصلاح الخالدى ص ١٠٧ ومابعدها .

ينحو منحى الأدب الحر ، وقد كتب في موضوعات شتى اجتماعية وتربوية وأدبية وسياسية واقتصادية ودينية ٠

وللاستاذ سيد قطب مؤلفات عديدة في مجالات متعددة حيث كتب بعضها كسيرة ذاتية له صوّرفيها بيئته وقريته التى نشأ فيها ، ومثال ذلك كتابه " طفل من القرية " ومن مؤلفاته ماكان قصة أدبية خيالية كقصته " المدينة المسحورة " أو واقعية كقصة " أشواك " ومن مؤلفاته ماكان خواطر متناثرة ك " الأطياف " ومنها ما يعد نقدا أدبيا مثل كتاب " مهمة الشاعر في الحياة " أو نقدا سياسيا كنقده لكتاب طه حسين الذى كتبه عن مستقبل الثقافة في مصر[(١)] أو نقدا اجتماعيا مثل كتابه " كتب وشخصيات " ٠

وهو في كتابه " العدالة الاجتماعية في الاسلام " فرق بين الاسلام والمسيحية وبين علاقة الله بالكون والانسان والحياة وعلاقة هذه الأشياء ببعضها كما تحدث عن سياسة المال والحكم في الاسلام ٠

أما كتابه " معركة الاسلام والرأسمالية " فيعد تمردا على الباطل والفساد والترف الذى كان يعيشه الحكام ويعتبر دعوة صادقة لمحاربة ذلك ٠

وكتاب " السلام العالمي والاسلام " بين فيه أن السلام موجود في الضمير والبيت والمجتمع والعالم كله وللاحساس به لابد من كشف الغشاوة عن أعين الحيارى الغافلين ، وأما كتاب " نحو مجتمع اسلامى " فيعد دعوة حقة لبناء مجتمع عالمي مثالي رباني انساني ، وكتابه " هذا الدين " يعتبر بلسما ودواء وتثبيتا للمسلمين يوضح لهم فيه ضرورة التمسك بهذا الدين ذى المنهج المتفرد الميسر المؤثر الصالح لهم ٠

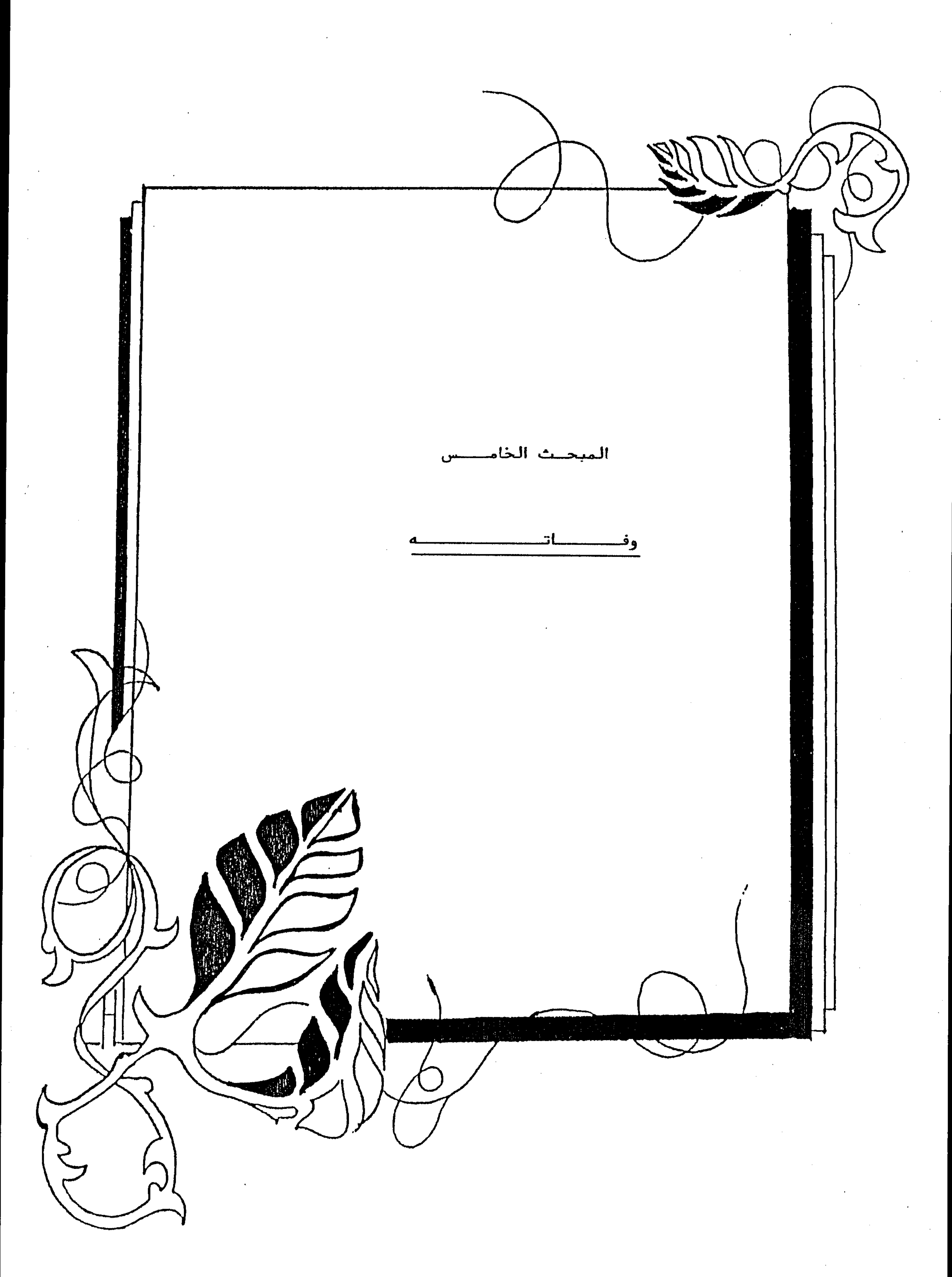
---

(١) لسيد قطب مؤلف بعنوان " نقد كتاب مستقبل الثقافة بمصر " أصدر طبعته الأولى عام ١٩٣٩م ومستقبل الثقافة صدرت طبعتة الأولى عام ١٩٣٧م ، وطه حسين يدعو في كتابه أن تكون مصر جزءا من الحضارة الغربية وفند سيد قطب آراءه من الوجهة التربوية والتعليمية ٠

وفي كتابه " المستقبل لهذا الدين " بيان واضح لخلاص الانسانية من عذابها حين تلتزم بمنهج الاسلام ، أما كتابه : " خصائص التصو ر الاسلامي ومقوماته " فهو أيضا بيان لخصائص التصو ر الاسلامي الملخصة في الربانية والشمول والتوازن والثبات والايجابية والواقعية ، أما معالجة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والحضارة القائمة وطرق الخلاص الصحيح فجاء في كتابه " الاسلام ومشكلات الحضارة " ، وكتابه " معالم في الطريق " يعد دعوة صريحة لتربية جيل قرآ ني مسلم فريد الاسلام دينه وحاكمه المولى عز وجل وتجارته انما تكون معه وحده لاشريك له ، والملاحظ أن سيدا في كتبه الاسلامية يدعو بصراحة وصدق الى اعتبار الاسلام أساس كل شيء ويوضح أن الحضارة الحالية ماهي الا زيف وخداع وعذاب للانسانية ... كل ذلك باسلوب سهل واضح مدعم بأمثلة واقعية حية وبكل صدق لا يخشى معه لومة لائم .

وسيد قطب في كتبه السابقة - جميعها - كان يميل الى دقة التعبير وسلامة الأسلوب وكان جريئا في نقده وتعليقاته ، كما أنه كان يميل الى تصوير الواقع بصدق مما يدل على صراحته وقوته .

* * *



المبحث الخامس

وفاته

المبحث الخامس : وفاتــه :

أغلقت الحكومة " صحيفة الاخوان المسلمين " نتيجة معارضة الاتفاقية المصرية البريطانية ، وكان رئيس تحرير الصحيفة وقتها هو الاستاذ سيد قطب ، فكتب ونشر المقالات العديدة المؤيدة لتلك المعارضة ، ثم انتقل الى بني سويف من القاهرة ، وأصدر هناك نشرة سياسية سرية تفضح المخططات المرسومة للقضاء على الحركة الاسلامية ، فالقى القبض عليه[(١)] وكان أن حكمت عليه محكمة الشعب بالسجن لمدة خمسة عشر عاما مع الاشغال الشاقة[(٢)]، لاقى وتعرض فيها لصنوف من التعذيب لاتضاهيها الا الوان التعذيب في محاكم التفتيش في أوربا ، وتعذيب المسلمين الاريتريين في الحبشة ، وتعذيب المسلمين في الدول الشيوعية . [(٣)]

وبالرغم مما كان يصيبه من اعياء ومرض وتعذيب الا أن الله هيأ له أسباب الاشتغال بالكتابة والتأليف فأصدر أهم كتبه على الاطلاق ، ونقح ثلاثة عشر جزءاً من الظلال .

وبعد مضى عشر سنوات أفرج عنه سنة ١٩٦٤ م بعد التدخل من رئيس جمهورية العراق الرئيس عبد السلام عارف .[(٤)]

---

(١) مجلة المجتمع عدد ٢٠٥/ تاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٧٤م صفحة ١٨ .
(٢) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٣٩ .
(٣) سيد قطب خلاصة حياته ومنهجه في الحركة لمحمد توفيق بركات ص ٢٠
(٤) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٤٠ .

وبعد بضعة أشهر أعيد الى السجن من جديد بتهمة الاعداد لانقلاب مسلح، فبقى فيه مدة عامين كاملين، وتكررت مأساة المحكمة الصورية التى انتهت باعدام ثلاثة من قادة الحركة الاسلامية : سيد قطب ، ويوسف هواش ، وعبد الفتاح اسماعيل . (١)

وتحضرني بعض الكلمات للاستاذ سيد قطب - رحمه الله - قالها حينما كان يساومه بعض المسئولين كي يقدم كلمات اعتذار لرئيس الدولة عما كان يفعله .... قال كلمات خالدة تبين ثباته على موقفه ويقينه على صحة أفعاله أذكر منها :

(١) قوله : " ان أصبع السبابة الذى يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفا يقربه حكم طاغية . (٢)

(٢) وقوله : " ان كنت مسجونا بحق فأنا أرضى حكم الحق ، وان كنت مسجونا بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل ". (٣)

(٣) وقوله : " انهم لا يستطيعون لأنفسهم حذرا ولا نفعا . ان الاعمار بيد الله وهم لا يستطيعون التحكم في حياتي ولا يستطيعون اطالة الاعمار ولا تقصيرها كل ذلك بيد الله ، والله من ورائهم محيط . (٤)

---

(١) سيد قطب ، خلاصة حياته .. لمحمد توفيق بركات ص ٢١.

(٢) **أيام من حياتي لزينب الغزالي ص / ١٨١**

(٣) **الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٦٨**

(٤) أيام من حياتي لزينب الغزالى ص ١٨١

(٤) واجابته على سؤال أحد اخوانه : لماذا كنت صريحا كل الصراحة في المحكمة التى تملك عنقك ؟ قال : " لأن التورية لا تجوز في العقيدة وانه ليس للقائد أن يأخذ بالرخص " .

وفي صباح يوم الاثنين الموافق ٢٩/ ٨ / ١٩٦٦ م نفذ حكم الاعدام في الاستاذ سيد قطب وأصحابه (١) فلقى الله مع اخوانه راضيا مرضيا ليضيف صفحة زاهرة لصفحات الجهاد والاستشهاد .... فاللهم ارحمهم وارحمنا فى الدنيا والآخرة .

* * *

---

(١) أيام من حياتي ص ١٨١ ـ ١٨٣ .



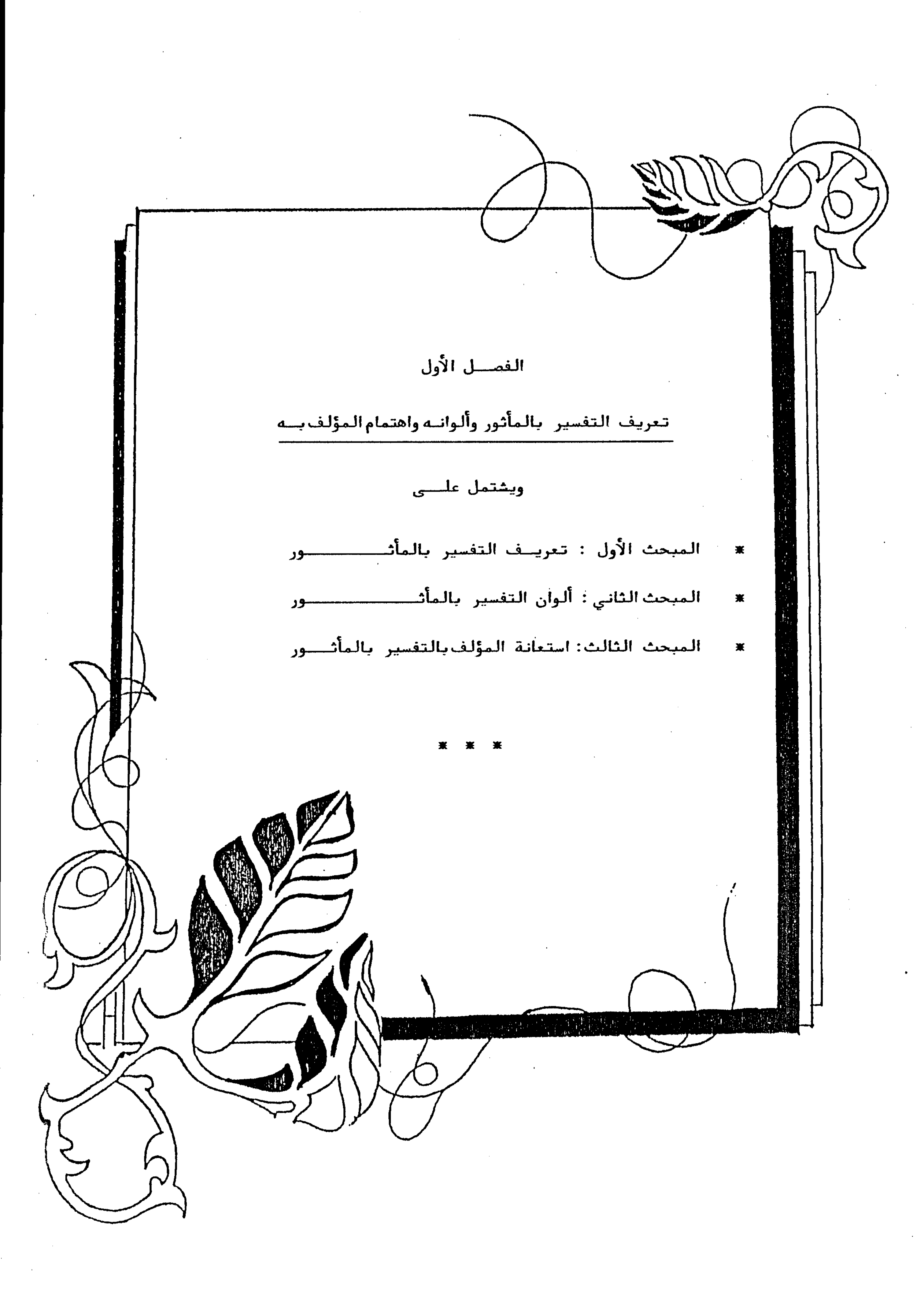
الباب الثاني

اهتمام مؤلف الظلال بالتفسير بالمأثور

ويشتمل على

* الفصل الأول : تعريف التفسير بالمأثور وألوانه واهتمام المؤلف به .
* الفصل الثاني : الوحدة الموضوعية .
* الفصل الثالث : اعتماده على التصوير الفني ودلالاته البيانية .
* الفصل الرابع : توضيح العبر المستفادة من الآيات والقصص .
* الفصل الخامس : الاهتمام بالاصلاح الاجتماعي .

* * *



الفصل الأول

تعريف التفسير بالمأثور وألوانه واهتمام المؤلف به

ويشتمل على

* المبحث الأول : تعريف التفسير بالمأثور
* المبحث الثاني : ألوان التفسير بالمأثور
* المبحث الثالث: استعانة المؤلف بالتفسير بالمأثور

* * *

البـاب الثانـي

اهتمـام مؤلف الظلال بالتفسير بالمأثـور

التفسير بالمأثـور أفضل ألوان التفسير وأولاهـا بالاتبـاع ، وقـد اهتم بـه سلف الأمـة ، وظهرت فيه المؤلفات العديدة ، ولكل منهجـه في ايراد مسائلـه وقضايـاه .

وحينما ننظر في ظلال القرآن نرى أن صاحبـه رحمه الله تعالـى سلك مسلكا خاصا حين كان يجعل الآيـة مع الأخرى تشتركان في توضيـح معنى أو بيـان علـم كما كانت لـه طريقتـه في الاستشهاد بالحديث النبـوى وبأقوال الصحابـة رضوان اللـه عليهـم .

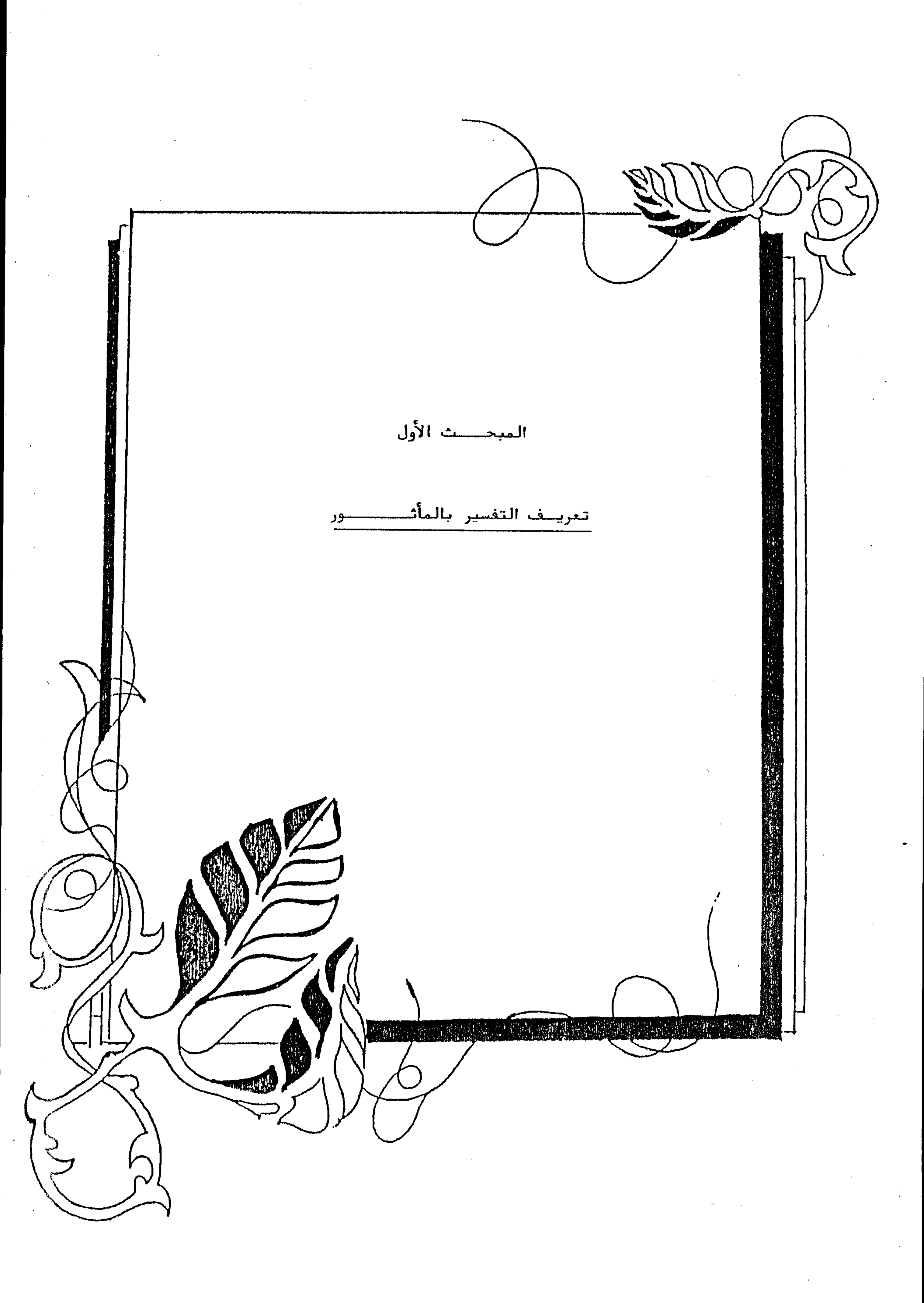
ولم يقم الظـلال كلـه على التفسير بالمأثور بل كان جزءا منه ، وذلـك تنبيه لازم حتى لا يتصور أحد أنى اجعلـه تفسيرا بالمـأثور كتفسـير الطبرى ، وابن كثير وغيرهما .

وبالنظـر فيما ورد في الظلال من مأثـور نلمح منهجـه من طريقتـه ومن أجل ابرازهـا كان هذا الفصل الذى يدور حول منهج الظلال في التفسـير المأثـور ، وسوف يكون مشتملا على المباحث التاليـة :

المبحـث الأول : تعريـف التفير بالمأثـور .

المبحث الثاني : الـوان التفسـير بالمأثـور .

المحث الثالث : استعانة سيد قطب بالتفير بالمأثور .



المبحـــث الأول

تعريـف التفسير بالمأثـــور

المبحث الاول

تعريف التفسير بالمأثور

* في لسان العرب :

الأثر بقية الشيء والجمع آثار .

والأثر الذى ذكر في حديث " من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه[١] " ، يراد به الأجل ، ويسمى به لأنه يتبع العمر[٢]

وفي القاموس: خرج في اثره وأثره[٣] بمعنى جاء بعده وتأثره[٤] وتتبع أثره في تأثرا ترك فيه أثرا . والتأثير أيضا الأثر في الشيء .[٥]

والأثر يراد به ما ذكرته عن غيرك ، ومن هذا قيل حديث مأثور ، أى يخبر الناس به بعضهم بعضا أى ينقله خلف عن سلف .[٦]

وما يهمنا هو المعنى الأخير

المأثور في اللغة : يعنى المنقول .[٧]

أما في الاصطلاح : فالتفسير بالمأثور ورد بعدة تعريفات :

الأول :

أنه يعنى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والأخذ بقول الصحابى

---

(١) صحيح البخارى كتاب الأدب باب من بسط له في الرزق ج ٧ ص ٩٥ ، وصحيح مسلم بشرح النووى في كتاب البر والصلة والآداب ، صلة الرحم وتحريم قطيعتها ج ١٦ ص ١١٤ . ونص مسلم : من أحب ، وينسأ له .

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ١٩

(٣) بكسر الهمزة وفتحها .

(٤) القاموس المحيط ج ١ ص ٣٧٥

(٥) تاج العروس ج ٣ ص ٤

(٦) لسان العرب ج ١ ص ١٩

(٧) سبق بيان معنى كلمة تفسير لغة واصطلاحا ص (١٨) من هذا البحث .

والأخذ بمطلق اللغة ، والتفسير بالمقتضى[١] من معنى الكلام المقتضب[٢] من قوة الشرع ، فهذا التعريف اشتمل على أربعة أمور هي :

(١) النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بروايات يمكن الاحتجاج بها .

(٢) الأخذ بقول الصحابي رضي الله عنه .

(٣) الأخذ بمطلق اللغة العربية .

(٤) الأخذ بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع .

---

(١) المقتضى : زيادة على النص تثبت شرطا لصحة المنصوص ، ويصير حكم المقتضى حكم النص ، ومثاله قوله تعالى (فَتَحرِيرُ رَقَبةٍ) من سورة النساء آية / ٩٢ ، يقتضى أن تكون الرقبة مملوكة ، ومثاله اذا قال رجل لآخر اعتق عبدك عن الف درهم يقتضى البيع ، واذا قال: اعتق عبدك بغير شيء يقتضى الهبة ، والعلماء يقولون التحريم : خطاب الله المقتضى للترك اقتضاء جازما - يختلف المقتضى عن المحذوف اختلافا تاما لأن في المحذوف يتغير الحكم بعد ذكر المحذوف عما كان قبله ، ومنه قوله تعالى : (وَاسألِ القرية) من سورة يوسف آية ٨٢ ، وبذلك يظهر الفرق بين المقتضى والمحذوف " .
من كتاب المغني في أصول الفقه ص ١٥٧ - ١٥٨ - ١٦٢ لعمر بن محمد الخبازى ، المتوفى سنة ٦٩١ هـ .

(٢) جاء في تاج العروس : يقال : هذا شعر مقتضب ، وكتاب مقتضب واقتضبت الحديث والشعر : تعلقت به من غير تهيئة أو اعداد له ، واقتضب الكلام ارتجله واقتضب حديثه انتزعه واقتطعه (جـ ١ ص ٤٣٢) ، فيكون المقتضب من قوة الشرع بمعنى المنتزع بصورة سديده أو سليمة .

الثانـــي :

أنه ماجاء في القرآن الكريم ، أو السنة الشريفة أو كلام الصحابة رضوان الله عليهم - بيانا لمراد الله تعالى من كتابه[١]، وهذا التعريف ضم ثلاثة أمور هي :

(١) تفسير القرآن بالقرآن الكريم ·

(٢) تفسير القرآن بالسنة الشريفة

(٣) تفسير القرآن بكلام الصحابة رضوان الله عليهم ·

الثالث :

أن التفسير بالمأثور يشمل المنقول عن الله - تبارك وتعالى - فى القرآن الكريم والمنقول عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والمنقول عن الصحابة - رضوان الله عليهم - والمنقول عن التابعين رحمهم الله ·

وهذا التعريف مركب من أربعة عناصر مهمة هي :

(١) المنقول عن الله جل وعلا ·

(٢) المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم ·

(٣) المنقول عن الصحابة رضوان الله عليهم

(٤) المنقول عن التابعين رحمهم الله

---

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٥٦ - ١٦١ ·
(٢) مناهل العرفان للزرقاني ج ١ ص ٤٨٠ ·

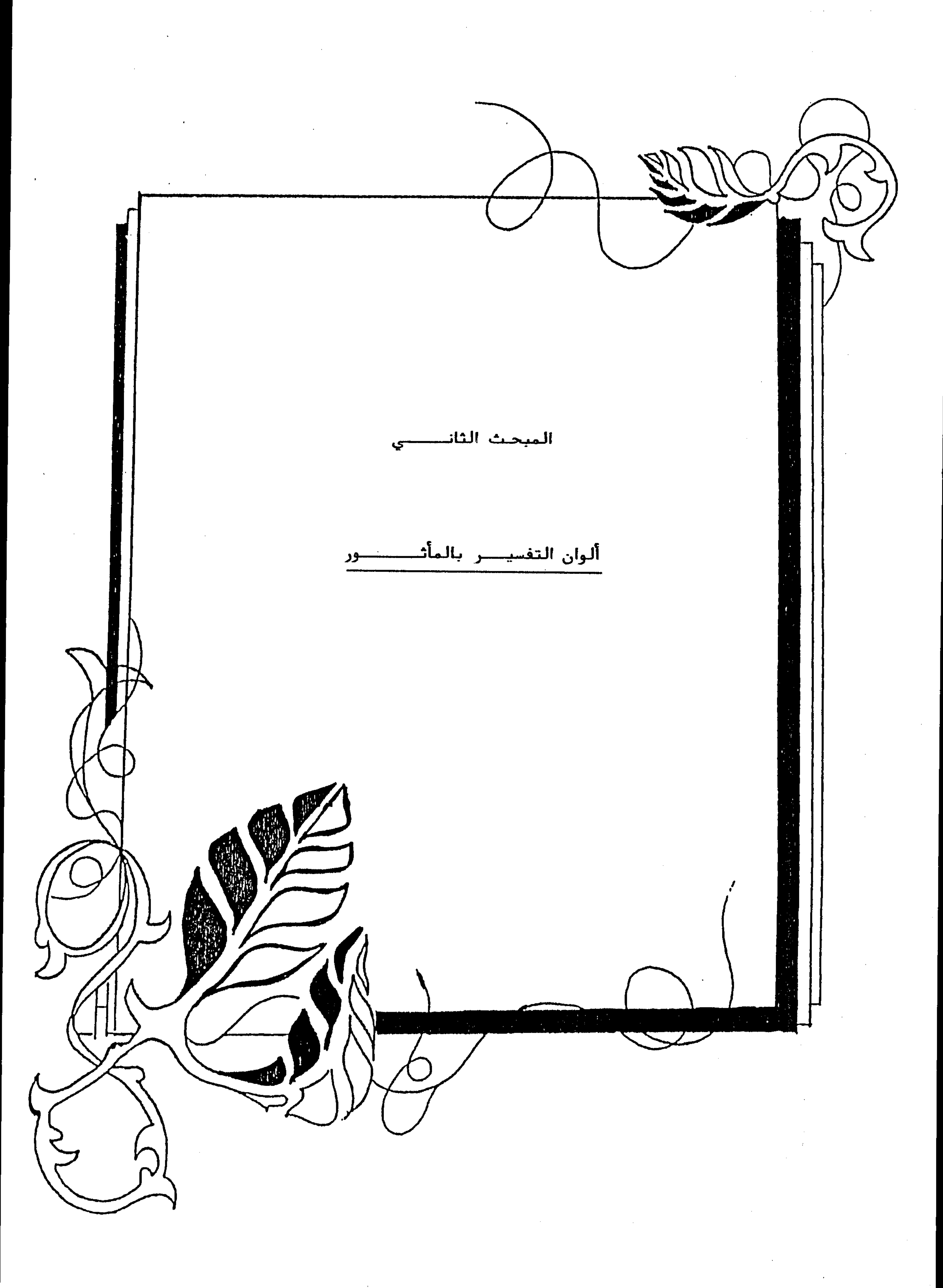
وبمقارنة التعاريف : أرى أن الجميع اتفقوا على الأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن صحابته الميامين ، فاغفل التعريف الأول تفسير القرآن بالقرآن كما أن التعريفين الأول والثاني لم يعتبرا بتفسير التابعين لكنى أختار التعريف الأخير لما يأتى :

أولا : لأنه تضمن تفسير القرآن بالقرآن الكريم وهذا عنصر هام جدا ، حيث لا يعلم مراد الله الا الله جلت قدرته ٠

ثانيا : لأنه ضم تفسير التابعين وسيأتى أن اجتماعهم على الشيء حجة يؤخذ بها ٠

ثالثا : لأن القرآن الكريم نزل باللغة العربية ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الميامين نشأوا في وسط تمكن أهله من اللغة فأجادوها وأحاطوا بمناحيها وأساليبها ٠٠٠ فما جاء في التعريف الأول من الأخذ بمطلق اللغة هو قيد لا لزوم له اطلاقا بل يعتبر من الشروط الواجب توافرها في المفسر ٠ فيكون معنى التفسير بالمأثور المرتضي هو : ماجاء عن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وماجاء منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو منقولا عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، أو منقولا عن التابعين رحمهم الله ٠

* * *



المبحث الثانـــــــي

ألوان التفسيـــر بالمأثـــــور

المبحث الثاني

ألوان التفسير بالمأثور

الأول : تفسير القرآن بالقرآن :

يعتبر تفسير القرآن بالقرآن أعلى مراتب التفسير على الاطلاق لأن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى وهو جل وعلا أعلم بمراد نفسه من غيره ولما كان أصدق الحديث كتاب الله اعتبر المصدر الأول للتشريع الاسلامي ولابد من الرجوع اليه ابتداء في كل أمر ، ولابد لمن يريد تفسير شيء من كتاب الله جل وعلا - من التأمل والتدبر فيه ، ففيه من الآيات العديدة المفسرة لغيرها في أماكن أخرى ، وأحيانا يأتي تفسيرها عقبها مباشرة وهذا ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث يفسر القرآن بالقرآن ويحث الصحابة - والمسلمين من بعدهم - على ذلك ويدل عليه ما رواه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية :(ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ)[1] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أينا لم يلبس ايمانه بظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انه ليس بذاك ألا تسمع الى قول لقمان لابنه : (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[2] ، فما كان من الصحابة ومن أتى من بعدهم الا أن يقتدوا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم لأنهم جميعا كانوا مدركين تمام الادراك بأنه جل وعلا أعلم بمراد نفسه من غيره .

---

(١) سورة الانعام آية / ٨٢

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة لقمان من كتاب التفسير جـ ٨ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ من فتح الباري ، وسورة لقمان آية / ١٣ .

وهذا ما أشار اليه ابن القيم بقوله :

" ان طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كالائمة الأربعة وغيرهم هي أنهم يردون المتشابه الى المحكم ، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ، ويبينه لهم فتتفق دلالته مع دلالة المحكم وتوافق النصوص بعضها بعضا ، ويصدق بعضها بعضا ، فانها كلها من عند الله " .(١)

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن :

(١) أن تفسر آية ما أجمل في موضع آخر من ذلك قوله تعالى في سورة الفاتحة :

(اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

فقد فسر جل وعلا المنعم عليهم - وهو أعلم - بقوله تعالى :

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .(٢)

يقول المفسر الجليل الطبرى :

" فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد اهدنا ياربنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين .(٣)

---

(١) اعلام الموقعين لابن القيم جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) سورة النساء آية / ٦٩ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبرى جـ ١ ص ٥٨ .

(٣) أن تأتي الآية لتخصص ماجاء عاما في مكان آخر أو في نفس الآية كقوله تعالى :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) .(١)

ففي هذه الآية الكريمة نجد أن نفى الخلة عام خص منه المتقون في قوله تعالى :

(ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) .(٢)

وكذلك الأمر بالنسبة للشفاعة فاستثنى الله من اذن له فيها بقوله جل وعلا :

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ) .(٣)

وماجاء عن الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم قطعي الثبوت وصاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه ، وأعرف به من غيره ، فمن الضروري جدا أن ينظر من يريد تفسير كتاب الله فيه بامعان :

ليتمكن أولا من معرفة ماجاء موجزا في موضع بما ورد مبسوطا في موضع آخر ، ومثال ذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة آية / ٢٥٤ . والخلة الصداقة والنسب . ابن كثير : ١/ ٣٠٤

(٢) سورة الزخرف آية / ٦٧ .

(٣) سورة النجم آية / ٢٦ .

(والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا إِصْلَٰحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . (١)

وهذه الآية عامة في كل مطلقة (٢) ، ولم يبسط ويوضح هل هو في الزوجة المطلقة المدخول بها أم لا ؟ هل هو في الصغيرة التى لم تبلغ بعد أم الكبيرة اليائسة من المحيض ؟ .

ولكن بالنظر الدقيق عرف أن لفظ (**المطلقات**) وان كان عاما لكن أريد به الخصوص (٣) في الزوجات المدخول بهن ذوات الحيض - أى غير الحاملات - وقد عرف هذا لأن ما ورد في السور الأخرى يشرح حالات الطلاق الثانية ويبسطها فعرفنا حكم المطلقة قبل الدخول بها بالآية الواردة في سورة الاحزاب وهي :

(يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) (٤)

وعرفنا حكم المطلقة وهى حامل والمطلقة الصغيرة ، وأيضا اليائسة من المحيض بقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة آ ية / ٢٢٨ .
(٢) احكام القرآ ن لابن العربي ج ١ ص ١٨٥ .
(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٩٢٠ .
(٤) سورة الاحزاب آ ية / ٤٩ .

(وَاللَّـٰئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّـٰئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) .(١)

وليحمل ثانيا المطلق على المقيد ، ومثاله قوله تعالى في سورة المائدة :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) (٢) الآية .(٣)

فالدم هنا مطلق عن القيد ولكنه ورد مقيدا في سورة الانعام بقوله تعالى :

(قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .(٤) فقيد الدم هنا بكونه مسفوحا فيعلم أن المراد بالدم في آية المائدة الدم المسفوح المنصوص على تحريمه في آية الانعام لأن الحكم في الآيتين واحد وهو التحريم والسبب الذى بنى عليه الحكم فيهما واحد وهو كونه دما ، فلو كان الدم

---

(١) سورة الطلاق آية / ٤

(٢) المنخنقة : التى تختنق حتى تموت ولا تدرك ذكاتها ، والموقوذة : المضروبة حتى تشرف على الموت ، ثم تترك حتى تموت وتؤ كل بغير ذكاة ، والمتردية التى تردت أى سقطت من جبل أو حائط أو في بئر فماتت ، النطيحة المنطوحة حتى ماتت وما ذكيتم : أى قطعتم أو داجه وأنهرتم دمه وذكرتم اسم الله عليه اذا ذبحتموه . تفسير غريب القرآن لمحمد بن ابي بكر السجستاني ص ٨٩ : ٩٠

(٣) سورة المائدة آية / ٣ .

(٤) سورة الانعام آية / ١٤٥ .

المحرم مطلق الدم لخلا القيد - وهو " مسفوحا " - من الفائدة .[١]

وليحمل المريد لتفسير كتاب الله العام على الخاص ، ومثاله قوله تعالى :

(حُرِّمَت عَلَيكُمُ المَيتَةُ والدَّمُ وَلَحمُ الخِنزِير وَمَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ) الآية .[٢]

فكلمة (المَيتَة) هنا جاءت عامة شاملة لجميع أنواع الميتة ، لكن وردت آية في نفس السورة خصصت نوعا من الميتة غير محرّم ، بل هو حلال حتى على المحرم .

يقول تعالى :

(أُحِلَّ لَكُم صَيدُ البَحرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُم وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيكُم صَيدُ البَرِ مَا دُمتُم حُرُمًا واتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيهِ تُحشَرُونَ) .[٣]

كما يقول جل وعلا في سورة النحل :

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحرَ لِتَأكُلُوا مِنه لَحماً طَرِياً وَتَستَخرِجُوا مِنه حِليَةً تَلبَسُونَهَا وَتَرى الفُلكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشكُرُونَ) .[٤]

وليحمل المجمل على المبين ، ومثاله قوله تعالى :

(أُحِلَّ لَكُم لَيلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُم هُنَّ لِبَاسٌ لَكُم وَأَنتُم لِبَاسٌ

---

(١) علم أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص ١٩٣ .
(٢) سورة المائدة آية / ٣
(٣) سورة المائدة آية / ٩٦
(٤) سورة النحل آية / ١٤ .

لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُم كُنتُم تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُم فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنكُم فَالْئَنَ بَشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُم وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) .[1] الآية .

فقوله (مِنَ الفَجرِ) فسر وبين مجمل قوله تعالى" حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود " اذ لولا كلمة (الفَجرِ) لبقى الكلام على تردده واحتماله وهذا التبين كما نراه هنا متصلا وقد ورد كذلك منفصلا في آية أخرى ومثاله قوله تعالى : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم)[2] من سورة الفاتحة فالمنعم عليهم فسره وبينه[3] قوله تعالى :

(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ[4] وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا). [5]

---

(١) سورة البقرة آية / ١٨٧ .

(٢) سورة الفاتحة آية / ٧

(٣) الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد أبي شهبة ص ٦٥ .

(٤) جاء في المفردات لغريب القرآن للاصفهاني ص ٢٧٧ أن الصديقين هم قوم دوين الأنبياء في الفضيلة كما ورد أنهم الذين وافقت أفعالهم أقوالهم فصدقتها .

(٥) سورة النساء آية / ٦٩ .

الثاني : تفسير القرآن بالسنة :

تعتبر السنة النبوية الشريفة في المرتبة الثانية لتفسير القرآن الكريم واذا صحّت نسبتها واسنادها للرسول صلى الله عليه وسلم فلا يجور أبدا العدول عنها الى غيرها ، ولأن وظيفته صلى الله عليه وسلم البيان كما وضح ذلك المولى عزوجل بقوله :

(وَأَنزَلنَا إِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ) (١)

هذا وتعتبر السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع ، فكيف لا نأخذ منها تفسير كتاب الله وهو جل وعلا قد نصّ على ذلك ؟ ، كما حث على اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعته وكان يقرن - دائما - طاعته جل وعلا بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يؤكد كون السنة المصدر الثاني للتشريع .

يقول تبارك وتعالى :

(مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَد أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرسَلنَاكَ عَلَيهِم حَفِيظاً)(٢)

ويقول أيضا :

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينَهُم ثُم لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيتَ وَيُسَلِّمُوا تَسلِيماً) (٣)

---

(١) سورة النحل آية / ٤٤

(٢) سورة النساء آية/ ٨٠

(٣) سورة النساء آية / ٦٥

كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه حين سأل معاذ بن جبل قبل أن يبعثه الى اليمن فقال : " كيف تقضي ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : فان لم يكن في كتاب الله ؟ ، قال : فبسنة رسول الله • قال : فان لم يكن في سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أجتهد رأيي • قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم •(١)

وقال صاحب الموافقات :

" وقد كملت قواعد الشريعة في القرآ ن والسنة فلم يتخلف عنها شيء ، والاستقراء يبين ذلك ويسهل على من هو عالم بالكتاب والسنه ولما كان السلف الصالح كذلك قالوا به ونصوا عليه" •(٢)

وهذا القول يريد به : أن السنة النبوية الشريفة شرحت ماجاء في القرآ ن وكملته وبينته في أمور كثيرة كأمر الصلاة والزكاة والحج والصوم فلابد من الرجوع اليها بعد كتاب الله الكريم •

وهناك آيات وأحاديث وأقوال كثيرة في بيان مرتبة السنة الشريفة وما ذكرته ماهو الا اشارة لا غير •

---

(١) سنن الترمذى كتاب الاحكام باب ماجاء في القاضي كيف يحكم ج ٢ ص ٣٩٤ ، وقال فيه : هذا حديث لا نعرفه الا من هذا الوجه "•
قال الحافظ ابن كثير في تفسير القرآ ن : وهذا الحديث في المسند والسنن باسناد جيد : ج ١ ص ٣ • ورواه احمد في مسنده ج ٥ ص ٢٣٦ •

(٢) الموافقات للشاطبي ج ٤ ص ٢٩ •

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة :

(١) بينت السنة الشريفة كثيرا مما أجمل من عبادات وأحكام وردت في القرآن الكريم ، كالزكاة التى لم يبين مقاديرها ، وأنواعها وأوقاتها ، فوضحت ذلك السنة ، وكذلك الأمر بالنسبة للحج ، وبالنسبة للصلاة ، فالصلاة لم يبين القرآن أوقاتها ولا عدد ركعاتها ، ولاكيفيتها ولا كل ما يتعلق بها من شروط أو أركان أو واجبات ...... وجاء كل هذا موضحا في أفعاله صلى الله عليه وسلم وفي أقواله التي منها قوله عليه الصلاة والسلام : " صلوا كما رأيتمونى أصلى"(١) .

(٢) وقيدت بعض ماجاء مطلقا في الكتاب الكريم كما فى قوله تعالى :

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (٢)

يقول صاحب : السنة قبل التدوين :

" فان قطع اليد لم يقيد في الآية بموضع خاص فتطلق اليد على الكف وعلى الساعد ، وعلى الذراع ، ولكن السنة قيّدت القطع بأن يكون من الرسغ (٣) ، وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) صحيح البخارى كتاب التمنى باب ماجاء في اجازة خبر الواحد ج ١٣ ص /٢٠٠ من فتح البارى .

(٢) سورة المائدة آية / ٣٨ .

(٣) الرسغ : مفصل مابين الكف والذراع وقيل الرسغ : مجتمع الساقين والقدمين وقيل : مفصل مابين الساعد والكف والساق والقدم / لسان العرب ج ١ ص ١١٦٥.

عندما (أتـى بسارق فقطـع يـده)[١]، هذا وقد أتت السنة مبينة للقـرآن الكريم فكانت تفسر مبهمـه[٢]، وقيـد مطلقـه[٣]، وتوضح مجملـه وتخصص ماكـان عاما فيـه وتشرح أحكامـه بتفصيل مبسط كما وضحت أيضـا الناسخ والمنسوخ منه ، وجاءت بأحكام زائدة على ما في القرآن الكريم[٤]، فجزى اللـه نبينـا محمدا صلى الله عليه وسلم عنا وعن المسلمين خيـر الجـزاء ٠

---

(١) سنن الدار قطني جـ ٣ ص ١٨١ ، وقال فيـه ضعيف ، ولكن جاء في السنن أيضـا جـ ٣ ص ٢١٢ أن عليـا رضي اللـه عنه كان يقطع من المفصل ويحسمها ولكـن في السند حجيـة ابن عدى " تابعي " بضم الحاء وفتح الجيم وشـدة مثناة تحت ٠ المغني في ضبط الأسماء والكنـى ص ٧٢ ٠

قال فيـه أبو حاتم : شبه المجهول ، وقال ابن حجر في الفتح جـ ١٢ ص ٨٧ : الجمهور على القطع من الكوع ، ونقل بعضهـم فيه الاجماع والسنة القطـع من المفصل من حديث جابر وغيره ، وعمر كان يفعل ذلك ٠ فالحديـث كما نرى واللـه اعلم يتقوى بشواهده ، والكوع رأس اليد مما يلي الابهام ٠ النهاية ٤/٢٠٩

(٢) المبهـم : هو الذى لايفهـم المراد منه ويأتي مرادفا لمعنى المجمل ، وهـو مالـم تتضح دلالتـه جـ ٢ ص ٢٦ من كتاب الاتقان للسيوطي وقد سبق ذكـر المثال عليـه ٠

(٣) المطلق : الدال على الماهيـة بلا قيد " جـ ٢ ص ٤٠ من الاتقان للسيوطـي " وقد سبق مثالـه ٠

(٤) كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها حيث ورد في صحيح مسلم بشـرح النووى جـ ٩ ص ١٩٠ وتحريم لحوم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السبـاع ورجم الزاني المحصن وغير هذا كثيـر ، المرجع نفسه : ١١/ ١٨٨ ٠

الثالث : تفسير القرآن بأقوال الصحابة :

تأتي تفاسير الصحابة - رضوان الله عليهم - في المرتبة الثالثة وذلك لأن عدالتهم مقطوع بها ،فالآيات التي تشهد بفضلهم ومكانتهم - نتيجة اخلاصهم وصدقهم في نشر الدين - كثيرة أذكر منها قوله تعالى :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ترىٰهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضونا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التورىٰة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فئازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصلحت منهم مغفرة وأجراً عظيما)(١) ٠

وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة التى تشهدبفضلهم وتبين مدى حب النبي صلي الله عليه وسلم لهم كثيرة أذكر منها عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خير امتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)(٢) ٠ وعن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتسبوا أصحابي لاتسبوا أصحابي فوالذى نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)(٣) ٠

---

(١) سورة الفتح آية / ٢٩ ٠

(٢) البخاري في كتاب الفضائل باب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ج ٧ ص ٤ - ٥ من فتح البارى واللفظ للبخارى ومسلم في كتاب الفضائل باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ج ١٦ ص ٨٤ ٠

(٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل باب تحريم سب الصحابة ج ١٦ ص ٩٢ ٠

وقد سبق أن ذكرت في مبحث سابق[(١)] أقوال العلماء في وجوب الرجوع الى أقوال الصحابة اذا لم نحصل على التفسير في كتاب الله ، ولم نجده أيضا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ٠

ومن أمثلة تفسير القرآن بأقوال الصحابة :

(١) ما أخرجه البخارى عن عبد الله بن أبي مليكة يحدّث عن ابن عباس قال : وسمعت أخاه[(٢)] أبا بكر بن أبي مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال : قال عمر رضي الله عنه يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت :

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُم أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ) (٣)

قالوا : الله اعلم فغضب عمر ، فقال قولوا نعلم أو لانعلم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤ منين ، قال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل ، قال عمر : أى عمل ؟ ، قال ابن عباس : لعمل ، قال عمر لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى اغرق اعماله ٠ (٤)

---

(١) وذلك في مبحث اهتمام العلماء بالتفسير.

(٢) القائل : وسمعت أخاه هو ابن جريج ، وأبو بكر بن أبي مليكة لايعرف اسمه وعبيد بن عمير ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وسماعه من عمر صحيح / فتح البارى ، شرح صحيح البخارى لابن حجر ج ٨ ص ١٥١ ٠

(٣) سورة البقرة آية / ٢٦٦ ٠

(٤) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله أيود أحدكم أن تكون له جنة ج ٨ ص ١٥١ من فتح البارى ، وذكره السيوطي في الاتقان ج ٢ ص ٢٤٠ ٠

(٢) ما رواه مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ، فقالت : لقد قفّ شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ثم قرأت :

(لَا تُدرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ)[١]

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَو مِن وَرَاءِ حِجَابٍ)[٢]

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت :

(وَمَا تَدرِي نَفسٌ مَاذَا تَكسِبُ غَدًا)[٣]

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ)[٤]

ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين .[٥]

---

(١) سورة الأنعام آية / ١٠٣

(٢) سورة الشورى آية / ٥١

(٣) سورة لقمان آية / ٣٤ .

(٤) سورة المائدة آية / ٦٧ .

(٥) صحيح مسلم كتاب التفسير في تفسير بعض آيات من سورة النجم " ١١ ـ ١٣ " ج ٨ ص ٤٦٦ من فتح البارى .

(٣) وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء مشركوا قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي القدر فنزلت :[١]

(يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) .[٢]

وأكتفي أخيرا بقول ابن تيمية في تفسير القرآن بأقوال الصحابة قال : " واذا لم يتيسر التفسير بالقرآن والسنة رجعنا الى أقوال الصحابة ولاسيما كبراؤهم ، فهم الذين شاهدوا التنزيل وعاصروا أسباب النزول وعرفوا الناسخ والمنسوخ ، وتلمسوا الجوانب المحيطة بالقرآن والمعاني التى أشار اليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهم انضر الناس منهم وأقدرهم على الاجتهاد والاستنباط " .[٣]

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ج ١٦ ص ٢٠٥ بشرح النووى ، وأخرجه الواحدى في كتاب أسباب النزول ص ٢٢٨ .

(٢) سورة القمر آية / ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ٩٦ .

الرابـع : تفسير القرآن بأقـوال التابعيـن :

يعتبر تفسير التابعين أقل درجة من تفسير الصحابة لأنهم لم يعاصروا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يدركوا الأحوال والقرائن وأسباب النزول التى اختص بها الصحابة رضوان الله عليهم ، لهذا عدّه العلماء - أى تفسير التابعين - في المرتبة التى تلى مرتبة تفسير الصحابة نظرا لاحتكاكهم بهم ، وتلقى غالب تفاسيرهم وعلومهم عنهم ، ولقربهم أيضا من عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفرغ الكثير منهم لخدمة العلم والدين - وعدم تشاغلهم بالدنيا - فما جاء منقولا - بطريق صحيح - عن التابعين رحمهم الله تعالى وان كان فيه خلاف فيكفى فيه ما يأتي :

أولا : وروده في كتب التفسير بالمأثور ، وخاصة ابن جرير وابن كثير .

ثانيا : قول ابن تيمة فيهم : اما اذا اجتمعوا على الشيء - ويقصد التابعين - فلا يرتاب في كونه حجة فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ، ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك الي القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة .(١)

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٥ .

ومن أمثلة تفسير القرآن بأقوال التابعين :

ما رواه ابن جرير عن عمرو بن قتادة قال : (سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يفسر هذه الآية :

(فَمَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ) [١]

قال : من يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عنده خير ٠

(وَمَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) [٢]

من مؤ من يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس عنده شيء)٠ [٣]

يروي ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم - في تفسير نفس الآية وسبب نزولها - عن سعيد بن جبير قال(لما نزلت :

(وَيُطعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) [٤]

كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل اذا اعطوه فيجيء المسكين الى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمر والكسر والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون ما هذا بشيء ، انما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة ، والنظرة

---

(١) سورة الزلزلة آية / ٧ ٠
(٢) سورة الزلزلة آية / ٨
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ، المجلد الثاني عشر ص ١٧٣ ج ٣٠ ٠
(٤) سورة الانسان آية / ٨ ٠

والغيبة وأشباه ذلك ويقولون انما وعد الله النار على الكبائر فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه فانه يوشك أن يكثر وحذرهم اليسير من الشر فانه يوشك أن يكثر ، فنزلت : (**فَمَن يَعمَل مِثقَالَ ذَرَّةٍ** ٠)[(١)]

فهذا المثال يعطينا دلالة على أن قول التابعين حجة في هذه المسألة لاتفاقهم على نفس المعنى ، كما يفيد أن المحققين من العلماء والمفسرين قد جمعوا الكثير من أقوال التابعين في كتبهم " دلالة منهم على أنهم ارتضوا ما ذهب اليه **التابعون** ٠

أما بالنسبة لتفسير القرآن بمطلق اللغة فقد ذكرت أنه من الشروط الواجب توافرها في المفسر ، وهذا الشرط لابد من الاشارة اليه لأنه متعلق بالتفسير بالمأثور - من ناحية مجيئه عن صحابي **أو تابعي - واللغة العربية متعددة اللهجات - ولذا** كان من الضروري الرجوع اليها ومعرفة دقائقها وأسرارها ، والغريب منها ٠

قال ابن عباس في ذلك :

" التفسير أربعة :

(١) حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ٠

(٢) تفسير تفسره العرب بألسنتها ٠

(٣) تفسير العلماء ٠

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٤١ ، ولباب النقول في اسباب النزول للسيوطي ص ٢٣٣ كما ورد نفس المعنى في كتاب اسباب النزول للواحدى ص ٢٥٨ ٠

(٤) تفسير لايعلمه الا اللـــه .[1]

فجعل ابن عباس من انواع التفسير تفسيرا تفسره العرب بألسنتها وصدق في ذلك لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب بقوله تعالى :

(إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[2]

كما يقول جل وعلا :

(وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)[3]

فلا بد للمفسر الذى لم يجد بغيته في تفسير كلمة أو آية ـ وهو قليل ـ من القرآن أو السنة أو أقوال الصحابة رضوان الله عليهم ...... لابد له من الاجتهاد والتعمق في معرفة اللغة العربية وما يتعلق بها من اعراب ومعان ومفردات ، وبيان وبديع وغيره .[4]

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٧٥ ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١١٥ .

(٢) سورة يوسف آية / ٢ .

(٣) سورة الشعراء آية / ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(٤) البيان : هو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه .
والبديع : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة .
الايضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني شرح وتعليق د/ محمد خفاجي جـ ٢ ص ٣٢٦ ، ٤٧٧ .

هذا وقد اهتم بضرورة الرجوع الى العربية والتمكن منها كثير من العلماء[(١)] ، فجعلوها من شروط المفسر حيث بها يدرك الاعجاز القرآني ولذا قال مالك بن أنس : لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله الا جعلته نكالا[(٢)] ، ومن امثلة تفسير القرآن بلغة العرب ٠

* ما ذكر عن كثير من الصحابة والتابعين في التفسير خاصة ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه فقد أوتى من قوة الفهم وسعة الادراك ، وقوة الحفظ الشيء الكثير ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " ٠ [(٣)]

فكان رضي الله عنه يفسر القرآن بحسب المنهج القويم للتفسير : فهو اذا لم يجد المعنى في المأثور فسره بما جاء في لغة العرب ٠[(٤)]

وأمثلة ذلك كثيرة ، ولقد ذكر السيوطي مسائل نافع بن الازرق لابن عباس في تفسير القرآن بلغة العرب اذكر منها :

---

(١) اذكر منهم السيوطي في الاتقان جـ ٢ ص ٢٢٩ ، والشيخ محمد أبا شهبة في كتابه الاسرائيليات ص ١١٩ ، والشيخ الذهبي في التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٥٨ ٠

(٢) البرهان للزركشي جـ ٢ ص ١٦٠ ٠

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب معرفة الصحابة ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقال عنه : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه جـ ٣ ص ٥٣٤ ، وعلق الذهبي على الحديث بقوله انه صحيح ٠

(٤) وهذا أيضا لايخرج التفسير عن كونه مأثورا لأنه عن صحابي كريم عاش في زمن الوحي ونزول القرآن ٠

(١) قال نافع : أخبرني عن قوله تعالى :

(وَابتَغُوا إِلَيهِ الوَسِيلَةَ) (١)

قال الوسيلة الحاجة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم (٢)

أما سمعت عنترة وهو يقول :

ان الرجال لهم اليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي (٣)

(٢) كما قال له : أخبرني عن قوله تعالى :

(قَد أَفلَحَ المُؤمِنُونَ) (٤)

قال : فازوا وسعدوا . قال : هل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم (٥)

أما سمعت قول لبيد بن ربيعة .

فأعقلي ان كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل (٦)

أي فاز وسعد .

* * *

---

(١) سورة المائدة آية / ٣٥

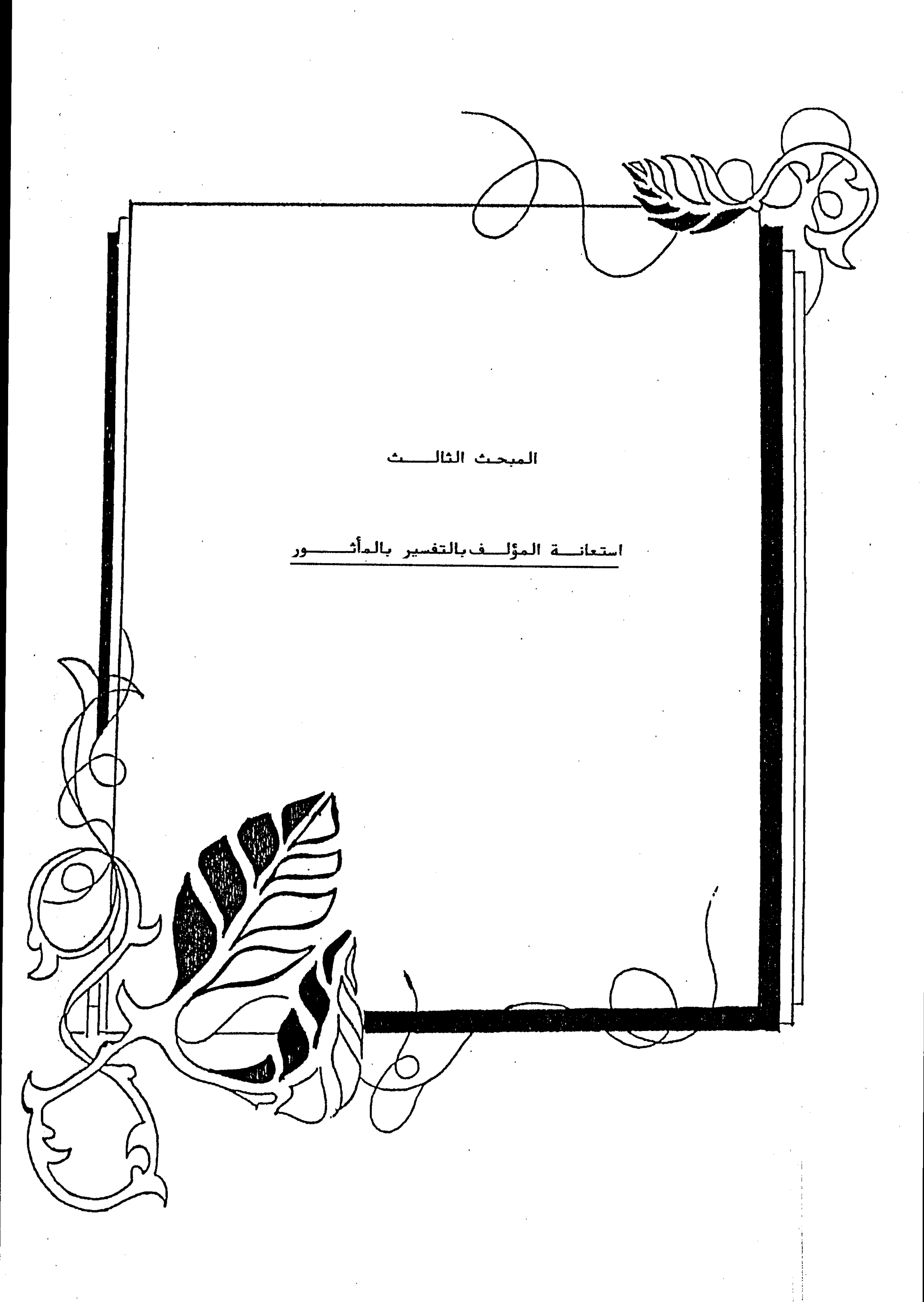
(٢) الاتقان للسيوطي ج ١ ص ١٥٨ .

(٣) ديوان عنترة ص ٣٣ داربيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨ هـ .

(٤) سورة المؤمنون آية / ١

(٥) الاتقان للسيوطي ج ١ ص ١٦٠ .

(٦) شرح ديوان لبيد بن ربيعة لابراهيم جزين ص ١٤٤ منشورات دار القاموس الحديث بيروت .



المبحث الثالث

استعانة المؤلف بالتفسير بالمأثور

المبحث الثالث

استعانة المؤلف بالتفسير بالمأثور

أولا : تفسير القرآن بالقرآن :

بيّنا فيما سبق[١] مدى اهتمام سيد قطب بالقرآن الكريم وحفظه ، ومحاولة اظهار مافيه من جمال التأويل ، ثم ارجاعه في احساس المسلمين جديدا كما تلقاه العرب أول مرة فسمروا به جميعا ،[٢] كما اهتم بتفسير القرآن الكريم .

يقول رحمه الله محددا اسلوبه في التفسير ومعتمدا فيه على القرآن نفسه : " وكل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية تحجب القرآن عن روحي وتحجب روحي عن القرآن ، وما استطردت الى غير ما يوحيه النص القرآني ذاته من خاطرة روحية أو اجتماعية أو انسانية وما أحفل القرآن بهذه الايحاءات " .[٣]

ويذكر أيضا أنه حاول أن يعبر عما خالج نفسه من احساس بالجمال العجيب في هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير .[٤]

وكما علمنا أن أول مصادر التفسير وأهمها هو القرآن نفسه لأنه يفسر بعضه بعضا ، فما أطلق في مكان قد قيد في مكان آخر ، وما

---

(١) عند الحديث عن قريته وتأثره بها .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ص ٧ .

(٣) ظلال القرآن ط١ ج١ ص ٦ ، دار احياء الكتب العربية .

(٤) المصدر نفسه : ج ١ ص ٦ ، ٧ .

أوجز في موضع قد بسط في موضع آخر ، وبقراءة كتاب المؤلف " في ظلال القرآن " نراه قد اهتم بتفسير القرآن بالقرآن بصورة عامة ولكنه لم يتبع المنهج المشهور في تفسير القرآن بالقرآن الا قليلا ، والملاحظ أنه اتبع طريقة أخرى حيث انه في اوائل السور كان يعطي فكرة عامة عن السورة المراد تفسيرها ثم يقسم السورة الى مقاطع ودروس بحسب تسلسل الآيات ويجمع أهم الآيات التى تتحدث عن موضوع معين ويعلق عليها بأسلوب سهل ممتنع ، بكلمات قليلة معبرة بعد أن يقدم لها بما يربط بينها وهو بهذا يقرب المعنى في الأذهان ، ويجعل الآيات تشترك في تقديم صورة متكاملة ٠

ولعل اتباعه لهذه الطريقة أنه يؤمن - وقد أصاب في ذلك - أن السورة القرآنية ذات وحدة موضوعية متكاملة وأياتها دائما تدور حول هذا الموضوع ٠

ولذلك كانت طريقته في التقديم والختام جزءا من تفسير القرآن بالقرآن بصورة موضوعية حسنة ، وهذه الطريقة جديدة في بابها ولم يسبقه اليها - فيما اعلم - الا المرحوم أبو الأعلى المودودى رحمه الله في كتابه " تفهيم القرآن " ٠ (١)

والملاحظ بشكل عام أنه اتبع طريقة ظاهرة في كتابه - رحمه الله - وهي أنه كان يأتي في أول كل سورة يحدد ملامحها العامة ويستعرض مع

---

(١) تم ترجمة جزءين من هذا المؤلف الى العربية وطبعا بالقاهرة وقدمت رسالة عنه في جامعة أم القرى قسم الكتاب والسنة ٠

كل ملمح أهم الآيات المتعلقة به فكانت هذه الآيات تتعاون لتعطى معنى واحدا وان لم تأت في المصحف على الترتيب فيمكن - مع شيء من التجاوز - اعتبار هذا الاسلوب داخلا في التفسير .

ومثال ذلك :

(١) ماجاء في التعريف بسورة آل عمران حيث قال :[١] في هذا المقطع الأول يتبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة ممثلا في أمثال هذه النصوص :

اذكر منها :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَٰبِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)[٢]

(وَدَّت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) .[٣]

(يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[٤]

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ص ٣٥٣ .
(٢) سورة آل عمران آية / ٢٣
(٣) سورة آل عمران آية / ٦٩
(٤) سورة آل عمران آية / ٧١

(قُل يَأَهلَ الكِتَبِ لِمَ تَكفُرُونَ بِئَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعمَلُونَ . قُل يَأَهلَ الكِتَبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُم شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ).(١)

فالمؤلف قد أحسن في جمع هذه الآيات بعضها الى بعض ليبين الموقف الحقيقي لأهل الكتاب من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة الممثلة في الاسلام .

* فهم أولا لم يقبلوا تحكيم كتاب الله المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم واعرضوا عنه رغم أنه قد جاءهم كتاب من عند الله - وهو التوراة - من قبل .

* وثانيا يودون خداع المسلمين وضلالهم وابعادهم عن حقيقة الدين الحق وتلك غايتهم الثابتة الدفينة ، ولكن هيهات أن يكون النصر حليفهم في ذلك .

* وثالثا يحاولون أن يغلبوا الجماعة المسلمة على عقيدتها فيخلطون الحق بالباطل ويحاولون جهدهم إخفاء الحقيقة وخداع المسلمين مع علمهم بأن هذا خطأ فادح وأى خطأ .

* ورابعا يبذلون قصارى جهدهم في أن يبعدوا الجماعة المسلمة عن حقيقتها الايمانية ويحاولوا بشتى الطرق أن يحيدوا بها عن منهج الله وطريقته

---

(١) سورة آل عمران آية / ٩٨ ، ٩٩ .

وما اللـه بغافل عن كل ما يعملون ، لذا كشف نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة وأهدافهم الخطرة على الاسلام والمسلمين .[١]

وهكذا نراه قد وفق في ايضاح المعنى المشترك لهذه الآيات بربط بعضها الى بعض

(٢) ومثاله كذلك :

ماجاء في مقدمة سورة الانفال حيث قال[٢] " ويبرز في سياق السورة بصفة خاصة - الى جانب خط العقيدة - خط آخر هو خط الجهاد ، وبيان قيمته الايمانية والحركية وتجريده من كل شائبة شخصية واعطائه مبرراته الذاتية العليا التى ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء الى آخر الزمان ..... والسورة بجملتها تتضمن هذا الايحاء ، فنكتفي ببعض النصوص في هذا التعريف .

يقول تعالى :

(يَآأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدبَارَ وَمَن يُوَلِّهِم يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَو مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَد بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصِيرُ)[٣]

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ص ٣٥٤ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٤٦٦ .

(٣) سورة الأنفال آية / ١٥ ، ١٦

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي[1] الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)[2]

(وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)[3]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ)[4]

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ[5] فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٠)[6]

وبالنظر في النصوص السابقة ترى أن الآيات فعلا قد تعاونت لاعطاء معنى مشترك يكاد يكون متكاملا عن الجهاد بل يربطه بالايمان ٠ فالنص الأول يأمر الله المؤ منين فيه بالثبات والصبر عند لقاء

---

(١) أي تغلبهم بهم في الحرب كما جاء في تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٠ ٠

(٢) سورة الانفال آية / ٥٥ ـ ٥٧ ٠

(٣) سورة الانفال آية / ٦٠

(٤) سورة الانفال آية / ٦٥

(٥) الاثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ٠٠ والمعنى حتى يذل الكفر ويضعفه باشاعة القتل في أهلة ويعز الاسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر ثم الأسر بعد ذلك : الكشاف ج ٢ ص ١٦٨ ٠

(٦) سورة الانفال آية / ٦٧ ٠

الكفار[١]، الذين لا معين لهم ويبين أن هروب المؤمن من مواجهة الكفار - مهما كثروا - يمس ايمانه وعقيدته وحركته تلك ربما أحدثت تأثيرا في صفوف اخوانه المسلمين ، فاستحق لذلك سخطا من الله ومأوى ومستقرا في جهنم .

والنص الثاني لا يصف الكفار بأنهم دواب فقط لعدم ايمانهم بل يثبت أنهم شر الدواب - نتيجة اصرارهم على الكفر ورسوخهم فيه - فهم دائما ينقضون عهدهم في كل مرة[٢]، ولا يتقون الله مرة واحدة فكان جزاؤهم تخويفهم وتشريدهم وتغليظ عقوبتهم - هم ومن يؤيدهم من ورائهم من أمثالهم على أيدي المسلمين[٣] وليخاف من سواهم من الاعداء ويصيروا لهم عبرة .[٤]

والنص الثالث : يأمر باعداد مافي وسع المسلمين من قوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها لالقاء الرعب والرهبة والخوف في قلوب الاعداء ومن ماثلهم[٥] ، وقد بيّن الله أن انفاق المال

---

(١) وذكر حالهم زحفا يعني كونهم كالجيش الدهم الذى يرى لكثرته كأنه يزحف " الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ١٤٨ ".
(٢) جاء في الكشاف انهم بنو قريظة لأن شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون للعهود جـ ٢ ص ١٦٤ .
(٣) في ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٤٨٧ : ١٥٤١ بتصرف .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٥) قال مجاهد : يعني بنى قريظة ، وقال السدى : الفرس ، وقال غيرهم : الشياطين ، ورجح ابن كثير المنافقين : تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٠ .

في سبيل الله وان كان قليلا سيجزى الله عليه الجزاء الأوفى يوم القيامة

والنص الرابع : يأمر الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بحث المؤمنين على الجهاد والقتال والمبالغة فيه مطمئنا اياهم بأن النصر حليفهم ما صبروا ومهما كان عدد اعدائهم من الكفار الذين لايدركون قيمة الايمان بالله والجهاد في سبيله فاستحقوا لذلك القهر والخذلان[١].

والخامس : يوضح فيه مراده جل وعلا من الجهاد فهو يريد الاخلاص له وطاعتهم المطلقة له ، ويريد تمكين المسلمين في الأرض واضعاف شوكة المشركين ، كما يريد لهم الخير الكثير والثواب الجزيل المعد لهم في الآخرة .

* كان المؤلف رحمه الله عند تفسيره لبعض الآيات يورد آيات من سور أخرى ليوضح المراد ويؤكده ، ومثال ذلك :

أ ـ عند تفسيره للمقطع الأخير من سورة هود الذى يبدأ من قوله تعالى :

((ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ))[٢]

الى قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .[٣]

---

(١) ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم لابي السعود ج ٢ ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ بتصرف وايجاز .

(٢) سورة هود آية / ١٠٠ .

(٣) سورة هود آية / ١٢٣ .

قال رحمه الله : " هذه خاتمة السورة تشمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة مبنية على ما سبق في سياق السورة من المقدمة والقصص . وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة متكاملة معه في اداء أهدافها كذلك " (١)

وعند تفسير قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

قال : " وهكذا اختتم السورة التى بدئت بالتوحيد في العبادة والتوبة والانابة والرجعة الى الله في النهاية بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه اليه وحده والرجعة اليه في نهاية المطاف ، وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون " (٢) .

ثم قال أيضا : " ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص ١٩٢٦ .
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص ١٩٣٤ ، والطي : نقيض النشر ، وأطواء الثوب والصحيفة والبطن .... : طرائقه ومكاسر طيه .
لسان العرب لابن منظور ج ٢ ص ٦٣١ .
وطوى الله لنا البعد أى قربه : القاموس المحيط ج ٤ ص ٣٦١ ، ويكون أطواء القرون بمعنى ازمان القرون المطوية .
وغور كل شيء عمقه وبعده ، والغور : المطمئن من الأرض والغار الحجر الذى يأوى اليه الوحش .. والجمع القليل من ذلك اغوار والكثير غيران : لسان العرب ج ٢ ص ١٠٢٦ : ١٠٢٧ وعليه يكون اغوار بمعنى اعماق النفس .

بالأمر والنهي معا يؤكد أحدهما الآخر " .

وذكر نماذج لذلك من سورة هود ومن غيرها فمثلا يورد قوله تعالى :

(الر كِتَبٌ أُحكِمَت ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَّدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعبُدُوٓا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) (١) من سورة هود . ومنها أيضا قوله جل وعلا :

(وَلَقَد أَرسَلنَا نُوحًا الى قَومِهِ إِنّى لَكُم نَذِيرٌ مُبِينٌ أَن لَّا تَعبُدُوٓا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم عَذَابَ يومٍ أَلِيمٍ)(٢)

ومنها أيضا قوله تعالى :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُم هُودًا قَالَ يَقَومِ اعبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّن إِلَهٍ غَيرُهُ إِن أَنتُم إِلَّا مُفتَرُونَ) (٣)

ثم يجمع معها الآيات الموضحة لنفس المعنى من سور أخرى فيورد قوله تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَينِ اثنَينِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحِدٌ فَإِيَّىَ فَارهَبُونِ). (٤) من سورة النحل .

---

(١) سورة هود آية / ١ ، ٢
(٢) سورة هود آية / ٢٥ ، ٢٦
(٣) سورة هود آية / ٥٠
(٤) سورة النحل آية / ٥١

وقولـه تعالى :

(ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) [١] من سورة آل عمران .

وقوله تعالى :

(إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) [٢] من سورة الانعام .

ب - وعند ايراد المؤلف لقصة نوح عليه السلام - التى تناولتها سورة هود - مع ابنه ، وذكره لحقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها القرآن الكريم - وهي الايمان بالله - ذكر[٣] أمثلة مستشهدا عليها بآيات قرآنية من سور أخرى جاءت على هذا النحو :

أ - مثل مايكون بين الولد والوالد كما في قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وهو قوله تعالى :

(واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان

(١) سورة آل عمران آية / ٦٧ .
(٢) سورة الانعام آية / ٧٩ .
(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص١٨٨٦ .

لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ، يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا[(١)] قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) [(٢)]

ب - ومثل ما يكون بين الزوج وزوجه[(٣)]، كما في قوله تعالى :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ). [(٤)]

---

(١) قال الحسن ومجاهد مليا : دهرا طويلا : القرطبي جـ ٥ ص ٤١٥٠ ، والحفى : المبالغ في البر والالطاف ، وقال الفراء " انه كان بى حفيا " أى عالما لطيفا يجيبنى اذ دعوته : الجامع لاحكام القرآن للقرطبي جـ ٥ ص ٤١٥٢ . وبمثله عن ابن عباس وقتادة ومجاهد في تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٢٣ .

(٢) سورة مريم آية / ٤١ : ٥٠

(٣) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ١٨٨٧ .

(٤) سورة التحريم آية / ١٠ : ١١

جـ ـ مثل مايكون بين المؤمنين وأرضهم وقومهم وأهلهم ومصالحهم كما وقع لأصحاب الكهف مع قومهم[١]، وكما وقع لابراهيم عليه السلام ومن معه مع أهلهم .

(١) وذلك في قوله تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا)[٢]

(٢) وقوله تعالى :

(لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥٓ).[٣]

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ١٨٨٧ .
(٢) سورة الكهف آية / ١٣ : ١٦ .
(٣) سورة الممتحنة آية / ٣ ـ ٤ .

ب - وفي سورة الفرقان أيضا كان يستشهد[١] لتفسيره بآيات قرآنية من سور أخرى ليزداد المعنى وضوحا وذلك :

(١) عند تفسيره لقوله تعالى :

(تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً)[٢]

أراد أن يبين أن صفة العبودية وردت في القرآن الكريم ويراد بها بيان موضع التكريم والتعظيم للمصطفين من بنى الانسان فقال : " كذلك وصفه في مقام الاسراء والمعراج في سورة الاسراء :

(سُبْحَنَ الَّذِىٓ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِّنَ ٱلْمَسجِدِ الحَرَامِ إِلَى المسجِدِ الأَقصَا)[٣]

وكذلك وصفه في مقام دعائه ومناجاته في سورة الجن :

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبدُ اللَّهِ يَدعُوهُ) .[٤]

وكذلك يصفه هنا في مقام تنزيل الفرقان عليه كما وصفه في مثل هذا المقام في مطلع سورة الكهف :

(الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبدِهِ الكِتَبَ وَلَم يَجعَل لَّهُ عِوَجَا[٥])

---

(١) في ظلال القرآن م ٥ ص ٢٥٤٧ .
(٢) سورة الفرقان آية / ١
(٣) سورة الاسراء آية / ١
(٤) سورة الجن آية / ١٩
(٥) سورة الكهف آية / ١

والوصف بالعبودية في هذه المواضع له دلالته على رفعه هذا المقام وأنه أرفع ما يرفع اليه بشر من بني الانسان ، كما أن فيه تذكيرا خفيا بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لايزيد على أن يكون مقام العبودية لله. ويبقى مقام الالوهية متفردا بالجلالة متجردا من كل شبهة شرك أو مشابهة . ذلك أن مثل مقام الاسراء والمعراج أو مقام الدعاء والمناجاة أو مقام الوحي والتلقي كان مزلة لبعض أتباع الرسل من قبل منها نشأت أساطير البنوة لله أو الصلة القائمة على غير الالوهية والعبودية ، ومن ثم يحرص القرآن على توكيد صفة العبودية في هذا المقام بوصفها أعلى أفق يرتفع اليه المختارون من بنى الانسان . (١)

(٢) وعند تفسيره لقوله تعالى :

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا).(٢)

قال المؤلف : " وهذه الآية وكثير غيرها في القرآن يقرر أن أحداثا فلكية ضخمة ستتم في ذلك اليوم . وكلها تشير الى اختلال كامل في النظام الذى يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه ونجومه وكواكبه والى انقلاب في أوضاعه وأشكاله وارتباطاته تكون به نهاية العالم ، وهو

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٤٨ .

(٢) سورة الفرقان آية / ٢٥ ـ ٢٦ .

انقلاب لا يقتصر على الأرض انما يشمل النجوم والكواكب والافلاك ، ولابأس من استعراض مظاهر هذا الانقلاب كما جاءت في سور متعددة ـ اذكر منها ـ

(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَت وَإِذا البِحَارُ فُجِّرَت وَإِذَا القُبُورُ بُعثِرَت) [١] **(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت وَأَذِنَت لِرَبِّهَا وَحُقَّت وَإِذا الأَرضُ مُدَّت ، وَأَلقَت مَافِيهَا وَتَخَلَّت وَأَذِنَت لِرَبِّهَا وَحُقَّت)** [٢]

(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَت وَردَةً كَالدِّهَانِ) [٣] **(إِذَا رُجَّتِ الأَرضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا فَكَانَت هَبَاءً مُنبَثًّا)** [٤] **(فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ وَخَسَفَ القَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمسُ والقَمَرُ)** [٥]

ثم قال : وفي السورة ـ الفرقان ـ يخوّف الله المشركين بتشقق السماء بالغمام ، وقد يكون هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة وتنزل الملائكة يومئذ على الكافرين كما كانوا يقترحون ، لا لتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن ليتولوا عذابهم بأمر ربهم **(وكان يوما على الكفرين عسيرا)** [٦] بما فيه من هول وبما فيه من عذاب ، فما لهم يقترحون نزول الملائكة وهم لاينزلون الا في مثل ذلك اليوم العسير .[٧]

---

(١) سورة الانفطار آية / ١ : ٤
(٢) سورة الانشقاق آية / ١ : ٥
(٣) سورة الرحمن آية / ٣٧
(٤) سورة الواقعة آية ٤ : ٦
(٥) سورة القيامة آية ٧ : ٩
(٦) سورة الفرقان آية / ٢٦
(٧) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٦٠ .

جـ - وفي سورة الحاقة كذلك كان المؤلف عند تفسيره لبعض الآيات يورد آيات قرآنية من سور أخرى ليوضح المراد ويؤكده كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

يقول رحمه الله : " ولقد كان قول المشركين على القرآن وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه شاعر وانه كاهن ، وهذا القول شبهة سطحية منشؤها أن القرآن الكريم فائق في طبيعته على كلام البشر وأن الشاعر في ظنهم له رئي من الجن يأتيه بالقول الفائق وكذلك الكاهن فهو متصل بالجن ، فهم الذين يمدونه بعلم ماوراء الواقع ٠

وهذه الشبهة الواهية تسقط بتدبير طبيعة القرآن والرسالة ومقارنتها بطبيعة الشعر والكهانة ٠

هذا الى أن التصور الثابت الذى جاء به القرآن وأنشأه في كلياته وجزئياته مع تعيّن مصدره الالهي يوحي بأنه ليس للبشر القدرة على انشاء تصور كوني كامل كهذا التصور ٠٠٠ لم يسبق لهم هذا ولم يلحق (٢) ، ولم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف فاتجه الى مثل هذه الصورة التي جاءت في القرآن : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا

---

(١) سورة الحاقة / آية ٣٨ : ٤٣٠

(٢) في ظلال القرآن ، جـ ٦ ، ص ٣٦٨٦ بتصرف ٠

إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمت الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين)(١)

أو الى مثل هذه الصورة :

(يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) .(٢)

أو الى مثل هذه الصورة :

(وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتب إن ذلك على الله يسير)(٣)

أو الى قوله تعالى :

(إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الاصباح وجعل اليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمت البر والبحر قد فصلنا الآيت لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس وحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الأيت لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا

---

(١) سورة الانعام آية / ٥٩
(٢) سورة الحديد آية / ٤
(٣) سورة فاطر آية / ١١

نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان[1] دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون[2])

ونحن نرى أن المؤلف بذكره لهذه الآيات الكريمة يريد أن يثبت ما أثبته القرآن الكريم نفسه من أنه - أى القرآن - منزل من عند رب العالمين جل وعلا رب السموات والأرض ومن فيهن .... الذى عنده هذا العلم الشامل الدقيق والذى بيده مقاليد كل شيء فما من صغيرة ولا كبيرة حاصلة الا باذنه فهو وحده الذى يمكن أن ينسب اليه هذا القرآن العظيم ، ومن ثم يعقب المؤلف - رحمه الله - بعد هذه الآيات فيقول :

" وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب - مع ذكره لوجود كثير غيرها يدل دلالتها - " .[3]

ثم يقول : " فما كان قولهم : ساحر أو كاهن الا حيلة ماكرة أحيانا وشبهة مفضوحة أحيانا ، والأمر أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تفكير . وهو من ثم لا يحتاج الى قسم بما يعلمون وما لا يعلمون

---

(١) الطلع : أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فاذا شق عنه كيزانه سمى عذقا وهو القنو : تفسير الخازن جـ ٢ ص ٣٨ ، وقنوان جمع قنو ، والقنو بالكسر والضم والقناء بالكسر والفتح الكباسة وهو العذق بما فيه من الرطب :
تاج العروس جـ ١٠ ص ٣٠٤ .
ويقول أبو السعود : القنوان جمع قنو وهو عنقود النخلة : تفسير ابي السعود جـ ٢ ص ٢٥٦ (٢) سورة الانعام من آية /٩٥ : ٩٩ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٦٨٧ .

" انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن انما هو تنزيل من رب العالمين ، وتقرير أنه قول رسول كريم لا يعنى أنه من انشائه ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر لا يقوله شاعر ولا يقوله كاهن انما يقوله رسول يرسل به من عند الله فيحمله من هناك من ذلك المصدر الذى أرسله " .(١)

(٣) وهناك بعض السور فسّر المؤلف آياتها بدون استعانة بأمثالها - من الآيات - من سور أخرى مثل سورة الرعد وسورة ابراهيم وسورة الليل .

والحاصل أن مؤلف الظلال لم يغفل في تفسيره المأثور المفسر لآيات القرآن الكريم وقد استفاد به وفق منهجه الخاص به على النحو الذى أشرت اليه .

* * *

---

(١) في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٦٨٨ .

ثانيا : استعانتـه بالسنة الشريفة في تفسير القرآ ن :

لما كانت السنة الشريفة بيانا للقرآ ن الكريم وتنفيذا لأ مر الله الماثل في قوله تعالى :

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)(١)

كان تفسير القرآن بالسنة من التفسير بالمأثور ، ولا يجوز العدل عن السنة بحال في تفسير القرآن اذا صحت نسبتها الى المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا المجال .

وقد اهتم العلماء بالاحاديث الشريفة في تفسير القرآ ن الكريم ، ولكن على درجات متفاوتة ، فمنهم من كان يضع الحديث أيا كانت درجته ، ومنهم من كان يتحرى الصحيح ومنهم من يستشهد بالحديث ثم يلفت النظر الى صحته أو الى أن في اسناده غرابة أو ضعفا أو خلافه .(٢)

والاستاذ المؤلف سيد قطب كان كبقية المفسرين يهتم بتفسير القرآ ن الكريم بالاحاديث الشريفة ولكنه لم يكن يسير في استعانته بالاحاديث على اسلوب معين ويمكن أن أضع منهجه في ذلك بشكل عام في نقاط هي :

(١) كان يهتم بالاستفادة بالحديث بصورة عامة وخاصة في القضايا الأساسية في الشريعة حتى أننا نجده في بعضها يكاد يستقصي ما ورد من

---

(١) سورة النحل آ ية / ٤٤

(٢) من كتاب لمحات في أصول الحديث للدكتور محمد أديب صالح ص ٧٩ ـ ٨٠ ـ ١٩٢ ـ ٢١٠ .

أحاديث ، ومن أمثلة هذا المنهج :

أ - ماجاء عند تفسيره لقوله تعالى : (كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَو ءَامَنَ أَهلُ الكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيرًا لَّهُم مِّنهُمُ المُؤمِنُونَ وَأَكثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ) (١)

يقول عن الأمة الاسلامية :

هذه صفتها ليدلها على أنها لا توجد وجودا حقيقيا الا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التى تعرف بها في المجتمع الانساني فاما أن تقوم بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - مع الايمان بالله - فهي موجودة وهي مسلمة ، واما أن لا تقوم بشيء من هذا فهى غير موجودة ، وغير متحققة فيها صفة الاسلام . وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة ندعها لمواضعها وفي السنة كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوجيهاته نقطف بعضها (٢) :

(أ) عن أبي سعيد الخدرى قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رأى منكم منكرا فليغره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان " . (٣)

---

(١) سورة آل عمران آية / ١١٠

(٢) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٤٤٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب الايمان ، باب بيان كون النهى عن المنكر من الايمان ج ٢ ص ٢١ والترمذى في كتاب الفقه باب ماجاء في تغيير المنكر ج ٣ ص ٣١٨ ، وقال فيه حسن صحيح .

(ب) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن مريم ٠٠٠٠ ثم جلس - وكان متكئا - فقال : " لا والذى نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا " ٠ (١)

(جـ) وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذى نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم "٠ (٢)

(د) وعن العرس ابن عميرة الكندى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها " ٠ (٣)

---

(١) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة المائدة جـ ٤ ص ٣١٨ وقال فيه : حسن غريب ، وأبو داود في كتاب الملاحم باب الأمر والنهى جـ ٤ ، ص ٥٠٨ بلفظ آخر وفيه " ولتأطرنه على الحق أطرا " أى لتردنه عن الجور ، وأصل الأطر : العطف والتثنى ٠ عون المعبود شرح سنن أبي داود ، جـ ١١ ص ٤٨٨ ، ورواه أحمد في مسنده جـ ١ ص ٣٩١ ، وجاء في القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٧٨ الأطر عطف الشيء وأن تجعل للشيء أطرة ، والفعل كضرب ونصر كالتاطير فيهما ومنحنى القوس والسحاب واتخاذ الاطار للبيت وهو كالمنطقة حوله ٠

(٢) رواه أبو داود في كتاب الملاحم باب الامر والنهي جـ ٤ ص ٥١٠ بنحوه ، والترمذى في ابواب الفتن باب ماجاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جـ ٣ ص ٣١٧ ، وقال فيه هذا حديث حسن ٠

(٣) رواه ابو داود في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي جـ ٤ ص ٥١٥ ٠ وسكت عنه ، وينظر درجة الحديث في مشكاة المصابيح رقم ٥١٤٤ للتبريزى ، المكتب الاسلامي ، واسناده حسن كما جاء في مشكاة المصابيح برقم (٥١٤١) في كتاب الآداب باب الأمر بالمعروف جـ ٣ ص ١٤٢٢ ٠

(هـ) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " .(١)

(و) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام الى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله " .(٢)

فالاحاديث الشريفة تعاونت لاقرار حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالحديث الأول : يأمر فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بتغيير المنكر باليد ما استطاع الرائي له الى ذلك سبيلا فان لم يتمكن فليغيره بلسانه ، فان لم يتمكن فليغيره بقلبه .

والحديث الثاني : يحث فيه على أخذ جميع الناس - ولو كانوا علماء غافلين - بالحق وردهم اليه ان أخطأوا الطريق .

والثالث : يلزمهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فاذا لم يمتثلوا لذلك عرضوا أنفسهم لنزول العذاب عليهم وعدم استجابة دعواتهم.

والرابع : يبين فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن من حضر خطيئة أو ، معصية فأنكر فهو كمن لم يشهدها أما من لم يشاهدها ولكنه

---

(١) رواه الترمذى في كتاب الفتن باب أفضل الجهاد كلمة عدل ج ٣ ص ٣١٨ وقال فيه حسن غريب من هذا الوجه ، ورواه ابو داود بلفظ " أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر " في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي ج ٢ ص ٥١٤ ط ١ دار الحديث للطباعة والنشر حمص - سورية .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك كتاب معرفة الصحابة باب أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ج ٣ ص ١٩٥ وقال فيه : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافق عليه الذهبي.

رضيها فهو كالمشاهد لها المشترك فيها ،

والخامس : يوضح فيه أن من أعظم الجهاد وأفضله كلمة عدل وحق عند امام ظالم .

والسادس : يبين أن من قتله الامام الظالم لقوله الحق وأمره بالمعروف اعتبر من سادة الشهداء .

ب - ما أتى به عند تفسير قوله تعالى :

(لَيسَ بِأَمَانِيِّكُم وَلَا أَمانِيِّ أَهلِ الكِتَبِ مَن يَعمَل سُوءًا يُجزَ بِهِ وَلَا يَجِد لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) . (١)

حيث قال :"ومن ثم ارتجفت نفوسهم وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يجزون به ارتجفت نفوسهم كالذي يواجه العاقبة مثلا ويلا مسها وهذه كانت ميزتهم أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ويعيشوا فيها فعلا بمشاعرهم كأنهم فيها . لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الاكيد ".(٢)

وأورد عددا من الاحاديث يفسر الآية ويوضحها منها :

ماروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : " لما نزلت : (مَن يَعمَل سُوءًا يُجزَ بِهِ) شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول

---

(١) سورة النساء آية / ١٢٣ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٧٦٣ .

الله صلى الله عليه و سلم : سددوا وقاربوا فان في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها " . (١)

فالحديث يوضح أن المسلمين يجزون بما يعملون من سوء في الدنيا ويوجههم الى أن يسددوا حتى يلقوا الله وليس عليهم ذنوب أما غيرهم من المشركين والكفار فيجمع لهم ذلك حتى يجزون به يوم القيامة .

و - وما أورده عند تفسير قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٢)

حيث ذكر أن للتعبير بالود في هذا الجو نداوة رضية تمس القلوب ، وروح رضي يلمس النفوس وهو ود يشيع في الملأ الأعلى ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلئ به الكون كله ويفيض . (٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال ياجبريل اني أحب فلانا فأحبه ، قال فيحبه جبريل ثم ينادى في أهل السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول

---

(١) صحيح البخارى كتاب المرض باب أشد الناس بلاء الأنبياء ج ١٠ ص ٩٧ من فتح البارى ، ومسلم في كتاب البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ج ١٦ص ١٣٠ واللفظ له ، والترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة النساء ج ٤ ص ٣١٤ وقال فيه هذا حديث حسن غريب ، والنسائي في كتاب الايمان وشرائعه في باب الجهاد ج ٨ ص ١٢١ .

(٢) سورة مريم آية / ٩٦

(٣) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٢١ .

في الأرض ، اذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : أني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض . "(١)

وانها لمكرمة من أعظم المكارم أن يتكرم المولى عز وجل بمحبة عبده ومن ثم تشيع محبة ذلك العبد في الملأ الأعلى الطاهر فتغمره وتفيض بعد على الأرض ومن فيها .

ان المحبة وصفاء السريرة مكرمة من مكارم الأخلاق الحميدة تكفي المسلم وتغمره بالسعادة اذا وجدها من شخص مثله تماما فكيف اذا كانت من رب العباد وخالق الكون .

٢ - كان سيد قطب يهتم بايراد الأحاديث الصحيحة وغالبا كان يأخذ من الصحيحين أو غيرهما من الكتب الستة ومثال ذلك :

أ - ماجاء به عند تفسير قوله تعالى :

(لَا يَسْتَوِي الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى الْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)(٢)

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ج ٤ ص ٩٤ وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة باب اذا أحب الله عبدا ج ١٦ ص ١٨٤ واللفظ له ، ورواه الترمذي في كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم ج ٤ ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ وقال فيه حديث حسن صحيح ، وفي مسند احمد ج ٥ ص ٢٦٣ .

(٢) سورة النساء آية / ٩٥

حيث قال : وهذه الدرجة يمثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامه في الجنة ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض " .

رواه البخاري ومسلم[١] .

ب - وما جاء به عند تفسير قوله تعالى :

(ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).[٢]

حيث ذكر ما معناه : أن النحل تتخذ بيوتها - حسب فطرتها - في الجبال والشجر وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق ، والنص على أن العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب ، وهو ثابت بمجرد نص القرآن عليه .... وهكذا يجب أن يعتقد المسلم فيه - أي العسل - فشفاؤه للناس ثابت في كتاب الله[٣]، كما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رجلا

---

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء جـ٨ ص ٢٢٢ بلفظ "كل درجتين ما بينهما كما بين السماء..." و جـ ١٣ ص ٣٤٩ من فتح الباري ، وصحيح مسلم كتاب الامارة باب ما أعده الله للمجاهدين جـ ١٣ ص ٢٨ .

(٢) سورة النحل آية / ٦٩ .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الرابع ص ٢١٨٠ باختصار وتصرف.

جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي استطلق بطنه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسقه عسلا فسقاه ثم جاءه فقال : اني سقيته عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال : اسقه عسلا فقال: لقد سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ (١) .

وذكر المؤلف تعليقا على الحديث فقال : ويروعنا في هذا الأثر يقين رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام مابدا واقعا عمليا من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه ،وقد انتهى هذا اليقين - بتصديق الواقع له في النهاية - وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله (٢) .

٣ - كان يقدم الحديث على ماعداه من أقوال الصحابة والتابعين اذا ذكر أقوالهم ومثال ذلك : ماذكره عند تفسير قوله تعالى :

---

(١) عند البخارى بألفاظ مختلفة .
وعند مسلم واللفظ له .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢١٨١ .

(فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم) (١)

حيث يقول : اختلف السلف في تفسير آية الدخان ،فقال بعضهم : انه دخان يوم القيامة ،وقال بعضهم بل هو قد وقع فعلا (٢) واستشهد لذلك بحديثين رجع الثاني منهما فيما بعد ٠

الحديث الأول :

عن مسروق قال : بينما رجل يحدث في كندة فقال : يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماء المنافقين وأبصارهم يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ففزعنا فأتيت ابن مسعود وكان متكئا فغضب فجلس فقال : " من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فان من العلم أن يقول لما يعلم لا أعلم فان الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين " وان قريشا أبطؤا عن الاسلام فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " اللهم اعنى عليهم بسبع كسبع يوسف " فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها (٣) ٠

---

(١) سورة الدخان آية / ١٠ – ١١ ٠

(٢) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٢١٠ ٠

(٣) صحيح البخارى كتاب التفسير باب سورة الروم جـ ٨ ص ٣٩٤ من فتح البارى ٠

- وفى رواية أخرى - فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى مابينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم) قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل يارسول الله استسق الله لمضر فانها هلكت قال : لمضر ؟ انك لجرئ فاستسقى فسقوا فنزلت (انكم عائدون) فلما اصابتهم الرفاهية عادوا الى حالتهم حين اصابتهم الرفاهية فأنزل الله عز وجل (يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون) (١) . قال يعنى يوم بدر .

وعن مسروق عن عبدالله بن مسعود قال : خمس قد مضين اللزام (٢) والروم والبطشة والقمر والدخان .

---

(١) سورة الدخان آية ١٦ .

(٢) ومعنى اللزام اى يوم بدر وفي القاموس المحيط لزام ككتاب الموت والفيصل ج ٤ ص ١٧٧ وسميت بدر بذلك لأنها فصلت بين الحق والباطل ،لذا سميت ايضا بيوم الفرقان في قوله تعالى :(وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) من سورة الانفال آية ٤١ والبطشة الكبرى ايضا كانت يوم بدر وهو ماذكره ابن حجر العسقلاني في فتح البارى في كتاب التفسير باب تفسير سورة الروم ج٨ ص ٣٩٤ ، والترمذى في كتاب التفسير ج ٥ ص ٥٧ والحديث ذكره مؤلف الظلال بتصرف فيه .

والحديث الثاني :

في أنه لم يمضى بعد بل هو من امارات الساعة حيث ورد عن ابى سريحه حذيفه الغفارى قال : اطلع النبى صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : ماتذاكرون ؟ قالوا نذكر الساعة قال : انها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم (١) ٠

ثم ذكر قولا لابن عباس في ذلك : عن ابن أبى مليكه قال غدوت على

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ٢٧ - ٢٨ كتاب الفتن واشراط الساعة ٠

ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال ما نمت الليلة حتى أصبحت قلت لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت ".

يقول ابن كثير ، وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم مع الاحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان ، وغيرهما التى أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن . (١)

والاستاذ سيد - رحمه الله - لم يجمع بين الحديثين باعتبار صحتهما بل تركهما هكذا ، مع أنه من الأفضل ذكر قول النووى رحمه الله فيهما وهو : يحتمل انهما دخانان للجمع بين هذين الأمرين(٢). دخان حدث استجابة لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ودخان لم يحدث وهو من علامات الساعة الكبرى .

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ص ١٣٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٨ ص ٢٧ .

(٤) كان يفسر الآيات في بعض الحالات بمعنى الحديث ، وان لم يشر اليه ـ وهذا جائز عند المحدثين .[١]

ومثال ذلك : ماذكره المؤلف في تفسير صفات المؤمنين الواردة في قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ)[٢] حيث قال : والجماعة المسلمة مسئولة عن أماناتها العامة مسئولة عن عهدها مع الله تعالى وما يترتب على هذا العهد من تبعات والتعبير القرآني هنا يشمل كل أمانة وكل عهد ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون . فهى صفة دائمة لهم في كل حين وما تستقيم حياة الجماعة الا بتأدية الأمانات ورعاية العهود واطمئنان كل من فيها الى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان "[٣]

فقوله هنا : " وما تستقيم حياة الجماعة الا أن تؤدى فيها الأمانات" يقصد به والله اعلم حديث أنس بن مالك قال : " ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم الا قال : " لا إيمان لمن لا أمانة

---

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ـ لابن كثير ـ تأليف أحمد محمد شاكر ص ١٤١ .

(٢) سورة المؤمنون آية / ٨

(٣) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٦ بتصرف .

لــه ، ولا ديــن لمن لا عهــد لــه " (١)

(٥) كان يستعمل منهـج القدماء في تخريـج الحديث حيث يذكـر الكتـب من غير تحديد لموضع الحديث في الكتاب ورقـم الجزء والصفحـة أو الكتاب والباب ومثال ذلك : ماذكـره عند تفسير قوله تعالـى :

---

(١) مسند أحمد جـ ٣ ص ١٣٥ - ١٥٤ وفي مجمع الزوائـد جـ ١ ص ٢٧٨ ، قـال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانـي في الأوسط وفيـه أبو هلال ، وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره ، وللحديـث شواهـد من حديث ابي امامه رفعه : " لا ايمان لمن لا أما نـة لــه " وعن ابن مسعـود رفعه : " لا ايمان لمن لا أمانـة له ، ولادين لمن عهـد لـه , وفيـه راويـان مجهولان : ١ : ٢٧٩ مجمع الزوائـد ٠
وفي رواية ابن عمر مرفوعـا : لا ايمان لمن لا أمانـة لـه ... الحد يـث رواه الطبراني في الأوسط والصغير وقال : تفرد به الحسين بن الحكـم الحبرى : مجمع الزوائـد جـ ٢ ص ٢١ ، وفي رواية عبادة بن الصامـت يرفعـه : لا ايمان لمن لا أمانـة لـه : " الحديث" ، وقال : رواه الطبراني في الكبير واسناده منقطع فلم يسمع اسحاق بن يحيى من جده عبادة : مجمع الزوائـد جـ ٣ ص ٢٣٥٠
وذكر المنذرى رحمه اللـه - زيادة على ما ذكره الهيثمي - أن ابن حبـان رواه في صحيحه الا أنه قال : خطبنـا رسول اللـه صلى الله عليه وسـلم فقال في خطبتـه : فذكـر الحديث جـ ٤ ص ١١ في الترغيب والترهيـب من الحديث الشريف ط دار الفكـر ٠ جـ ١ ص ٢٠٨ من صحيح ابن حبـان كتاب الايمان " باب ذكر خبر يدل على أن المراد بهذه الأخبار نفى الأ مـر عن الشيء للنقص عن الكمال : ط ١ دار الكتب العلمية ٠

(وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَموَتٌ بَل أَحيَآءٌ وَلَكِن لَّا تَشعُرُونَ) [١]

فقال : ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء ؟ انهم أولئك " الذين يقتلون في سبيل الله " في سبيل الله وحده دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية الا الله ٠ في سبيل الحق الذى أنزله ، والمنهج الذى شرعه ، والدين الذى اختاره في هذا السبيل وحده لا في سبيل آخر ولا تحت أى شعار آخر ٠ وفى هذا شدد القرآن وشدد الحديث حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر غير الله ٠ [٢]

ثم ذكر الحديث : عن أبي موسى رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ويقاتل رياء ٠ أى ذلك في سبيل الله ؟ قال : " من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله " [٣] ذكره وعقب عليه بقوله : أخرجه مالك والشيخان ٠ هكذا بالجمع دون تفصيل

---

(١) سورة البقرة آية / ١٥٤

(٢) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ١٤٤ بتصرف ٠

(٣) صحيح البخارى كتاب التوحيد باب قوله تعالى : " ولقد سبقت كلمتنا " جـ ١٣ ص ٣٧١ من فتح البارى ٠
وصحيح مسلم كتاب الامارة باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا جـ ١٣ ص ٤٩ ، والترمذى في فضائل الجهاد باب ماجاء من يقاتل رياء وللدنيا جـ ٣ ص / ١٠٠ ، وقال فيه حسن صحيح ٠ والحديث ليس في موطأ مالك كما نبه على ذلك المؤلف ٠

مع أن رواية البخاري وردت بتقديم كلمة (حمية) ثم (يقاتل شجاعة)
كما أنه لم يذكر رجال الاسناد ويمكن أن نجمل طريقته في ايراد
الأحاديث بما يلي :

(١) كان اذا أخرج الحديث اثنان أو اكثر لا ينسب اللفظ لصاحبه أي أنه
يلتزم التخريج الحرفي لمتن الحديث ، ومثال ذلك :

أ - ما أورده من أحاديث في تفسير قوله تعالى :

(قُل لِمَن مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفسِهِ الرَّحمَةَ لَيَجمَعَنَّكُم إِلَىٰ يَومِ القِيَٰمَةِ لَا رَيبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم فَهُم لَا يُؤمِنُونَ) (١)

حيث قال : أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى الله الخلق - وعند مسلم : لما خلق الله الخلق - كتب في كتاب عنده فوق العرش : " ان رحمتي سبقت غضبي " ، وعند البخاري في رواية أخرى " ان رحمتي غلبت غضبي " (٢) بينما لفظ الامام مسلم : " سبقت رحمتي غضبي " (٣)، ولفظ الامام البخاري : " ان رحمتي تغلب غضبي " (٤) وهو وارد أيضا في

---

(١) سورة الأنعام آية /١٢

(٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ١٠٥٠

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التوبة باب سعة رحمة الله جـ ١٧ ص ٦٨ ٠

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه جـ ١٣ ص ٣٢٥ من فتح الباري ٠

مسلم بنفس اللفظ ، ومن ثم بداية الحديث أيضا عند البخارى بلفظ " لما خلق الله الخلق " وليست بلفظ " لما قضى الله " أما بدايته عند مسلم فبهذين اللفظين .[(١)]

ب - وكذلك في حديث يتعلق بالرحمة قال فيه : أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءا واحدا . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " .[(٢)]

وهذا اللفظ لمسلم[(٣)]، ولفظ البخارى باختلاف يسير عنه جاء التمييز مذكورا في جملة في الحديث على هذا النحو " فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا " كما جاء في لفظ " الخلق " بدلا من " الخلائق " ولفظ " الفرس ، " بدلا من " الدابة " .[(٤)]

(٢) كان في استشهاده بالأحاديث الشريفة لايذكر أسانيد معظم الأحاديث الا قليلا ، ومثال ذلك :

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى في كتاب التوبة باب سعة رحمة الله ج ١٧ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ١٠٥

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى ج ١٧ ص ٦٨ .

(٤) رواه البخارى في كتاب الادب باب جعل الله الرحمة في مائة جزء ج ١٠ ، ص ٦٣٢ من فتح البارى .

أ - عند تفسيره لقوله تعالى (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ ، وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) .[1]

بيّن العقود التى أقرتها الشريعة الاسلامية والتى أبطلتها ثم قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حلف في الاسلام ، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة "[2] رواه احمد ومسلم.[3]

فهذا الحديث علاوة على أنه لم يذكر سنده اقتصر في تخريجه على رواية أحمد ومسلم بينما الحديث موجود في البخارى وغيره .[4]

ب - وعند تفسيره لقوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ).[5]

---

(١) سورة النساء آية / ٣٣

(٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٦٤٧

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب فضائل الصحابة باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه جـ ١٦ ص ٨٢ ، ورواه احمد في مسنده حـ ١ ، ص ١٩٠ ، ٣١٧ .

(٤) رواه البخارى في كتاب الكفالة باب قول الله تعالى (**والذين عقدت أيمنكم**) جـ ٤ ص ٣٨٧ من فتح البارى باختلاف في اللفظ ، وكذلك أبو داود في كتاب الفرائض باب في الحلف جـ٨ ص١٤١ من عون المعبود والترمذى في كتاب السير في باب في الحلف جـ٥ ص ٧٣ وقال فيه : حسن صحيح .

(٥) سورة المؤمنون آية /٦٠ ، ٦١ .

بيّن صفات بعض المؤ منين الذين يشفقون من ربهم خشية وتقوى وذكر أنهم يؤ منون بآياته ولا يشركون به ويأتون من الطاعات ما استطاعوا ولكنهم (يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) لاحساسهم بالتقصير في جانب الله بعد أن بذلوا مافي طوقهم وهو في نظرهم قليل ثم قال : عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يارسول الله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) هو الذى يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل، قال : " لا يا بنت الصديق : ولكنه الذى يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل " وذكر في الهامش أخرجه الترمذي[١]، وعند الرجوع اليه[٢] وجدته لم يعلق على الحديث بشيء كما أنه رواه بلفظ الجمع وليس بصيغة المفرد التى ذكرها المؤلف في الظلال .

جـ - وعند تفسيره لقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِك بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا)[٣]

---

(١) في ظلال القرآ ن المجلد الرابع ص ٢٤٧٢ .

(٢) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة المؤمنين جـ ٥ ص ٩ ، وقد سكت عنه بلفظ : " قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ " قال : " لا يابنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون الا تقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون " سورة المؤمنون آية / ٦١ ، والحديث صحيح كما في السلسلة الصحيحة للألباني رقم ١٦٢ .

(٣) سورة النساء آية/ ٤٨

بين مدى رحمه الله بعباده المؤ منين الذين يقعون في الذنوب ثم يستغفرون الله ويتوبون اليه حيث يغفر الله سبحانه وتعالى لمن يشاء منهم برحمته وعلم منهم صدق توبتهم ثم ذكر حديثا في ذلك وأ ورده بسنده قال : أخرج البخارى ومسلم كلا هما عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن عبد العز يز بن رفيع عن زيد بن وهب عن أبي ذر قال خرجت ليلة من الليالي فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وحده وليس معه انسان قال فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد ، قال : فجعلت أمشى في ظل القمر فالتفت فرآني فقال : " من هذا " فقلت أبو ذر جعلني الله فداك قال : " يا أبا ذر تعال " قال فمشيت معه ساعة فقال لى : " ان المكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من اعطاه الله خيرا فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا " قال فمشيت معه ساعة فقال لى : " اجلس ها هنا " فأجلسني في قاع حوله حجارة فقال لى " اجلس ها هنا حتى ارجع اليك " قال : فانطلق في الحرة[1] حتى لا أراه فلبث عنى حتى اذا طال اللبث ..... ثم اني سمعته وهو مقبل يقول : " وان زنى وان سرق " قال : فلما

---

(١) الحرة هي الأرض الملبسة حجارة سوداء : صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٧ ص ٧٦ ، كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة .
والحرة مكان معروف بالمدينة في الجانب الشمالي منها : فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ١١ ص ٢٢٢ كتاب الرقاق باب المكثرون هم المقلون .

جاء لم أصبر حتى قلت : يانبي الله جعلنى الله فداك من تكلمه في جانب الحرة فاني سمعت أحدا يرجع اليك " هكذا " قال: ذلك جبريل عرض لى جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت " ياجبريل وان سرق وان زنى قال نعم ، قلت وان سرق وان زنى قال : نعم ، وان شرب الخمر " .(١)

وهذا الحديث بسند واحد في البخارى ومسلم (٢)، وأما بالنسبة لمتنه ففيه اختلاف يسير وزيادة ونقص .

أ - اما الاختلاف ففي قوله " فجعل يبثه عن يمينه " بينما الصحيح " فنفخ فيه يمينه (٣) وشماله " وكذلك في قوله : " فانى سمعت أحدا " والصحيح " ماسمعت أحدا " ، وكذلك في قوله : " فلما جاء لم أصبر حتى قلت " فحتى هنا موجودة في البخارى فقط ، أما في رواية مسلم " لم أصبر فقلت " وكذلك قوله " ذلك جبريل " لفظ البخارى فقط أما في مسلم فاللفظ عنده " ذاك جبريل " .

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٦٧٨ .

(٢) البخارى في كتاب الرقاق باب المكثرون هم المقلون جـ ١١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ من فتح البارى وصحيح مسلم في كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة جـ ٧ ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣) " فنفخ " أى ضرب يديه فيه بالعطاء والنفخ الرحى والضرب في صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٧ ص ٧٦ كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة .

ب - أما الزيادة فهي في قوله " من تكلمه في جانب الحرة " فالهاء هنا زائدة ، وكذلك قوله " وان شرب الخمر " فهي زيادة مسلم فقط .[١]

جـ - وأما النقص فهو في قوله " ما سمعت أحدا يرجع اليك شيئا " فكلمة " شيئا " غير موجودة هنا وكذلك في قوله " عرض لي في جانب الحرة " فحرف " في " غير موجود وكذلك قوله : " وان سرق وان زنى " فهي هنا مرتان فقط ، أما في الصحيح فهي مكررة ثلاث مرات .

(٣) وكان أيضا يأخذ ببعض الاحاديث دون أن يذكر لها سندا أو تخريجا فلا يتبين للقارىء درجة هذه الاحاديث ومثاله :

أ - ما أورده في تعقيبه على تفسير قوله تعالى : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) .[٢]

حيث قال "ومن أجل هذا أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها ، وقال : " فمن رغب عن سنتي فليس مني "[٣] فهذا الحديث صحيح في البخاري ومسلم[٤] ، الا أنه لم يشر الى موضعه .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة جـ ٧ ص ٧٦ .
(٢) سورة الحجر آية / ٢٩ .
(٣) المجلد الرابع في ظلال القرآن ص ٢١٣٩ .
(٤) رواه البخارى في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح جـ ٩ ص ٩٠ من فتح البارى ، وصحيح مسلم كتاب النكاح لمن تاقت نفسه اليه جـ ٩ ص ١٧٦ .

ب - ماجاء به عند تفسير قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .(١)

يبين رحمه الله حديث الافك المفترى ويقول : " والذى تولى كبره وقاد حملته واضطلع منه بالنصيب الأوفى كان هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق وحامل لواء الكيد ولقد عرف كيف يختار مقتلا لولا أن الله كان من ورائه محيطا وكان لدينه حافظا ولرسوله عاصما وللجماعة المسلمة راعيا - ولقد روى أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا عائشة رضي الله عنها فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال امرأة بينكم باتت معرجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها .(٢)

وبالبحث عن هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ وانما قال فيه ابن حجر " وفي مرسل سعيد بن جبير وقذفها عبد الله بن أبي فقال ما برئت عائشة من صفوان ولا برئ منها " .(٣)

فالحديث اذن مرسل والمرسل من أقسام الضعيف .

(٤) كما كان رحمه الله يذكر روايات للحديث مما رواها المفسرون في كتبهم - دون الرجوع الى مصادرها ، ومن أمثلة ذلك :

---

(١) سورة النور آية / ١١

(٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٥٠١ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ٣٥٢ .

أ - ما رواه عند تفسير قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) .[1]

حيث قال : وقال بعض الناس : (ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا) لا يحدد عقيدتهم (رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) وبما كانوا عليه من عقيدة وقال أصحاب السلطان في ذلك الأوان (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) والمقصود معبدا على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول صلى الله عليه وسلم " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " .[2]

فهذا الحديث في الصحيحين[3] وغيرهما[4] ، بدون لفظ : " وصالحيهم" حيث انفرد به مسلم[5] في حديث آخر وورد بالمعنى في حديث آخر عند النسائي .[6]

---

(١) سورة الكهف آية / ٢١

(٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٦٤ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٧٨

(٣) البخاري في كتاب الجنائز باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ج ٣ ص ١٦١ من فتح الباري ومسلم في كتاب المساجد باب النهي عن بناء المسجد على القبور ج ٥ ص ١٢ .

(٤) النسائي في كتاب المساجد باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد ج ٢ ص ٤١ ، ومسند احمد ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٥) مسلم في باب النهي عن بناء المسجد على القبور ج ٥ ص ١٣ .

(٦) النسائي ، باب النهي عن اتخاذ القبور ج ٢ ص ٤١ - ٤٢ .

ب - وما رواه عند تفسير قوله تعالى : (مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَٰنِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ) (١)

ارتد عنه ايثارا للحياة الدنيا على الآخرة فرماهم بغضب من الله وبالعذاب العظيم والحرمان من الهداية ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون ..... الى أن قال : واستثنى من ذلك الحكم الدافع من اكره وقلبه مطمئن بالايمان أى من أظهر الكفر بلسانه نجاة لروحه من الهلاك ، وقلبه ثابت على الايمان مرتكن اليه مطمئن به وقد روى أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر .... روى ابن جرير باسناده عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا - فشكا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " كيف تجد قلبك قال : مطمئنا بالايمان ، قال النبى صلى الله

---

(١) سورة النحل آية / ١٠٦ - ١٠٨ .

عليه وسلم : " ان عادوا فعد " ، فكانت رخصة في مثل هذا الحال .[١]

وهذا الحديث لم أجده في الكتب الستة ولا في مسند أحمد ، أو الدارمي ، أو الموطأ ، وانما هو في تفسير ابن جرير .[٢]

كما ذكره ابن كثير[٣]، وعزاه الى البيهقي وقال : رواه البيهقي بأبسط من ذلك ، لكنه نبه على أن في السند عطية[٤] العوفى وهو ضعيف ، وكذلك الألوسي في روح المعاني[٥] نبه على هذه الرواية وصدّرها بكلمة روى تنبيها على ضعف سندها ، لكن الحاكم رواه بسند ليس فيه عطية العوفى وجزم بصحته .[٦]

* * *

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢١٩٦

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير ج ١٤ ص ١٢٢

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٧ ، وانظر السنن الكبرى للبيهقى ج ٨ ص ٢٠٨ ،

(٤) تقريب التهذيب لابن حجر ج ٢ ص ٢٤ ط ٢

(٥) روح المعاني للألوسي ج ١٤ ص ٢٣٧ .

(٦) المستدرك للحاكم ، كتاب التفسير باب حكاية أسر عمار بن ياسر بيد الكفار ج ٢ ص ٣٥٧ ، وقال فيه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي " في التلخيص " على ذلك .

استعانتــه بأقوال الصحابــة في التفسير :

أقــوال الصحابــة رضوان الله عليهم تعتبر من المصادر الأساسية المهمة للتفسير وله الدرجة الثالثة فيها فمن أراد أن يفسر كتاب الله أو يوضح بعض كلماته التى تعتبر غامضة على بعض الناس وخاصة في العصر الحديث ـ نتيجة ابتعادهم عن القرآن الكريم ، وعن اللغة العربية الفصحى ـ كان من الضرورى جدا له أن يستعين بأقوال الصحابة اذا لم يجد المعنى في القرآن نفسه أو في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ما أخذ به مؤلف الظلال في تفسيره لبعض السور ومن أمثلة ذلك :

(١) ما أورده في تفسير قوله تعالى : (وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا) .[1]

حيث قال : والقرآن ينهى عن التبذير ، والتبذير ـ كما يفسره ابن مسعود وابن عباس ـ الانفاق من غير حق . وقال مجاهد : لو انفق مدا في غير حق كان مبذرا .[2]

فليس المراد بالتبذير في الآية الكثرة والقلة في الانفاق ، انما

(١) سورة الاسراء آية / ٢٦ ـ ٢٨ .

(٢) هذا القول في تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٦ والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي جـ ٤ ص ١٧٧ .

هو موضع الانفاق ، ومن ثم كان المبذرون اخوان الشياطين لأنهم ينفقون في الباطل ، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية فهم رفقاء الشياطين وصحابهم (وكان الشيطان لربه كفورا) لا يؤدى حق النعمة كذلك اخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين .(١)

(٢) وماجاء المؤلف به من أقوال الصحابة عند تفسير قوله تعالى :

(قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) .(٢)

حيث أتى بحديث رواه البخارى عن طاووس أنه سمع ابن عباس رضي الله عنه وهو يسأل عن قوله تعالى : **(إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ)** فقال سعيد بن جبير " قربى آل محمد " فقال ابن عباس : " عجبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من بطون قريش الا كان له فيهم قرابة ، فقال الا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة " .(٣)

ويكون المعنى على هذا : الا أن تكفوا أذاكم مراعاة للقرابة وتسمعوا وتلينوا لما أهديكم اليه فيكون هذا هو الأجر الذى أطلبه منكم

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٢٢ .

(٢) سورة الشورى آية / ٢٣ .

(٣) رواه البخارى في كتاب التفسير ، باب قوله : " الا المودة في القربى " ج ٨ ص ٤٣٣ من فتح البارى . " سورة حم عسق ".

لا ســواه[1] وهذا القول الأول معنى (**إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**) ٠

القول الثاني :

إن القربى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم : أى لا أسألكم أجرا الا أن تودوا قرابتي وأهل بيتى ٠ وهذا القول قول علي بن الحسين وعمرو بن شعيب وسعيد بن جبير ، وقول ثان لابن عباس ٠[2]

القول الثالث :

إن القربى هي التقرب الى الله والتودد اليه بالعمل الصالح : والمعنى الا أن يتوددوا الى الله عز وجل ويتقربوا اليه بطاعته ٠ وهذا القول ورد عن الحسن وقتادة ومجاهد[3] فالقربى على القول الأول **القرابة بين الرسول وقومه** وعلى القول الثاني القرابة التى هي بمعنى الأقارب وعلى الثالث هي فعل من القرب **وطاعة الله** ٠ وأولى الأقوال بالصواب ماذهب اليه ابن عباس رضي الله عنه - **وهو ما أختاره** مؤلف الظلال - رحمه الله - وهو : " قل لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش الا أن تودوني في قرابتي منكم وتصلوا الرحم التى بيني وبينكم ٠ وقد ذكر ابن جرير - رحمه الله - تعليلا وجيها لهذا الاختيار حيث

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣١٥٤ ٠

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢٥ ص ١٦ ، ١٧ وتفسير الفخر الرازى المجلد ١٤ ص ١٦٥ ، وتفسير القرطبي المجلد السابع ص ٥٨٤١ ٠

(٣) تفسير الطبرى جـ ٢٥ ص ١٧ ، وتفسير الفخر الرازى المجلد ١٤ ص ١٦٦ ، وتفسير القرطبي المجلد السابع ص ٥٨٤٢ ٠

قال : " وانما قلت هذا التأويل أولى بتأويل الآية لدخول (في) في قوله ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال " الا أن تودوا قرابتي " أو " تقربوا الى الله " لم يكن لدخول (في) في الكلام في هذا الموضع وجه معروف ، ولكان في التنزيل " مودة القربي " وان عنى به الأمر بمودة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو (الا المودة بالقربي أو ذا القربي) وان عنى به التودد والتقرب ، وفى دخول (في) في الكلام أوضح دليل على أن معناه الا مودتى في قرابتي منكم " .(١)

(٣) ومن الأمثلة على استعانته بأقوال الصحابة ما ذكره المؤلف في تفسيره قوله تعالى :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ .(٢)

حيث قال : قال ابن كثير في التفسير ، قال شعبة بن الحجاج عن سماك ابن خالد بن عرعرة أنه سمع عليا رضي الله عنه وشعبة أيضا عن القاسم بن بزة عن أبي الطفيل أنه سمع عليا رضي الله عنه وقد صعد منبر الكوفة فقال : " لا تسألوني عن آية في كتاب الله

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢٥ ص ١٧ .
(٢) سورة الذاريات آية / ١ : ٦ .

تعالى ولا عن سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أنبأتكم بذلك فقام ابن الكواء فقال يا أمير المؤ منين ما معنى قوله تعالى : (وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا) قال على رضي الله عنه الريح ، قال : (فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا) قال رضي الله عنه السحاب قال : (فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا) قال رضي الله عنه السفن ، قال فالمقسمات أمرا • قال رضي الله عنه: الملائكة " • (١) •

وقال صاحب الظلال : أقسم الله سبحانه بالرياح التى تذرو ما تذروه من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الانسان وما يجهل وبالسحاب الحاملات وقرا(٢) من الماء يسوقها الله به الى حيث يشاء ، وبالسفن الجاريات في يسر على سطح الماء بقدرته ، وبما أودع الماء وأودع السفن ، وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير ، ثم بالملائكة المقسمات أمرا تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته فتفصل في الشؤون المختصة وتقسم الأمور في الكون بحسبها •(٣)

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق الأربع على (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) •

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ ورواه الحاكم في مستدركه وقال فيه : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه : كتاب التفسير ج ٢ ص ٤٦٧ ووافقه الذهبي •

(٢) وقرأ : التى تحمل اثقال الامطار التى فيها حياة البشر : والوقر : ثقل الحمل على الظهر أو في البطن : التفسير الواضح للدكتور محمد حجازى ج ٢٦ ص ٨٣ •

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٣٧٥•

فنرى أنه استشهد - رحمه الله - بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير بعض الآيات القرآنية[١] وليست واردة داخل أي حديث[٢] كما نلاحظ أنه أوردها غير مسندة لروايتها وغير مخرجة[٣]، وربما اتبع طريقة ابن كثير في تفسيره فهو أحيانا يورد أقوال الصحابة رضي الله عنهم غير مسندة وغير مخرجة .

* * *

---

(١) وليست كلها فهو لم يتبع طريقة ابن جرير مثلا في تفسيره لجميع الآيات القرآنية بالمأثور .

(٢) سواء أكان هذا الحديث صحيحا أم حسنا أم ضعيفا .

(٣) أي لم يذكر من أي كتب التخريج - ككتاب البخاري ومسلم أو الترمذي - أخذ هذه الأقوال .

اهتمامه بسبب النزول

اهتم مؤلف الظلال - رحمه الله - بأسباب النزول على اعتبار أنها نوع من أنواع التفسير بالمأثور ومتعلقة به ، فكان يأتي بروايات أغلبها صحيحة ان لم تكن حسنة ، وكان رحمه الله يذكر - ابتداء مطلع السورة المراد تفسيرها ، ثم يورد غالبا تعليقا مناسبا يعطي القارىء فكرة عن الموضوع الذى تدور حوله السورة وبعدها يقسمه الى مقاطع ويجعل لكل مقطع جزءا ثم يبدأ في تفسيره للآيات ، واذا كان لهذه الآيات أو لمطلع السورة أسباب للنزول ذكرها وله رحمه الله طريقته في ايراد الأسباب اذا كان يورد السبب في أول السورة ان تعلق بها أو قبل بعض الآيات في أثناء السورة ان كان متصلا بهذه الآيات فقط كما نلحظ أنه في بعض الحالات كان يورد السبب مسندا ومخرجا وبنفس ألفاظه في المرجع الذى أخذ منه وفي أحيان أخرى كان يورده مخرجا وغير مسند ، وفي بعض الحالات كان يأتي بمعنى النص الوارد في السبب من غير اشارة لذكر مرجعه ، وكان رحمه الله اذا تكرر السبب مع عدة آيات يورد السبب الراجح في موضع واحد مفصلا مع الاشارة الى مواضعه الأخرى بايجاز ، وبالنسبة لمروياته في أسباب النزول نلحظ أن اغلبها كان صحيحا وبعضها كان حسنا أو ضعيفا .

وهذه الطريقة التى اتبعها المؤلف في الظلال تحتاج الى أمثلة تشهد لها وتدلل عليها وذلك ما سأحاوله في هذا المبحث باذن الله تعالى .

أولا : ايراد السبب في أول السورة :

ومثاله :

(١) ما ورد في سورة المجادلة : يقول بعد ذكره الآيات الأولى الأربع من السورة : كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول : أنت علي كظهر أمي فتحرم عليه ولا تطلق منه ، وتبقى هكذا ، لاهي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ، ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر ، وكان هذا طرفا من العنت الذى تلاقيه المرأة في الجاهلية ، فلما كان الاسلام وقعت هذه الحادثة التى تشير اليها هذه الآيات ولم يكن قد شرع حكم للظهار .

قال الامام احمد : حدثنا سعد بن ابراهيم ويعقوب قالا : حدثنا أبي حدثنا محمد بن اسحاق ، حد ثني معمر بن عبد الله بن حنظلة ، عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت فدخل عليّ يوما فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت علي كظهر أمي ، قالت : ثم خرج فجلس في نادى قومه ساعة ثم دخل علي فاذا هو يريدني عن نفسي قالت : قلت كلا والذى نفس خويلة بيده لا تخلص الي ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت فواثبني فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى قالت : ثم خرجت الى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى

جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه فذكرت له مالقيت منه ، وجعلت أشكو اليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه " قالت : فو الله ما برحت حتى نزل في القرآ ن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماكان يتغشاه ثم سرى عنه فقال لي " ياخويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا " ثم قرأ علي : (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ) الى قوله : (وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ٠ قالت : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " مريه فليعتق رقبة " قالت : فقلت يارسول الله ماعنده ما يعتق ٠ قال : " فليصم شهرين متتابعين " قالت : فقلت : والله انه لشيخ ماله من صيام ٠ قال " فليطعم ستين مسكينا وسقا[1] من تمر " ٠ قالت : فقلت : والله يارسول الله ماذاك عنده قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فانا سنعينه بعرق[2]

(١) الوسق : بالفتح ستون صاعا وهو ثلا ثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز وأربعمائة وثمانون رطلا عند أهل العراق على اختلا فهم في مقدار الصاع والمدّ والأصل في الوسق الحمل ٠ وكل شيء وسقته فقد حملته ، و الوسق أيضا : ضم الشيء الى الشيء : النهاية في غريب الحديث والأثر جـ ٥ ص ١٨٥ ، ونفس المعنى في لسان العرب جـ ٣ ص ٩٢٦ ٠

(٢) العرق : قال ابن الأثير : وهو زنبيل منسوج من نسائج الخوص وكل شيء مضفور فهو عرق وعرقه بفتح الراء فيهما : لسان العرب جـ ٢ ص ٧٥٢ ، وهو سعة خمسة عشر صاعا أو ستة عشر صاعا : الترمذي في كفارة الظهار جـ ٢ ص ٣٣٥ ٠

من تمـــر " قالت : فقلت : يارسول الله وأنا سأعينه بعرق آخـــر قال : " قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابـن عمك خيرا " قالت : ففعلت . (١) ، (٢)

فنرى أنه بعد أن أعطانا المؤلف الملخص العام لموضوع السورة ذكر سبب النزول في صدرها قبل البدء في التفسير والايضاح ، وكما نعلم أن ذكر السبب يهيئ الأذهان للاستيعاب ويعين على فهم المعنى ، والملاحظ أن سبب النزول هنا مهّد له المؤلف وأورده في اول السورة مسندا مع ذكر مرجعه .

ثانيا : ايراد السبب في ثنايا السورة مع الآيات المتعلق بها :

ومثاله :

ما ورد في سورة مريم عند تفسير قوله تعالى :

(أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)(٣)

---

(١) مسند أحمد جـ ٦ ص ٤١٠ - ٤١١ ، ورواه أبو داود في كتاب الطلاق باب حكم الظهار جـ ٢ ص ٢٦٣ ، وأيضا الترمذي في الطلاق باب كفارة الظهار جـ ٢ ص ٣٣٥ ، وقال فيه : هذا حديث حسن .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٥٠٥ .

(٣) سورة مريم آية / ٧٧ : ٨٠ .

حيث قال : ورد في سبب نزول هذه الآيات - باسناده - عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلا قينا " حدادا "(١) وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته اتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حتى تموت وتبعث ، قال : فاني اذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك فأنزل الله (**أفرءيت الذى كفر بـاَيتنـا وقال لأوتين مالاً وولداً**) (٢)

وبدأ في تفسيره للآيات بعد ذلك قائلا : وقولة العاصى بن وائل نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث والقرآ ن يعجب من أمره ويستنكر ادعاءه : (**أطلع الغيب**) فهو يعرف ما هنالك (**أم اتخذ عند الرحمن عهداً**) فهو واثق من تحققه ثم يعقب (**كلا**) وهي لفظة نفي وزجر • كلا لم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا انما هو يكفر ويسخر فالتهديد اذن والوعيد هو اللائق لتأديب الكافرين السافرين (**كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً**) سنكتب ما يقول فنسجله عليه ليوم الحساب فلا ينسى ولا يقبل المغالطة (**ونرثه مايقول**) أى نأخذ

---

(١) القين : الحدّاد يذهب به الى معنى العبد لأنه في العمل والصنعة بمعنى العبد قال الأ زهرى " رحمه الله " كل عمل بالحديد قين عند العرب : تاج العروس جـ ٩ ص ٣١٦ •

(٢) رواه البخارى بلفظ مختلف في كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم جـ ٨ ص ٣٢٧ من فتح البارى ومسلم في كتاب صفة القيامة الجنة والنار باب سؤال اليهود النبي عليه الصلاة والسلام عن الروح جـ ١٧ ص ١٣٨ ، والترمذى كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم جـ ٤ ص ٣٧٩ وقال فيه حديث حسن صحيح • ومسند احمد جـ ٥ ص ١١٠ •

ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت المورث (وَيَأْتِينَا فَرْدًا) لا مال معه ولا ولد ولا نصير ولا سند مجردا ضعيفا وحيدا فريدا .[1]

والمؤلف في هذا المثال - كما رأينا - أورد سبب النزول في ثنايا السورة - أي وسطها - مع الآيات المتعلق بها بدون اشارة الى مرجعه أو ذكر لسنده .

ثالثا : ايراد السبب مسندا ومخرجا مع الحكم عليه :

ومثاله :

ماذكره المؤلف من سبب للنزول بدون تمهيد أو تعليق مسبق .

يقول رحمه الله : ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها ووقت نزولها ماسبق ذكره عن سورة المزمل ، فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة ، وايذاء المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم .

قال البخاري : حدثنا يحيي ، حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى ابن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ فقال : (يَآأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) قلت : يقولون : (اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله وقلت له مثل ما قلت ، فقال جابر لا أحدثك الا ما حدثنا

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣١٩ - ٢٣٢٠ .

به رسول الله صلى الله عليه وسلم " جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت أمامي فلم أر شيئا ونظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت : " دثروني وصبوا علي ماء باردا" قال فدثروني وصبوا علي ماء باردا قال فنزلت ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّر قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّر ﴾ (١)، (٢) وقد رواه مسلم من طريق عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : فبينا أنا أمشي اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى قبل السماء فاذا الملك الذى جاء ني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثيت(٣) منه حتى هويت(٤)

---

(١) سورة المدثر آية / ١ : ٣ ٠

(٢) رواه البخارى في كتاب التفسير باب تفسير سورة المدثر ج ٨ ص ٥٢٠ من فتح البارى ٠

(٣) جثيت : تأتي بمعنى جلست على ركبتي خوفا منه لأنه ورد أن جثا يجثو ويجثي جثوا ، وجثيا : جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها : لسان العرب ج ١ ص ٤٠٢ ٠

(٤) هويت : بمعنى سقطت الى الأرض ، لأن معنى هوى الشيء يهوى : سقط من فوق الى اسفل كسقوط السهم وغيره : تاج العروس ج ١٠ ص ٤١٥ ٠

الى الأرض فجئت أهلي فقلت : زملوني[١] فدثروني[٢] فأنزل الله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ٠٠٠٠) الى (وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ) قال أبو سلمة : والرجز الأوثان ثم حمى الوحي وتتابع[٣]، ورواه البخارى من هذا الوجه ايضا ٠ وهذا لفظ البخارى ٠[٤]

وعلق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله : " وهذا السياق هو المحفوظ وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله " فاذا الملك الذى جاء ني بحراء " وهو جبريل حين أتاه بقوله :

(خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ٠ ثم انه حصل بعد هذا

---

(١) زملوني : أى لفوني وغطوني لأن المزمل أصله المتزمل والتاء تدغم في الزاى لقربها منها يقال تزمل فلان اذا تلفف بثيابه وكل شيء لفف فقد زمل : لسان العرب جـ ٢ ص ٤٦ ، ويقال : تزمل بثوبه اذا التف فيه : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير جـ ٢ ص٣١٣ ٠

(٢) فدثروني : أى غطوني بما أدفأ به : النهاية في غريب الحديث والأثر جـ ٢ ص ١٠٠ وتدثر بالثوب : أى اشتمل به داخلا فيه ، وقد تدثر فلان أى تلفف في الدثار : لسان العرب جـ ١ ص ٩٤٦ ٠

(٣) رواه مسلم في كتاب الايمان باب بدء الوحى جـ ٢ ص ٢٠٧ بشرح النووى ٠

(٤) رواه البخارى في كتاب التفسير باب قوله تعالى والرجز فاهجر جـ ٨ ص ٥٢١ من فتح البارى ٠

فترة ثم نزل الملك بعد هذا ، ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة " . [(١)، (٢)]

فهذه رواية وهناك رواية أخرى : قال الطبراني حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار حدثنا الحسن بن بشر البجلي حدثنا المعافي بن عمران عن ابراهيم بن يزيد سمعت ابن أبي مليكة يقول سمعت ابن عباس يقول : ان الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما فلما أكلوا منه ، قال ما تقولون في هذا الرجل ، فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن ، وقال بعضهم شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر ، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى :

(قُم فَأَنذِر وَرَبَّكَ فَكَبِّر وَثِيَابَكَ فَطَهِّر وَالرُّجْزَ فَاهجُر وَلَا تَمنُن تَستَكثِر وَلِرَبِّكَ فَاصبِر) . [(٣)]

وبالنظر في أسباب النزول التي أوردها المؤلف نرى أنه قد أتى بها مسندة برواتها ومراجعها غير أنه لم يمهد

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج ٤ ص ٤٤٠ .
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٦ ص ٣٧٥١ .
(٣) سورة المدثر آية / ١ : ٧

لهـــا هنا كما أنه كان من الأفضل الميل الى رأى ابن كثير ورأى السيوطـي[١] أيضـا : في أن هذه الروايـات هي أسباب لنزول ســورة المدثـــر دون غيرهـــا تبين أنهـا من أوائل السور التى أنزلت بتمامها وكمالهـــا وقد سبقهـــا في النزول اقرأ باسم ربك الذى خلـق ٠٠٠٠٠٠ الآيـــات ".[٢]

رابعـا : ايراد السبب مخرجـا وغيز مسند :

ومثا لـــه :

ما جاء به عند تفسير قوله تعا لى :

(مِّنَ الْمُؤْمِنِيـــنَ رِجَالٌ صَدَقُـــوا مَا عَـهَـــدُوا اللَّهَ عَلَيـهِ فَمِنْهُـــم مَّن قَضَـى نَحبَــهُ وَمِنهُـم مَّن يَنتَظِـــرُ وما بَدَّلُوا تَبدِيـــلًا).[٣]

حيث قال : روى الامام أحمـــد[٤] باسناده عن ثابت قال : عمـــي أنس بن النضـــر رضي اللـه عنه - سميت به - لم يشهد مع رســـول الله صلى الله عليـه وسلم يوم بدر فشق عليـه وقال : أول مشهـــد شهده رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم غبت عنه لئن أراني اللــــه تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم ليريــــن اللـه عز وجـل ما أصنع ، قال : فهـــاب[٥] أن يقول غيرهـــا ،

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ١ ص ٣٢

(٢) سورة العلق آية / ١ وما بعدهـــا الى آية (٥)

(٣) سورة الاحزاب آية / ٢٣

(٤) مسند أحمد جـ ٣ ص ١٩٤ ٠

(٥) هاب الشيء يهـا به اذا خافه واذا وقره واذا عظمه : لسان العرب جـ ٣ ص ٨٥١

فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واهاً لريح الجنة أجده دون أحد . قال فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه ، قال : فوجد في جسده بضع وثمانون ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته :- عمتي الربيع ابنة النضر - فما عرفت أخي الا ببنانه قال : فنزلت هذه الآية :

(مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .... الخ)

قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنه .[1]

وفي هذا المثال نراه أورد لنا سبب النزول مخرجا - وان لم يكن تخريجا كاملا .

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨٤٤ وقال فيه :" رواه مسلم والترمذى والنسائى " ففي مسلم في كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد جـ ١٣ ص ٤٧ - ٤٨ ، وفي الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة الاحزاب جـ ٥ ص ٢٨ ، وقال فيه هذا حديث حسن صحيح ، والأثر لايوجد في سنن النسائي المجتبى - ولعله في سنن النسائي الكبرى ، وقد عزا الأثر الى النسائي السيوطي في الدر المنثور ١٩٠/٥ ، والأثر في صحيح البخارى من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه - انظر فتح البارى بشرح البخارى : ٦/ ١٦ كتاب الجهاد باب قول الله تعالى : من المؤمنين رجال .. الآية كما رواه البخارى في المغازى باب غزوة أحد ، وفي كتاب التفسير باب فمنهم من قضى نحبه . مقتصرا على سبب النزول جـ ٨ ص ٣٩٨ من فتح البارى.

خامساً : ايراد السبب بمعناه دون لفظه :

ومثاله :

ماجاء في سورة "الضحى" فبعد أن ذكر المؤلف موضوع السورة ومضمونها قال : ورد في روايات كثيرة[١] أن الوحي فتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأ عليه جبريل عليه السلام فقال المشركون ودع محمداً ربه فأنزل الله تعالى هذه السورة .

ومع أن النص يختلف عما رواه البخارى[٢] الا أن ذكره بهذه الصورة جائز . كما أن ذكره في موضعه - كما ذكرت - يعين على تفهم المعنى واستيعابه عند تفسير الآيات وشرحها خاصة اذا علمنا أنه قال معلقاً بعد ذكره لسبب النزول : فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب وبقي للهاجرة[٣] وحده بلا زاد وبلا رى وبغير ماعتاد من رائحة

---

(١) أذكر منها رواية الترمذى عن جندب البجلي قال : وأبطا عليه جبريل فقال المشركون قد ودع محمد فأنزل الله تبارك وتعالى **(ما ودعك ربك وما قلى)** وقوله هذا حديث حسن صحيح سنن الترمذى جـ ٥ ص ١١٢ ، كتاب التفسير باب سورة والضحي . وانظر لباب النقول للسيوطي ص ٢٣٠

(٢) ورواه البخارى في كتاب التفسير باب قوله تعالى " والضحى " جـ ٨ ص ٥٤٥ من فتح البارى وفيه يقول عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فجاءت امرأة فقالت يا محمد اني لأرجوا أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا فأنزل الله عز وجل **(والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى)** .

(٣) الهاجرة قد تكون بمعنى الهجر ، والهجر من الهجران : ===

الحبيب الودود ، وهو أمر فوق الاحتمال .... عندئذ نزلت هذه السورة بما تحمل من الود والحب والرحمة والايناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين . (١)

ونلاحظ أن المؤلف في هذا المثال أشار الى سبب النزول بروايات عامة بلا تحديد لمرجع أو سند أو تحديد للألفاظ الواردة في سبب النزول ، الا أنه ذكره بعد أن مهد له .

سادسا : موقفه من تكرار السبب لعدة آيات :

ومثاله :

قوله عند تفسير قوله تعالى :

(وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) (٢)

=== وهو ترك ما يلزمك تعاهده : لسان العرب جـ ٣ ص ٧٧٢ .

وقد تكون في معنى الهجير والهجيرة ، والهجر والهاجرة وهو : نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر : لسان العرب جـ ٣ ص ٧٧٣ ، فعلى المعنى الأول يكون الكلام : وبقي وحيدا متروكا ممن كان يتعاهده ويرعاه وعلى المعنى الثاني يكون الكلام : وبقي للهاجرة أى عند اشتداد الحرارة والشمس وحده بلا زاد وبلا رى .

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩٢٥ بتصرف يسير .

(٢) سورة لقمان آية / ١٥ .

قال المؤلف رحمه الله : روى أن هذه الآية نزلت هي وآية العنكبوت[١]، وآية الأحقاف[٢]، كذلك في سعد بن أبي وقاص وأمه، وروى أنها نزلت في سعد بن مالك، ورواه الطبراني في كتاب العشرة[٣] بإسناده عن داود بن أبي هند ..... والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص[٤] وهو الأرجح.[٥]

ولا نقف عند سبب النزول فالآية عامة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .... وفي صلة الوالدين لفضلهما وبرهما وفضل

---

(١) سورة العنكبوت آية/ ٨ : قال تعالى :(وَوَصَّيْنَا الإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إلىّ مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون).

(٢) سورة الاحقاف آية / ١٥ : قال تعالى :(وَوَصَّيْنَا الإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إذا بلغ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

(٣) المقصود به عشرة النساء أشار اليه الذهبي في سير أعلام النبلاء ج ١٦ ص ١٢٨.

(٤) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل سعد بن أبي وقاص ج ١٥ ص ١٨٥ بشرح النووى.

(٥) قال وهو الأرجح اعتمادا على أن سعد بن مالك ليس هو سعد بن أبى وقاص والصحيح أنه هو كما أثبت ذلك ابن حجر في " الاصابة " ج ٣ ص ٨٣ وسنرى تفصيلا لذلك أكثر بعد قليل.

الله سابق ونعمه سابغة على سائر خلقه ... فحمد الله هو الواجب الأول والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة ويؤكدها في كل مناسبة ، وفي صور شتى لتستقر في وجدان المؤمن واضحة حاسمة لا شبهة فيها ولا غموض[1]، والمؤلف رحمه الله لم يذكر أى سبب عند تفسير آية الاحقاف وانما ذكر السبب الراجح هنا بالجزم عند تفسير آية العنكبوت التى ورد قوله تعالى :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[2]

فقال : روى الترمذى عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمنه بنت أبي سفيان وكان بارا بامه فقالت له ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع الى ما كنت عليه أو أموت فتتعير بذلك أبد الدهر يقال يا قاتل أمه . ثم انها مكثت أربعين يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب فجاء سعد اليها وقال : يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني فكلي ان شئت - وان شئت فلا تأكلي فلما أيست منه أكلت

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٨٩ بتصرف .

(٢) سورة العنكبوت آية / ٨ .

وشربت[١] ، فأنزل اليه هذه الآية آمرا بالبر بالوالدين والاحسان اليهما وعدم طاعتهما في الشرك .[٢]

وقد لاحظت هنا أنه حينما وردت روايتان لآية واحدة كسبب نزول رجح المؤلف الصحيحة منهما - دون تحقيق - واعتبر سعد بن أبي وقاص هو صاحب القصة ولكن النووى رحمه الله حقق ذلك فذكر أن سعد بن أبي وقاص هو سعد بن مالك[٣] كما أكد ابن حجر

---

(١) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة العنكبوت جـ ٥ ص ٢٢ بلفظ : أن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال : أنزلت في أربع آيات فذكر قصته وقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر .قال فكانوا اذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت هذه الآية :(**ووصينا الانسٰن بوٰلديه حسنا**) وقال فيه : هذا حديث حسن صحيح ومعنى شجروا فاها : أى أدخلوا في شجره عودا ففتحوه ، والشجر : مفرج الفم وقيل هو ما انفتح من منطبق الفم : لسان العرب جـ ٢ ص : ٢٧٢ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ص ٢٧٢٣ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الفضائل باب فضل سعد بن أبي وقاص جـ ١٥ ص ١٨٥ .

ما ذهب اليه النووى .[١]

* * *

(١) تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني جـ ١ ص ٢٨٩ تحقيق وتعليق عبد الوهاب عبد اللطيف ، وفي الاصابة : ٣/ ٨٣ ما يفيد أن سعد بن مالك هو سعد بن أبي وقاص .
قال ابن حجر : سعد بن مالك أبو اسحاق بن أبي وقاص أحد العشرة وآخرهم موتا .

طريقـــة المؤلـف في عرضه للواقع التاريخــي :

كان المؤلف - رحمه الله - في بعض الأحيان يذكر في ظلاله الواقع التاريخي لبعض الآيات القرآنية وفق منهج معين تفرد به دون غيره من المفسرين .

ومن المعلوم أن الاحاطة بالواقع التاريخي الذى أشارت اليه الآيات يساعد على فهم المراد من الآية ، ويمكن المسلم من الاستفادة وأخذ العبرة اذ من الحقائق المسلمة أن عصر نزول القرآن الكريم كان عصرا ظهرت فيه العديد من السنن الالهية في حياة الناس ولذلك كان ربط الآية بالأحداث التى نزلت فيها خير معين على الاتعاظ والتذكر ، وكان المؤلف - رحمه الله - يتبع طريقة في عرضه للواقع التاريخي الذى نزلت فيه الآيات وهي :

أولا : يجمل الواقع التاريخي للمجتمع وقت النزول .

ثانيا : يؤيد هذا الواقع بالاحداث المروية في كتب السيرة والتاريخ الدالة على وجود هذا الواقع .

ثالثا : يربط هذا الواقع بالآية أوبالآيات .

رابعا : يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة الى الله تعالى .

وهذا المنهج يتضح بالأمثلة التى سأذكرها وأعلق عليها بما يوضح المراد .

المثــال الأول :

ما جاء في سورة الأحزاب حيث ذكر الآيات من قوله تعالى :

(وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) . (١)

ثم وجدناه يجمل لنا الواقع التاريخي للمجتمع وقت النزول فيقول :

" وهذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث من الاحداث الضخمة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وفي تاريخ الجماعة المسلمة ويصف موقفا من مواقف الامتحان العسيرة وهو غزوة الأحزاب في السنة الرابعة أو الخامسة (٢) للهجرة الامتحان لهذه الجماعة الناشئة ولكل قيمها وتصوراتها ومن تدبر هذا النص القرآني وطريقة عرضه للحادث وأسلوبه في الوصف والتعقيب ووقوفه أمام بعض المشاهد والحوادث ، والحركات والخوالج ، وابرازه للقيم والسنن ......

من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربى هذه الأمة بالأحداث والقرآن في آن ، ولكي ندرك طريقة القرآن الخاصة في العرض والتوجيه فاننا قبل البدء في شرح النص القرآني نثبت رواية

---

(١) سورة الاحزاب من آية / ٩ : ٢٧

(٢) في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٤ : أنها وقعت في شوال في السنة الخامسة للهجرة تحقيق مصطفى السقا - ابراهيم الابيارى - عبد الحفيظ شلبي . وفي==

الحادث كما عرضتها كتب السيرة مع الاختصار المناسب " .(١)

أقول ، وأنا أيضا سأختصر بعضا منه - قال سيد قطب فعن محمد بن اسحاق قال باسناده عن جماعة انه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضرى وأخوه كنانة ، وحي بن أخطب ونفر من بني النضير ، ونفر من بنى وائل هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا حتى قدموا على قريش في مكة فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لهم قريش يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الأول : والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ .

قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه ، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا).(٢)

== البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٩٤ : أن الغزوة وقعت أيضا في السنة الخامسة للهجرة .

(١) من ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨٣٢

(٢) سورة النساء آية / ٥١ : ٥٥

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وخرجت غطفان ، وخرجت جماعة قبيلة أشجع ٠ (١)

" فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل معه المسلمون فدأب فيه ودأبوا " ٠ (٢)

وأضاف المؤلف قائلا : " ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال (٣) من رومة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى (٤)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام تقديم وتعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد ج ٣ ص ١٢٨ باختصار ٠

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٢٨ ٠

(٣) مكان بأسفل المدينة حيث تجتمع سيول العتيق وبطحان وقناه : معالم بلاد الحجاز لعاتق البلادى ج ٢ ص ٢٩ ٠

(٤) مكان جنوب رابغ على عشرين كيلو فيه مرفأ صغير لصيادى السمك ومخفر لسلاح الحدود ، معالم بلاد الحجاز ج ٢ ص ٢٥٨ ، ونقمى في الظلال مشكلة باسكان القاف ، لكن الصواب فتحها كما في معجم البلدان حيث قال هي بالتحريك والقصر من النقمة وهي العقوبة على وزن جمزى وذنب نقمة موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب ٠ معجم البلدان ٠

الى جانب أحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع[1] في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام[2]. فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر لم تكن بينه وبينهم حرب الا الرمي بالنبل والحصار[3] فلما اشتد على الناس الحال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينه بن حصن والى الحارث ابن عوف - وهما قائدا غطفان - يفاوضهما في الصلح ، وبعث الى سعد بن معاذ " سيد الأوس " وسعد بن عبادة " سيد الخزرج " فذكر ذلك لهما - أى أنه صالح القوم على اعطائهم ثلث ثمار المدينة - واستثنا هما فيه فقالا له : " يارسول الله أمرا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : " بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك الا لأنني رأيت العرب

---

(١) هو جبل بسوق المدينة / معجم معالم بلاد الحجاز ج ٤ ص ٢٢١ .

(٢) وهي الحصون وأكثر ما يسمى بهذا الاسم حصون المدينة : معالم بلاد الحجاز ج ١ ص ١١٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٣٣ تقديم وضبط طه عبد الرؤوف سعد.

قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم[1] من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما ، فرد سعد بن معاذ : " والله مالنا بهذا - أى الصلح - من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فأنت وذاك " فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا مافيها من الكتاب ثم قال : " ليجهدوا علينا " [2]، [3] وعاش الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أياما في خوف وقلق وشدة لتظاهر الاعداء عليهم حيث أتوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، ثم كان قدر الله جل وعلا بقدوم نعيم بن مسعود الغطفاني الى رسول الله صلى الله عليه و سلم مؤ منا وعرضه المساعدة ، فطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يخدع الاعداء من اليهود والمشركين

---

(١) أى تواثبوا عليكم وضايقوكم ، لأنه يقال هم يتكالبون على كذا ، أى يتواثبون عليه ، وكالب الرجل مكالبة وكلابا : ضايقه مضايقة الكلاب بعضها بعضا عند المهارشة : لسان العرب لابن منظور م/ ٣ ص ٢٨٣ .

(٢) يقصد الحرب لأن الجهد : ماجهد الانسان من مرض أو أمر شاق ، والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء : لسان العرب ج ١ ص ٥٢٠ - ٥٢١ ، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٣٣ - ١٣٤ بتصرف واختصار .

(٣) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨٣٤ .

المتحزبين[1] بخدعة توقع بينهم وأجاز عليه ماسيقوله من كلام،[2] وأراد الله أن تسرى عليهم الخدعة فاختلفوا فيما بينهم وطلبت اليهود من الاحزاب تأخير الحرب الى ما بعد السبت ، ولكن بشرط أن يعطوهم رهنا من رجالهم الأشراف حتى يقاتلوا معهم محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه[3] فكان هذا الاختلاف والتأخير لحكمة ... حيث ارسل الله عليهم ريحا شديدة في ليلة شاتية باردة فهدمت خيامهم وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم ، وفعلت فيهم جنود الله - المرئية وغيرها - الأفاعيل فامتلأت قلوبهم رعبا وخوفا وساد الهرج والمرج والصياح[4] فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فدعا حذيفة بن اليمان فبعثه اليهم لينظر ما فعله القوم

---

(١) وهذه الخدعة أوصى فيها نعيم بن مسعود ليهود بني قريظة أن قريشا وغطفان سيخلون بمعاهدتهم معهم في قتال المؤمنين فلابد من مطالبتهم ببعض اشرافهم رهينة لدى اليهود - حتى يوفوا بعهدهم ثم انه ذهب لقريش أولا ثم غطفان ثانيا ، وأوصى لهم مخالفة اليهود لعهدهم وأنهم سيطالبونهم بأشرافهم رهينة ، ثم يغدرون بهم ويدفعونهم للمؤمنين ثم ينضم اليهود لصف المؤمنين ضدهم : السيرة النبوية لابن هشام جـ ٣ ص ١٣٧ - ١٣٩ تعليق طه عبد الرؤوف بتصرف واختصار .

(٢) المغازى لمحمد بن عمر الواقدى جـ ٢ ص ٤٨١ تحقيق د . مارسدن جونس وانظر فتح البارى شرح صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة الخندق وهي الاحزاب جـ ٧ ص ٣٠٢ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص١١٢ .

(٤) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ، الطبعة الثانية ص ٢٣٧ .

ليلا فأمتثل أمره عليه الصلاة والسلام ، ثم دعا ليخبره أن القوم قرروا الرحيل ... وصدق الله العظيم حيث قال :

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِم لَم يَنَالُوا خَيراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤمِنِينَ الِقتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً) (١)

وبعد ذكر المؤلف للواقع التاريخي ـ لغزوة الخندق ـ مؤيدا بما جاء في كتب السيرة والتاريخ وجدناه يربط هذا الواقع بما جاء في الآيات الكريمة حيث قال : ان النص القرآني يترك اسماء الأشخاص والتفصيلات الدقيقة ليصور نماذج البشر وانماط الطباع وليصور القيم الثابتة والسنن الباقية بحيث لا تنتهي بانتهاء الحادث ولا تنقطع بذهاب الاشخاص بل تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ، ولكل قبيل ، كما أن النص القرآني يحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الاحداث والاشخاص ويظهر تدبيره ـ جل وعلا ـ اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب ،(٢) مع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها وشهدوا أحداثها فانه كان يزيدهم بها خبرا ، ويكشف لهم من جوانبها مالم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها ويلقى الأضواء على خفايا النفوس وأسرار القلوب ومخبآت الضمائر ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في اعماق الصدور.(٣)

---

(١) سورة الاحزاب آية / ٢٥

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ص ٢٨٣٥ ـ ٢٨٣٦ باختصار وتصرف يسير .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ص ٢٨٣٦ بتصرف .

كما وجدنا المؤلف - أخيرا - يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة الى الله فيقول : " ان النص القرآني معد للعمل - لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب . ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ . معد للعمل في النفس البشرية اطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهة في الآماد الطويلة ، والبيئات المتنوعة بنفس القوة التى عمل بها في الجماعة الأولى " .[1]

فتراه في هذا المثال استوفى النقاط الأربع - التى ذكرتها سابقا - في منهجه لعرض الواقع التاريخي .

المثال الثاني :

ماجاء في تفسيره لسورة البلد عند قوله تعالى :

(فَلا اقتَحَمَ العَقَبَةَ وَمآ أَدرَىٰكَ مَا العَقَبَةُ فَكُّ رقبةٍ أو إطعَٰمٌ فِي يَومٍ ذِي مَسغَبةٍ يَتِيمًا ذَا مَقرَبَةٍ أو مِسكِينًا ذَا مَترَبَةٍ ثُمَّ كَانَ من الذين ءامَنُوا وَتَوَاصَوا بِالصَّبرِ وَتَوَاصَوا بِالمَرحَمَةِ) .[2]

حيث بدأ في ايضاح ما تضمنته الآيات مركزا على الواقع التاريخي السائد المتعلق بها ثم مستشهدا على ذلك من كتب السيرة .

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨٣٦

(٢) سورة البلد آية / ١٠ - ١٢ .

قال رحمه الله :

" هذه هي العقبة التى يقتحمها الانسان - الا من استعان بالايمان - (١)

هذه هي العقبة التى تقف بينه وبين الجنة ٠ لو تخطاها لوصل

وتصويرها كذلك حافز قوى ، واستجاشة للقلب البشرى ، وتحريك

له ليقتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين

هذا الكسب الضخم (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) ففيه تحضيض ودفع

وترغيب ٠

ثم تفخيم لهذا الشأن العظيم (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ) انه ليس

تضخيم العقبة ولكنه تعظيم شأنها عند الله ليحفز به الانسان الى

اقتحامها وتخطيطها مهما تتطلب من جهد ومن كبد (٢) : فالكبد

واقع واقع وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم

عما يكابده ولايذهب ضياعا وهو واقع واقع على كل حال ٠

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذى كانت البيئة الخاصة

التى تواجهها الدعوة في أمس الحاجة اليه ٠ فك الرقاب ، واطعام

الطعام وخاصة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة ، وينتهى بالأمر

الذى لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص وتواجهه النفوس جميعا

---

(١) الاستعانة لاتكون الا بالله وحده ٠

(٢) الكبد : الشدة والمشقة ، ويقال في كبد : أى انه خلق يعالج ويكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة - ويقال في كبد : أى خلق منتصبا يمشى على رجليه : لسان العرب لابن منظور جـ ٣ ص ٢١٠ ٠

وهي تتخطى العقبة الى النجاة ، " ثم كان من الذين آ منوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة " وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها وأن العتق هو الاستقلال بهذا [1]، وأيا ماكان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة ٠

وقد نزل هذا النص والاسلام في مكة محاصر وليست له دولة تقوم على شريعته وكان الرق عاما في الجزيرة العربية وفي العالم من حولها ، وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الاطلاق ، فلما أن أسلم بعضهم كعمار بن ياسر وأسرته ، وبلال بن رباح ، وصهيب وغيرهم - رضي الله عنهم - أشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاه وأسلموهم الى تعذيب لا يطاق فلم يكن الخلاص الا بتحريرهم بشرائهم من سادتهم وكان أبو بكر - رضى الله عنه - هو السابق كعادته

---

(١) لم يشر الى من أورد هذا المعنى ، وانما ذكره الألوسي ج ١٠ ص ١٧٥ في روح المعاني حيث ذكر حديثا أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٤ ص ٢٩٩ ، ورواه البيهقي في سننه ج ١٠ ص ٢٧٣ عن البراء بن عازب أن اعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله علمنى عملا يدخلني الجنة قال : " اعتق النسمة وفك الرقبة " ٠ قال : أوليستا بواحدة قال : " لا ان عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في عتقها " قال الألوسي : " ومن الفك بهذا المعنى : اعطاء المكاتب ما يصرفه في جهة فكاك نفسه ٠ ولكن ما وجدته في كتب التفسير الاخرى أن فك الرقبة بمعنى العتق فقط ، وبمعنى تخليص النفس ===

حيث يلبى في ثبات وطمأنينة واستقامة .[1]

وقال ايضا مستشهدا على هذا الوضع التاريخي من كتب السيرة قال ابن اسحاق : وكان بلال مولى أبي بكر - رضي الله عنهما - لبعض بني جمح عبدا رقيقا وكان صادق الاسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول : أحد احد حتى مر به أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يوما وهم يصنعون ذلك به فرأى أن يبادل أمية بن خلف بغلام عنده على دينه وهو أقوى وأجلد من بلال فقبل أمية فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالا واعتقه ، ثم اعتق معه على الاسلام قبل ان يهاجر الى المدينة ست رقاب بلال سابعهم .

وقال ابن اسحاق : ان أبا قحافة قال لأبي بكر : يابني اني أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك اذا فعلت ما فعلت اعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه : " يا أبت اني انما أريد ما أريد لله ".[2]

=== باجتناب المعاصي وامتثال الأوامر ، انظر تفسير الطبرى ج ٣ ص ١٢٩، تفسير القرطبي ج ٨ ص ٧١٥٨ ، أحكام القرآن لابن العربي ج ٤ ص ١٩٣٩ ، فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ ، وتفسير الدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص ٣٥٤ .

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩١٢ باختصار وتصرف يسير .

(٢) سيرة ابن هشام : ١/ ٣١٩ .

ويعقب المؤلف على ذلك بما يفيد أن أبا بكر رضي الله عنه كان يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية[1] !! لله وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله .[2]

وأخيرا نراه يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة الى الله تعالى حيث يقول عند تفسير قوله تعالى : (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوا بِالصَّبرِ وَتَوَاصَوا بِالمَرحَمَةِ)[3] ثم : هنا ليست للتراخى الزمنى ، وانما هي للتراخي المعنوى باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقا والاعلى أفقا فاذا كان الصبر هو العنصر الضرورى للايمان بصفة عامة ولاقتحام العقبة بصفة خاصة ، فالتواصى به درجة اعلى من درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة وتواصيها على معنى الصبر وتعاونها على تكاليف الايمان ، حيث يوصى بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ويقوى بعضها بعضا فلا تنهزم .. فواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت ولايكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ولايكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

---

(١) العانية : الاسيرة الخاضعة الرقيقة لأن العاني : الاسير والعاني : الخاضع والعاني : العبد : لسان العرب جـ ٢ ص ٩١١ .

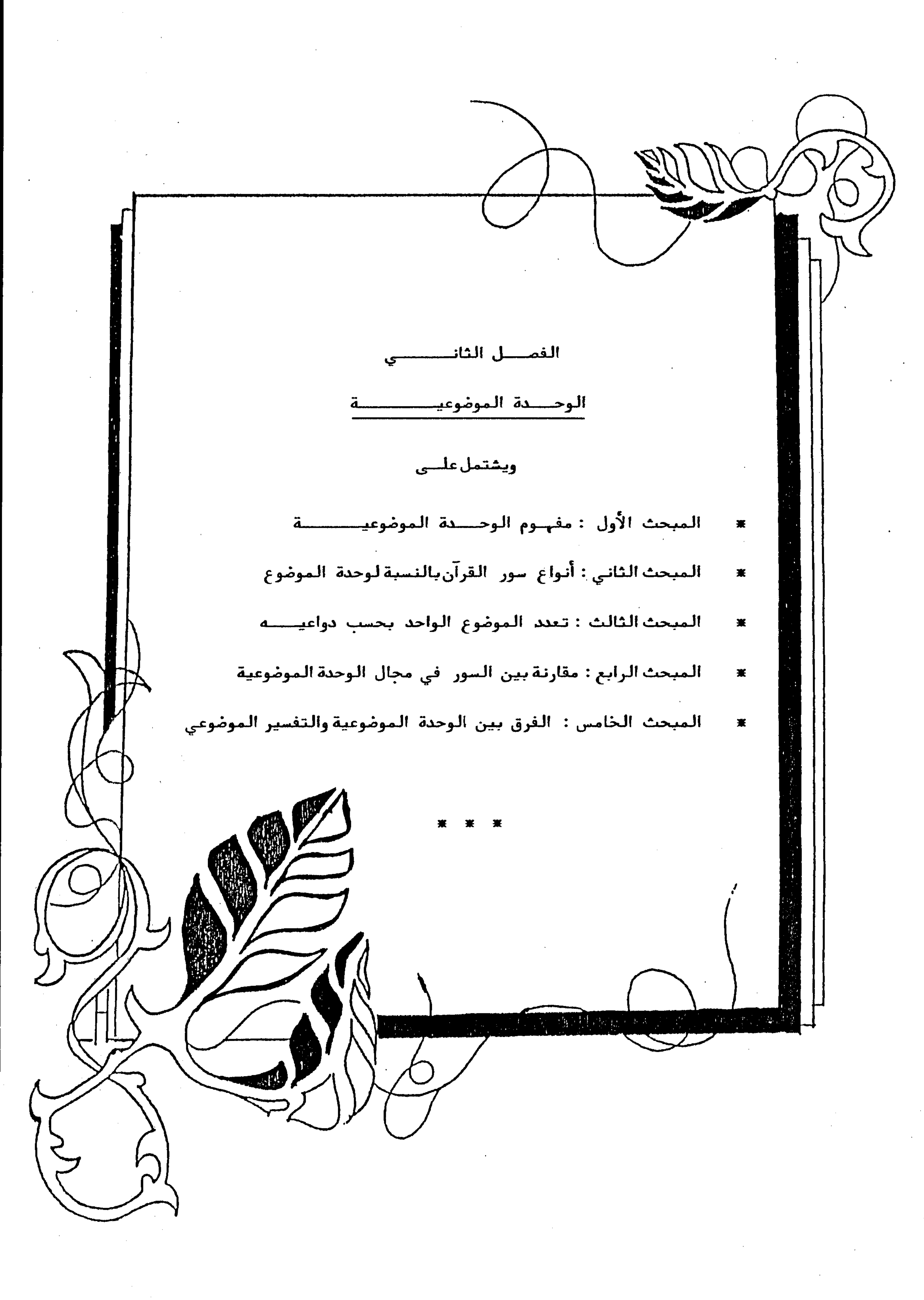
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩١٣ بتصرف .

(٣) سورة البلد آية / ١٧ .

وكذلك التواصي بالمرحمة فهو أمر زائد على المرحمة ، انه اشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، واتخاذه واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته يتعارف عليه الجميع ويتعاون عليه الجميع " . (١)

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩١٣ باختصار وتصرف يسير .



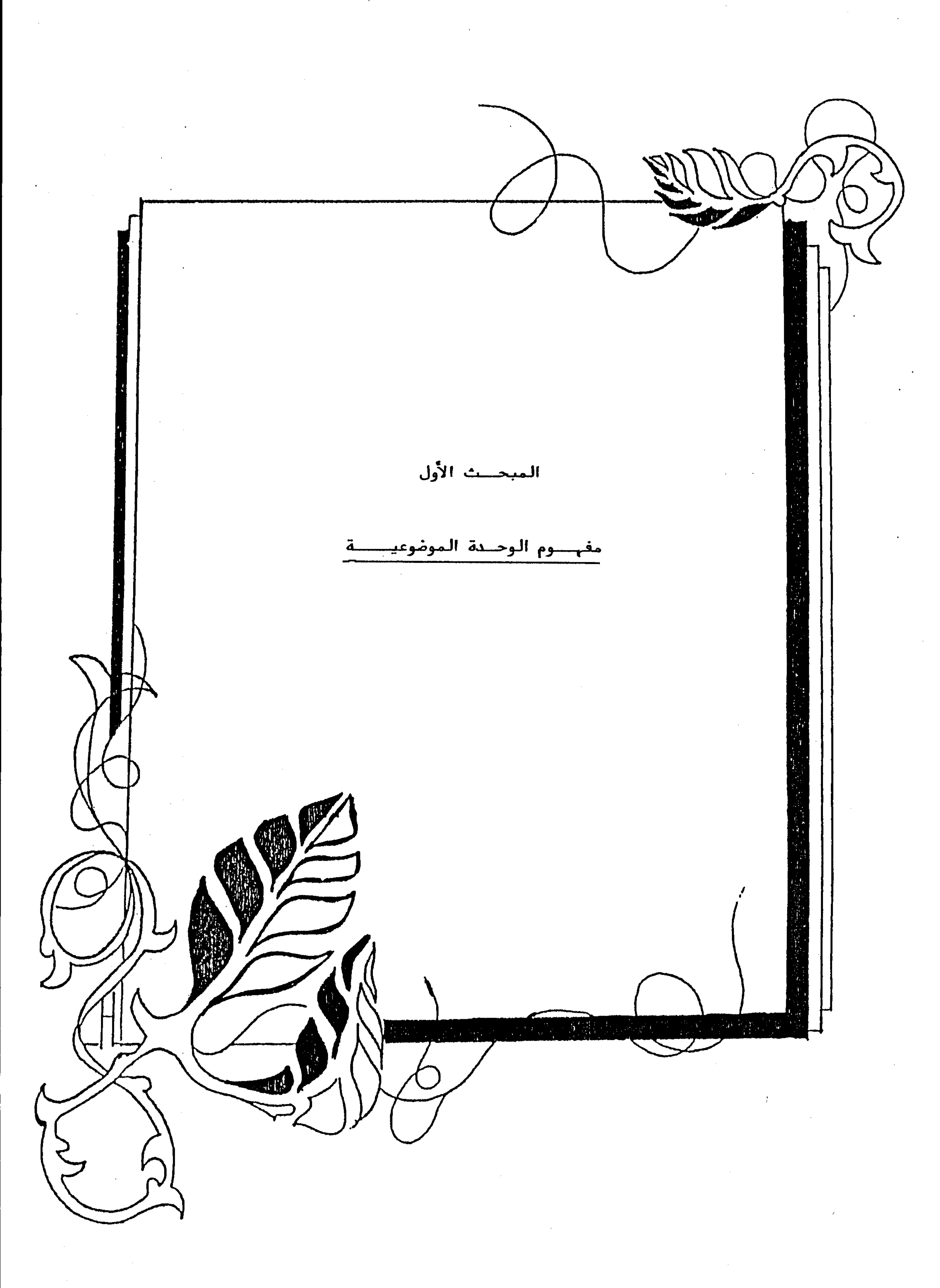
الفصل الثاني

الوحدة الموضوعية

ويشتمل على

* المبحث الأول : مفهوم الوحدة الموضوعية
* المبحث الثاني : أنواع سور القرآن بالنسبة لوحدة الموضوع
* المبحث الثالث : تعدد الموضوع الواحد بحسب دواعيه
* المبحث الرابع : مقارنة بين السور في مجال الوحدة الموضوعية
* المبحث الخامس : الفرق بين الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي

* * *



المبحـــث الأول

مفهـــوم الوحـــدة الموضوعيـــــة

الفصل الثانـــي

الوحـــدة الموضوعيـــــــــة

* المبحث الا ول : مفهـوم الوحدة الموضوعيـة :

* معنى الوحدة في اللغـــة :

قال سيبويـه : الوحدة في معنى التوحـــــد ،وتوحـــد برأيـه تفرد بـه.[1]

وقال ابن سيده : ورجـل أَحَدٌ ووحَدٌ ووحِدٌ ووحْدٌ ووحِيدٌ ، ومتوحـد أي : منفَـرِدٌ .[2]

وذكر الراغب الاصفهانى أن الوحدة الانفرادية والواحـد في الحقيقة هـو الشيء الذى لا جزء لـه البتـة ، ثم يطلق على كل موجــود .[3]

* معنى الموضوعيـة في اللغـة :

قال في لسان العرب : الوضع ضد الرفع ، وضعـه يضعـه وضعا وموضوعا .[4]

وذكر الراغب : أن الوضع أعم من الحــط ، واستعمل في القرآ ن الكريـــم على عدة معان ، ومن أمثلة ذلك :

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، المجلد الثالث : ص ٨٨٨

(٢) لسان العرب ، لابن منظور المجلد الثالث ٠ ص ٨٨٧

(٣) المفردات للراغب الاصفهانى ٠ ص ٥١٤ ٠

(٤) لسان العرب المجلد الثالث ٠ ص ٩٤١ ٠

(١) قوله تعالى : (وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ)[١] بمعنى انها خلقت ووجدت .

(٢) وقوله : (إِنَّ أَوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)[٢] بمعنى بنى للناس للعبادة.

(٣) وقوله :(وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُم)[٣] بمعنى حملوكم على الاسراع في السير . (٤)

أما الوحدة الموضوعية باعتبارها مركبا وضعيا فمعناها : اتحاد الموضوع الذى ذكر متناثرا وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف بل يؤلف وحدة موضوعية كاملة . كما نقول بعبارة أخرى وحده الموضوع .

اما الوحدة الموضوعية في القرآ ن الكريم فالمراد منها : " البحث عن القضايا الخاصة التى عرض لها القرآ ن الكريم في سوره المختلفة ليظهر مافيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذى نبحثه لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية في القرآ ن الكريم ". (٥)

وعليه فتكون الوحدة الموضوعية في السورة :

" هى البحث عن الهدف الواحد الذى عرضت له كل سورة من سور القرآ ن الكريم ومدى ارتباطه بأجزاء السورة وموضوعاتها الاخرى " - من جدل الى قصص الى تشريع الى وصف - فايجاد الوشائج التى تربط

---

(١) سورة الرحمن آ ية / ١٠

(٢) سورة آل عمران آية / ٩٦

(٣) سورة التوبة آ ية / ٤٧

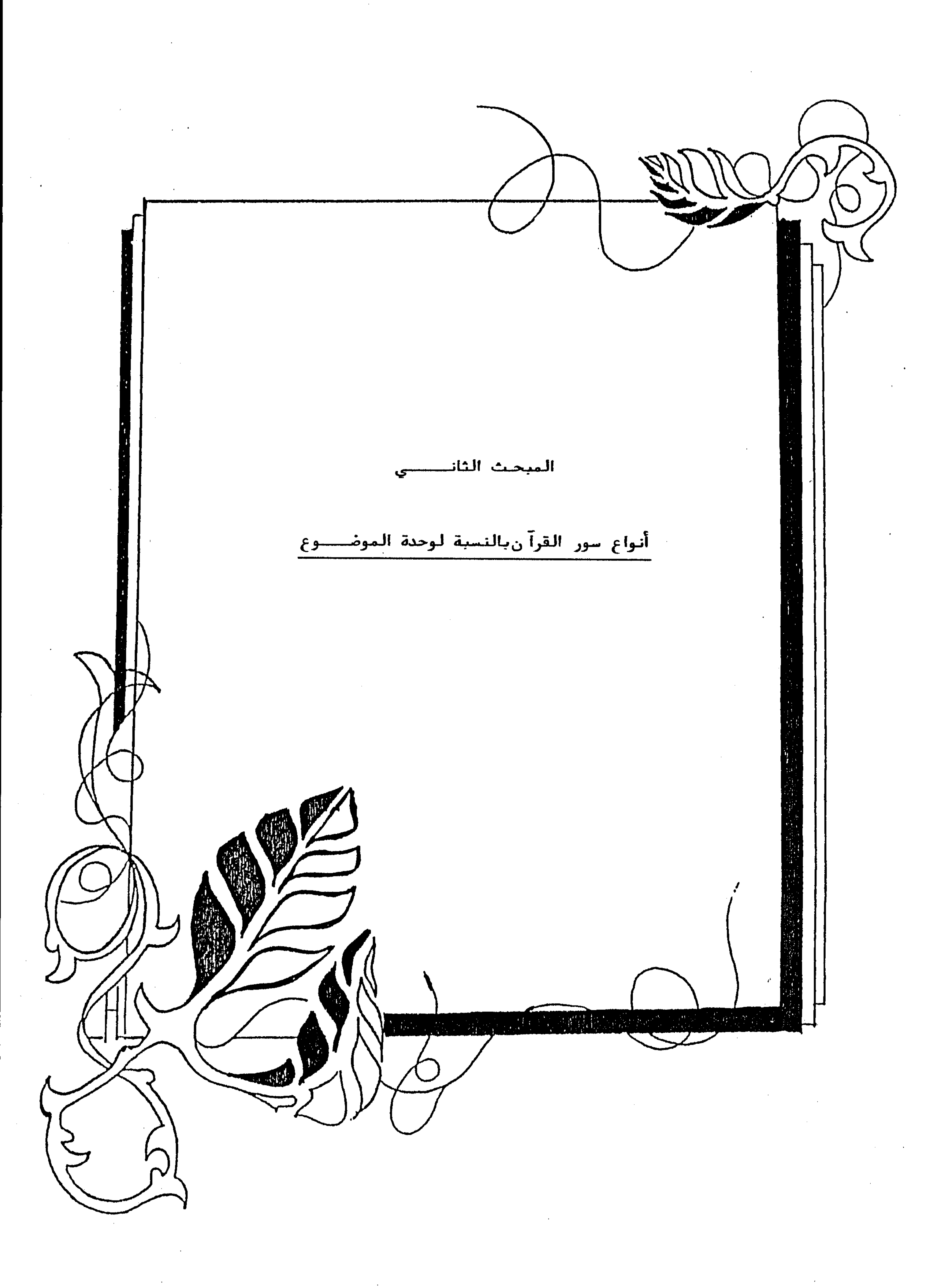
(٤) المفردات للراغب الاصفهانى : ص ٥٢٥ - ٥٢٦

(٥) الوحدة الموضوعية في القرآ ن الكريم للدكتور محمد حجازى : ص ٣٣ - ٣٤ .

بين موضوعات السورة من أحكام ومبادىء وما تذكره القصص ، ومشاهد والخروج من ذلك كله الى هدف واحد يجمع بينها هو الوحدة الموضوعية للسورة ٠

أما ربط السورة - أى سورة - بهدفها مع السور التى قبلها بأهدافها والسور التى بعدها أيضا بأهدافها فهو ما نطلق عليه : " الوحدة الموضوعية الكبرى للقرآن الكريم " حيث ترتبط هذه الاهداف بعضها ببعض ويصدق بعضها بعضا ، ونصل في النهاية الى عبادة الله وحده لا شريك له وامتثال أمره واجتناب نهيه ٠

* * *



المبحث الثانـــــي

أنواع سور القرآن بالنسبة لوحدة الموضــــوع

* المبحث الثاني : أنواع سور القرآن بالنسبة لوحدة الموضوع :

من المعروف أن القرآن الكريم كتاب الله العزيز كان - وما زال - سورا محكمات وكل سورة مكونة من عدد من الآيات أقصرها ثلاث آيات وأطولها يزيد على الثمانين بعد المائتين[(١)] وأغلب السور وان جمعت بين آيات مختلفة النزول مكانا وزمانا لكنها تهدف الى غرض واحد أو تعالج موضوعا معينا له في الغالب مقدمات ونتائج فمثلا سورة البقرة تناولت الاحكام بالتفصيل ، سوورة النساء تناولت ما يتعلق بالنساء ، وسور الانعام والرعد وابراهيم والنحل ، ويس في العقيدة وأصول الايمان ، وسور الاعراف وهود ويوسف في قصص الانبياء ، وسورة الرحمن في بيان النعم على الانس والجن ، وسورة الحزاب تناولت بيت النبوة ، و سورة التكوير تحدثت عن يوم القيامة ٠ [(٢)]

وهكذا جميع السور ٠

ثم ان السور المكية[(٣)] تكاد تجتمع حول موضوعات معينة مثل :

(١) الدعوة الى العقيدة وأصول الايمان ، وتصوير الجنة والنار ٠

(٢) مجادلة المشركين بضرب أبلغ الامثال واتيانهم بكل دليل وتسفيه أحلامهم وبيان ما هم فيه من ضلال ٠

---

(١) سورة البقرة آية / ٢٨٦

(٢) باختصار من كتاب ايجاز البيان في سور القرآن لمحمد على الصابونى ص ١٦ ، ٢٤ ، ٥٧ ، ٢٨١ ٠

(٣) لتعريف المكى والمدنى راجع مناهل العرفان ج ١ ص ١٨٦ والبرهان ج ١ ص ١٨٧ ٠

(٣) شرح أصول الاخلاق الحميدة والدعوة الى التمسك بها والاستقامة على الخير .

(٤) بيان قصص الانبياء والامم الغابرة للاتعاظ وأخذ العبرة .

وكذلك الامر بالنسبة للسور المدنية فهى تكاد تتحد موضوعاتها في الآتى :

(١) التحدث عن تفاصيل أحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية والحربية .

(٢) مجادلة أهل الكتاب في عقائدهم الباطلة وبيان جناياتهم على الحق ودعوتهم الى عدم الغلو في دينهم .

(٣) بيان أحوال المنافقين وصفاتهم . (١)

والملاحظ أن سور القرآن من حيث وحدة الغرض أو تعدده نوعان :

* **النوع الاول :**

اقتصر على غرض واحد أو موضوع واحد وأغلب ذلك في المفصل وأمثلته كثيرة منها :

أ - سورة المسد التى يقول فيها تبارك وتعالى : (**تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدِ**) . فنرى أن غرضها بيان هلاك عدوّى الله ورسوله : " أبى لهب وزوجته " الذى حاول هو

---

(١) مميزات المكى والمدنى بتصرف من مناهل العرفان جـ ١ ص ١٩٥ - ١٩٧ والمدخل لدراسة القرآن لمحمد أبى شهبة ص ٢٢٨ - ٢٣٢ ومباحث في علوم القرآن لصبحى الصالح ص ١٨٢ / ١٨٣ .

هو وزوجته بشتى الطرق افساد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وصد الناس عن دين الله .

وقد بيّن ذلك الاستاذ سيد قطب في الظلال فذكر الحديث الذى يعتبر سببا لنزول السورة فقال : ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الاول للدعوة . (١)

أخرج البخارى باسناده عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج الى البطحاء (٢) ، فصعد الجبل فنادى "ياصباحاه " فاجتمعت اليه قريش فقال : " أرأيتم ان حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ : قالوا : نعم ، قال : " فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا تبا لك ، فأنزل الله عز وجل تبت يدا أبى لهب الى آخرها . (٣)

ثم بدأ في تفسير السورة بقوله :

(تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ) والتباب الهلاك والبوار والقطع " وتبت " الاولى دعاء وتب تقرير لوقوع هذا الدعاء ففى آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق وتنتهى المعركة ويسدل الستار . (٤)

---

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٩٩

(٢) البطحاء : الحصى الصغار والمراد الحصى اللين في بطن المسيل يعنى بطحاء مكة وهو مسيل واديها : النهاية في غريب الحديث جـ ١ ص ١٣٤ .

(٣) رواه البخارى في كتاب التفسير باب تفسير سورة تبت جـ ٨ ص ٥٦٧ من فتح البارى ، وعين الواحدى الجبل بأنه الصفا في رواية اخرى في كتاب اسباب النزول ص ٣٠٩ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٤٠٠٠

وهناك ملحوظة ذكرها الخازن في تفسيره حيث قال : فان قلت : لم كناه وفي التكنية تشريف وتكرمة ؟ فالجواب من وجوه : أحدها : أنه كان مشتهرا بالكنية دون الاسم فلو ذكره باسمه لم يعرف ، والثاني : أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه الى الكنية لما فيه من الشرك - لان العزى صنم فلم تضف العبودية الى صنم .

الثالث : أنه لما كان من أهل النار ومآله الى النار ، والنار ذات لهب وافقت حاله كنيته وكان جديرا بأن يذكر بها .(١)

وأكمل الاستاذ سيد قطب تفسير السورة بقوله : فأما الذى يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان : (مَآ أغنَى عَنهُ مَالُه وَمَا كَسَبَ) لقد تبت يداه ، وقد يراد نفسه كلها لان العرب تعبر ببعض الشيء عن كله .(٢) وهلكتا وتب هو وهلك - فعبر بالماضي لتحقيق وقوعه(٣) - فلم يغن عنه ولم يذفع عنه ماحل به من التباب والهلاك وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال ولا ماكسب من الارباح والجاه(٤) ، وهذا حكم الله فيه في الدنيا ، أما في الآخرة فانه (سَيَصلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ) أي ذات توقد واشتعال .... فيذكر

---

(١) تفسير الخازن جـ ٤ ص ٣١٧

(٢) فتح القدير للشوكاني جـ ٥ ص ٥١١

(٣) تفسير البيضاوى مع حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٤٠٩

(٤) فتح القدير للشوكاني جـ ٥ ص ٥١٢ .

اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وايحاء بتوقدها وتلهبها التى سيصليه الله فيها ٠

(**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**) أى وستصلى هذه النار معه امرأته - ولم يقل زوجه لتحقيرها - حالة كونها حمالة للحطب أى أنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب جهنم ، أو أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيّرت بالبخل[(١)]، أو أنها حمالة الخطايا والذنوب بمعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم وحمل زوجها على ايذائه أو أنها حمالة حزمة الشوك والحسك[(٢)]، فانها كانت تحملها فتنشرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ [(٣)]

(**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**) أى في عنقها حبل من مسد - أى فُتِل فَتْلًا شديدا - من الحبال ، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون تخسيسا بحالها[(٤)]. قال المؤلف رحمه الله هذا الحبل اما أن تشد هي به في النار أو تشد به الحطب الذى ستحمله ، وهذا على المعنى الحقيقى ان كان المراد هو الشوك

---

(١) تفسير ابى السعود جـ ٥ ص ٥٨٩

(٢) الحسك : هو شوك في عشبة تضرب الى الصفرة ، يسمى الحسك ،مدحرج لايكاد أحد يمشي فيه ، اذا يبس ، الا أحد في رجليه خف أو نعل : تاج العروس جـ٧ص١١٩

(٣) تفسير البضاوى مع حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٤١٠

(٤) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ٥٨٩

أو المعنى المجازى ان كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر ، والسعى بالاذى والوقيعة .(١)

ب - سورة الفيل ، التي يقول جل وعلا فيها : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

فهى تتحدث عن قصة أصحاب الفيل ، وكيف أهلكهم الله بظلمهم وحمى بيته الحرام من تسلطهم وطغيانهم .... وفي ذلك أعظم العظة والعبرة لا هل مكة بدفع أعدائهم عنهم ، وكون ذلك الحدث في العام الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ارهاصا(٢) عظيما دالا على نبوته عليه الصلاة والسلام .

ولقد قال مؤلف الظلال فيها :

تشير هذه السورة الى حادث مستفيض الشهرة في حياة الجزيرة العربية قبل البعثة عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون ملتقى النور الاخير ، ومحضن العقيدة الجديدة ، والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية في أرجاء الارض ، واقرار الهدى والحق والخير فيها .

---

(١) في ظلال القرآن م ٦ ص ٤٠٠٠ بتصرف يسير .

(٢) الارهاص : الاثبات ، يقال أرهص الشيء ، اذا أثبته وأسسه ومنه ارهاص النبوة : تاج العروس للزبيدى ج ٤ ص ٤٠٠ فكأن ذلك الحدث مقدمة للنبوة وايذان بها ويثبتها ويمهد لها .

ثم استطرد المؤلف في التعليق على الاقوال الواردة في قصة أصحاب الفيل ، وبعدها بدأ في التفسير بقوله : **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)** ؟ وهو سؤال للتعجب من الحادث والتنبيه الى دلالته العظيمة فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ • يقولون حدث كذا عام الفيل ، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات ، والمشهور أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الفيل ذاته ، ولعل ذلك من بدائع الموافقات الالهية المقدرة • (١)

وذكر أبو السعود في تفسيره : " أما تعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه فكان لتهويل الحادثة والايذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظيم قدرة الله تعالى ، وكمال علمه وحكمته ورفعه وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام ، فان ذلك من الارهاصات لما روى أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم • (٢)

هذا ولقد ذكر الرازي في تفسيره ملحوظة دقيقة في قوله تعالى : " بأصحاب الفيل " ملخصها : " أن الجماعة المخربة كانت من جنس الفيل في البهيمة وعدم الفهم والعقل ، بل اذا حصلت المصاحبة بين

---

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٧٩
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٥٧٦

شخصين يقال للادون أنه صاحب الاعلى، ولا عكس ، ويؤيد ذلك أنهم كلما وجهو الفيل الى جهة الكعبة كان يبتعد عنها ولا يتقدم ، وكلما وجهوه الى جهة أخرى كان يسير فكأنه كان يقول لهم " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق [1] فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالا منهم.[2]

ثم ذكر سيد قطب في تفسير قوله تعالى : (**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**) ما معناه ان الله جل وعلا أضل مكرهم فلم يبلغ هدفه وغايته وقال الشوكاني : " والهمزة للتقرير كأنه قيل : " قد جعل كيدهم في تضليل ، والكيد : هو ارادة المضرة بالغير ، لانهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبى ، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم[3]، أما كيفية جعل كيدهم فى تضليل فقد وضحته الآيات التي بعده :

(**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**) والطير اختلف في وصفه على أقوال منها : أنها طيور سود بحرية ، ومنها أنها طيور خضر بحرية لها رؤوس كرؤوس السباع ، ومنها أن لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب[4]

---

(١) رواه أحمد في مسنده جـ ١ ص ١٣١ بلفظ " لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل ، ورواه مسلم في كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية جـ ١٢ ص ٢٢٧ بلفظ " لا طاعة في معصية الله ، انما الطاعة في معروف ".

(٢) تفسير الفخر الرازى المجلد ١٦ ص ٩٨ بتصرف

(٣) فتح القدير للشوكاني جـ ٥ ص ٤٩٥ وذكر الالوسى : قد جعل كيدهم في تضييع وابطال بأن دمرهم أشنع تدمير ، المجلد العاشر ص ٣٠٢ .

(٤) تفسير القرآن لابن كثير جـ ٤ ص ٥٥١ وفتح القدير جـ ٥ ص ٤٩٥ .

أما الابابيل : فهى الجماعات الكثيرة التى يتبع بعضها بعضا .

والسجيل : اختلف فيه أيضا على أقوال منها أنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار فكانت تلك الحجارة من جملة العذاب المكتوب لهم .

ومنها أنه الطين المتحجر أو الحجارة الملوثة بالطين[1] وهو الصحيح بدليل[2] قوله تعالى : (لِنُرسِلَ عَلَيهِم حِجَارَةً مِن طِينٍ).[3]

والعصف المأكول : هو ورق الزرع الذى وقع فيه الآكال[4] أو التبن أو قشرة الحب الذى أكل لبه .[5]

وذكر المؤلف سيد قطب أن كيفية جعل كيدهم في تضليل ماهى الا صورة حسية للتمزيق البدنى لاصحاب الفيل نتيجة ما رمتهم به جماعات الطير من حجارة ، ولا ضرورة لذكر كونها تصويرا لحال هلاكهم وعذابهم بمرض الجدرى أو الحصبة .[6]

---

(١) تفسير الفخر الرازى المجلد ١٦ ص ١٠١ ، وتفسير ابى السعود جـ ٥ ص ٥٧٨

(٢) تفسير أحكام القرآن للقرطبى جـ ٤ ص ٣٣١٠

(٣) سورة الذاريات آية/ ٣٣

(٤) **الأكال : بالفتح الطعام ، والآكال : مآكل الملوك. وآكلت الشجرة : أطعمت. لسان العرب** جـ١ ص٧٨ ، فكأن الطير أو الدور أو الدواب أكلته كله أو معظمه .

(٥) تفسير القرآن لابن كثير جـ ٤ ص ٥٥٢ والفخر الرازى المجلد ١٦ ص ١٠١

(٦) كأنه بذلك لايرتضى ماذهب اليه الشيخ محمد عبده في تفسيره " جزءعم" من كونهم أصيبوا بمرض الجدرى أو الحصبة . والحقيقة ان قول الشيخ هذا تأويل للقرآن وخروج به عن حقيقته .

* **النوع الثانـــى :**

وهو ما اشتمل على أغراض عديدة وتحدث عن موضوعات كثيرة الا أن هــذه الموضوعات تدور حول هدف واحـد ، وللذين تناولتهـم الموضوعات نهايــة واحـدة وهذا من أروع معجزات القرآن الكـريـم التى امتاز بها ٠

والسور المكيـة كما عرفنا عالجت الاصول الكبرى للدين وهى :

أ ـ تقرير الوحدانيـة للـه تعالـى ٠

ب ـ وتقرير النبوة لمحمد صلى اللـه عليـه وسلم وصدقـه فيما جاء بـه ٠

جـ ـ واثبات البعث والحشر يوم القيامـة وأن الناس فريقان : فريق في الجنـــة وفريق في السعيـــر ٠

وسورة المؤمنين من السور المكيـة التى جمعـت أغراضـا عديدة وموضوعـات جليلـة الا أنـها تمتاز عن غيرهـا بأنه يغلب عليها طابع تقرير النبـــوة حيث أنكـر كفار قريش نبوة محمد صلى اللـه عليـه وسلم تكبرا منهـــم أن يرسـل اليهـم بشرا مثلهـم يقودهـم وهـم الاشراف في قومهـم ٠ (١)

فجاءت هذه السورة تبين وصف البشريـة وكمالـها البشرى الذى يستحـــق الرفعـة والاصطفاء حيث بدأت ببيان صفات المؤمنين ـ الذين كتب لهـــم الفلاح ـ التى استحقوا بها ميراث الفردوس الاعلى ٠ ثم جاءت بعد ذلـــك بآيات بينت أدلـة الوحدانيـة في خلق الانفس والآفاق فعرضت أطـــوار

---

(١) الموافقات للشاطبى جـ ٣ ص ٤١٦ ـ ٤١٧ بتصرف

الانسان ، ثم تحدثت عن خلق السماء وانزال المطر الذى فيه حياة النفوس - واخراج أنواع النبات والنخيل والاعناب ، ثم ذكرت الانعام والفلك المسخرة للانسان .

ثم ذكرت السورة بعض قصص الانبياء السابقين مبينة أن سبب كفر الاقوام السابقين هو نفس السبب الذى كذب به قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أن البشرية تتنافى مع الرسالة ، وفى هذا كله تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وبيان بأن طريقة التكذيب في جميع الاقوام واحدة[١]، فمثلا :

أ - في موقف قوم نوح عليه السلام منه ومن دعوته ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ). [٢]

قال سيد قطب - رحمه الله - حول هذه الآية :

من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر القوم[٣] الى تلك الدعوة الكبيرة فما كانوا ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها وذواتهم الصغيرة الضيئلة تحجب عنهم جوهرها وتعمى عليهم عنصرها وتقف حائلا

---

(١) باختصار من كتاب ايجاز البيان في سور القرآن لمحمد على الصابونى ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) سورة المؤمنون آية/ ٢٤

(٣) وهم السادة والاكابر والاشراف : وعينهم ابن كثير في تفسيره جـ ٣ ص ٢٤٣ ، والنسفى جـ ٣ ص ١١٧ .

بين قلوبهم وبينها ، فاذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لايفترق في شيء عنهم يريد أن يتفضل عليهم وأن يجعل لنفسه منزلة[(١)] فوق منزلتهم .

وهم فى اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التى يتوهمون أنه يعمل لها ويتوسل اليها بدعوى الرسالة ... في اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده بل يردون فضل الانسانية التى هم منها ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس ، ويستكثرون أن يرسل الله رسولا من البشر[(٢)] وعجبا لقوم لم يرضوا بالنبوة للبشر ورضوا بالالوهية للحجر ا[(٣)] (**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰئِكَةً**) أى لو شاء الله ارسال رسول لارسل ملا ئكة ، وانما عبّر بالانزال عن الارسال لا ن ارسالهم الى العباد يستلزم نزولهم اليهم : (**مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ**) أى بمثل دعوى هذا المدعى للنبوة من البشر أو بمثل كلامه وهو الامر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدعى هذه الدعوى في آبائنا الاولين ، أى في الامم الماضية قبل هذا .[(٤)]

---

(١) مثل ان يترأسهم ويترفع عليهم ويتعاظم بدعوى النبوة : ابن كثير جـ ٣ ص ٢٤٣، والكشاف جـ ٣ ص ٢٩ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٤ .

(٣) الكشاف جـ ٣ ص ٣٠ والنسفى جـ ٣ ص ١١٧

(٤) فتح القدير المجلد الثالث ص ٤٨١ .

ب - وفي موقف القوم الذين أتوا بعد نوح عليه السلام من رسلهم قال تعالى

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ). (١)

قال مؤلف الظلال : لم يحدد من هم(٢) وهم على الارجح عاد قوم هود.(٣)

وقال الشوكاني : وصفهم بالكفر والتكذيب : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ) أي كذبوا بما في الآخرة من الحساب والعقاب أو كذبوا بالبعث (وَأَتْرَفْنَاهُمْ) أي وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) من كثرة الاموال ، ورفاهية العيش. (٤)

(مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) نفس الاعتراض على بشرية الرسول وهو الاعتراض الناشيء من انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين ، وبين النفخة العلوية التي تصل الانسان بخالقه الكريم. (٥)

(يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) فوصفوه بمساواتهم في البشرية وفي الاكل والشرب مما تشربون منه وذلك يستلزم عندهم أنه لافضل له عليهم. (٦)

---

(١) سورة المؤمنون آية/ ٣٣ : ٣٤

(٢) قال الطبري : وعنى الرسول في هذا الموضع صالحا وبقومه ثمود جـ ١٨ ص ١٥

(٣) ورد ذلك في الكشاف جـ ٣ ص ٣١ ، والنسفي جـ ٣ ص ١١٩ ، وفتح القدير جـ ٣ ص ٤٨٢

(٤) فتح القدير للشوكاني جـ ٣ ص ٤٨٢

(٥) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٧

(٦) فتح القدير جـ ٣ ص ٤٨٣ .

(وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ) فاتبعتموه وقبلتم مايقول وصدقتموه (إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ) أي المغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم اياه .(١)

جـ - وفي موقف قوم موسى وأخيه هارون منهما قال تعالى : (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ).(٢)

قال سيد قطب - رحمه الله - ويبرز في هذا الاستعراض الاعتراض ذاته على بشرية الرسل .(٣)

وقال الشوكاني : والاستفهام للانكار : أي كيف نصدق من كان مثلنا في البشرية ، والبشر يطلق على الواحد كقوله :* قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ *(٤) ويطلق على الجمع كما في قوله (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا)(٤)

فتثنيته هنا باعتبار المعنى الاول وأفراد المثل لانه في حكم المصدر(٥)

ففرعون وملؤه سخروا من موسى عليه السلام ، وأخيه هارون وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا فنتبعهما وقومهما من بني اسرائيل لنا عابدون أي مطيعون متذللون يأتمرون بأمرهم ويدينون لهم - والعرب تسمى كل من

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري جـ ١٨ ص ١٥
(٢) سورة المؤمنون آية / ٤٧
(٣) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٨
(٤) سورة مريم آية/ ٢٠ ، ٢٦
(٥) فتح القدير جـ ٣ ص ٤٨٥

دان الملك عابدا له[1] وذلك أدعى كما قال سيد قطب - في اعتبار فرعون وملئه الى الاستهانة بموسى وهارون عليهما السلام. [2]

وبالامثلة السابقة رأينا أن مؤلف الظلال - بتعليقاته على تلك الآيات وبتفسيره لها - يريد أن يقول : ان سورة المؤمنين بالرغم من أنها اشتملت على موضوعات كثيرة الا أن الطابع الغالب فيها الايمان ومنه تقرير النبوة واثباتها للبشر ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ...... وهو لم يصرح بذلك ولكن بالتأمل فيما يلى نرى أنه يعنى ما أقول :

* **أولا :** قوله " جو السور كلها جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادىء والمنطق الوجدانى واللمسات الموحية للفكر والضمير والظل الذى يغلب عليها هو الظل الذى يلقيه موضوعها ... الايمان ففى مطلعها مشهد الخشوع في الصلاة : **(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)**[3] وفي صفات المؤمنين في وسطها : **(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)**.[4] وفي اللمسات الوجدانية : **(وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)**.[5] وكلها مظللة بذلك الظل الايمانى اللطيف. [6]

---

(١) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ١٩
(٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٨
(٣) سورة المؤمنون آية / ٢
(٤) سورة المؤمنون آية / ٦٠
(٥) سورة المؤمنون آية / ٧٨
(٦) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٣

* **ثانيا :** قوله في تقسيمه لمحتنويات السورة ما معناه :" ان الشوط الثاني منها فيه بيان حقيقة الايمان التى اتفق عليها الرسل من لدن نوح عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم وهى عبادة الله وحده والتى اعترض عليها الكفار بتكذيب الرسل بوصفهم بشرا ، وانتهاء الشوط بنداء الله سبحانه للرسل جميعا ." (١)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢))

حيث قال سيد قطب - رحمه الله - انه نداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التى ينكرها عليهم الغافلون - كالاكل والعمل الصالح - وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته ، انما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه الى أفقها الكريم الوضيء ، الذى أراده الله لها ، وجعل الانبياء روادا لهذا الافق ومثلا أعلى . والله هو الذى يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق . (٣)

كما يذكر الشاطبى ذلك في موافقاته حيث يقول :

" فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد ، وبالجملة فحيث ذكر قصص الانبياء عليهم السلام كنوح ، وهود وصالح ، ولوط

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٢ بتصرف .
(٢) سورة المؤمنون آية / ٥١
(٣) في ظلال القرآن م ٤ ص ٢٤٦٩ .

وشيث[١] وموسى وهارون ، فانما ذلك تسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام وتثبيت لفؤاده لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة فتذكر القصة على النحو الذى يقع له مثله . وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الاحوال ، والجميع حق واقع لا اشكال فى صحته ". (٢)

* * *

(١) شيث : هو ابن آدم ومعناه : هبة الله لانهما أى آدم وحواء رزقاه بعد أن قتل هابيل . قال محمد بن اسحاق لما حضرت الوفاة آدم عهد الى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلم عبادات تلك الساعات واعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك ، ويقال : ان انتساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى الى شيث وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا . والله اعلم : البداية و النهاية لابن كثير جـ ١ ص ٩٨.

(٢) الموافقات في اصول الشريعة جـ ٣ ص ٤١٩ .



المبحـــث الثالـــــث

تعــدد الموضوع الواحــد بحسب دواعيـــه

* **المبحث الثالث : تعدد الموضوع الواحد بحسب دواعيه :**

لاينكر أحد أن الشريعة الاسلامية كملت بمبادئها وأسسها العظيمة وصارت صالحة لكل زمان ومكان ، وكذلك هي تصلح كل زمان ومكان ، وذلك لسهولتها وعمومها وأصبحت أهداف القرآن الكريم من كل موضوع ذكر فيه واضحة جلية .

وقد يلاحظ المتدبر في القرآن العظيم - المصدر الاول للشريعة - أن بعض الموضوعات تكررت في عدد من السور ولكن كل موضوع ذكر في كل سورة جاء مناسبا كل المناسبة للسورة ، بل أحيانا يكرر نفس الموضوع في نفس السورة مثل الصلاة باعتبارها عماد الدين ، ومن أقامها فقد أقام الدين ، وباعتبار كونها عنوانا للمسلم المطيع لربه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فنرى أنه حينما ذكرت حقيقة النفس البشرية المواجهة للخير والشر في حالتي الايمان وعدمه فيها .... حينما ذكرت هذه الحقيقة في سورة المعارج استثنى المولى عز وجل المصلين المتصفين بصفة جليلة متمثلة في قوله تعالى :

(إِنَّ الإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الخَيرُ مَنُوعًا إِلَّا المُصَلِّينَ الَّذِينَ هُم عَلَىٰ صَلَاتِهِم دَآئِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَموَالِهِم حَقٌّ مَّعلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَالمَحرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَومِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُم مِّن عَذَابِ رَبِّهِم مُّشفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِم غَيرُ مَأمُونٍ وَالَّذِينَ هُم لِفُرُوجِهِم حَافِظُونَ

إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ). (١)

وبتأمل هذه الصفات نجده جل وعلا يذكر المصلين مرتين :

المرة الاولى في قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) .

والثانية في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) .

ونجد أيضا مؤلف الظلال - رحمه الله - بيّن الفرق بين صفة الصلاة الاولى وصفتها الثانية حيث ذكر في الاولى : أن صفتها الدوام الذى لا ينقطع ، ونظرا لكون الصلاة - وسيلة الاتصال بالله ومظهر العبودية الخالصة له فالدوام يعنى الاستقرار والاطمئنان والثبات على الاتصال به جل وعلا ، فلا ترك ولا اهمال ولا كسل ..... بل منتهى الاحترام لتلك الصلة (٢) المختلفة عن كل الصلات التى يمكن أن توصل أو تقطع حسب المزاج . (٣)

وقال في الثانية ما معناه : ان صفة المحافظة على الصلاة تختلف عن صفة الدوام ، وتتحقق بالمحافظة عليها في مواعيدها وفى فرائضها وفى سننها

---

(١) سورة المعارج من آية / ١٩ : ٣٥

(٢) حبذا لو قال سيد كلمة صلة بدلا من قوله " فليس هو لعبة توصل أو تقطع حسب المزاج .

(٣) المجلد السادس ص ٣٦٩٩ من ظلال القرآن بتصرف .

وفي هيئتها وفي الروح التى تؤدى بها .

ثم قال : " وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام وبهذا تختم سمات المؤمنين.... وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر : (**أُولَئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ**). ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسى ولون من النعيم الروحى فهم فى جنات وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم جزاء على هذا الخلق الكريم الذى يتميز به المؤ منون . (١)

والمؤلف بقوله هذا يريد أن يثبت مدى الاتفاق الحاصل بين هذا الموضوع - صفات المؤمنين المصلين - والموضوع العام الذى تعالجه السورة وهو تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء وموازين هذا الجزاء ... كما أن جميع المواضيع والحقائق المذكورة فى السور ة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها .

وكذلك ورد ذكر الصلاة مرتين حينما ذكر المولى عز وجل صفات المؤ منين الفالحين الفائزين بالفردوس الاعلى في سورة المؤمنين حيث قال تعالى :

---

(١) المجلد السادس من ظلال القرآ ن ص ٣٧٠٢ .

(قَد أَفلَحَ المُؤمِنُونَ الَّذِينَ هُم فِي صَلَاتِهِم خَٰشِعُونَ وَالَّذِينَ هُم عَنِ اللَّغوِ مُعرِضُونَ وَالَّذِينَ هُم لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ وَالَّذِينَ هُم لِفُرُوجِهِم حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزوَٰجِهِم أَو مَا مَلَكَت أَيمَٰنُهُم فَإِنَّهُم غَيرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ العَادُونَ وَالَّذِينَ هُم لِأَمَٰنَٰتِهِم وَعَهدِهِم رَٰعُونَ وَالَّذِينَ هُم عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِم يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الوَٰرِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِردَوسَ هُم فِيهَا خَٰلِدُونَ) .[1]

فبدأ الصفات بقوله : (الَّذِينَ هُم فِي صَلَاتِهِم خَٰشِعُونَ) .

وختمها بقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُم عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِم يُحَافِظُونَ)

ويبين الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - معنى هذه الصفات فيذكر : أن قلوب المؤمنين الصادقين في ايمانهم تستشعر رهبة الموقف في الصلاة بين يدى الله لذلك تسكن وتخشع فلا تشهد الا الله ولا تحس الا اياه ولا تتذوق الا لذة مناجاته ، ولا تشغل أرواحهم وأذهانهم وأجسادهم الا بكل ما يصلهم بالله جلت قدرته وعظمته .[2]

كما يذكر معنى المحافظة عليها فيبينه بعدم تركها اهمالا أو كسلا وبتأديتها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن مستوفية الاركان والواجبات.

---

(١) سورة المؤمنون آية/ ١ : ١١

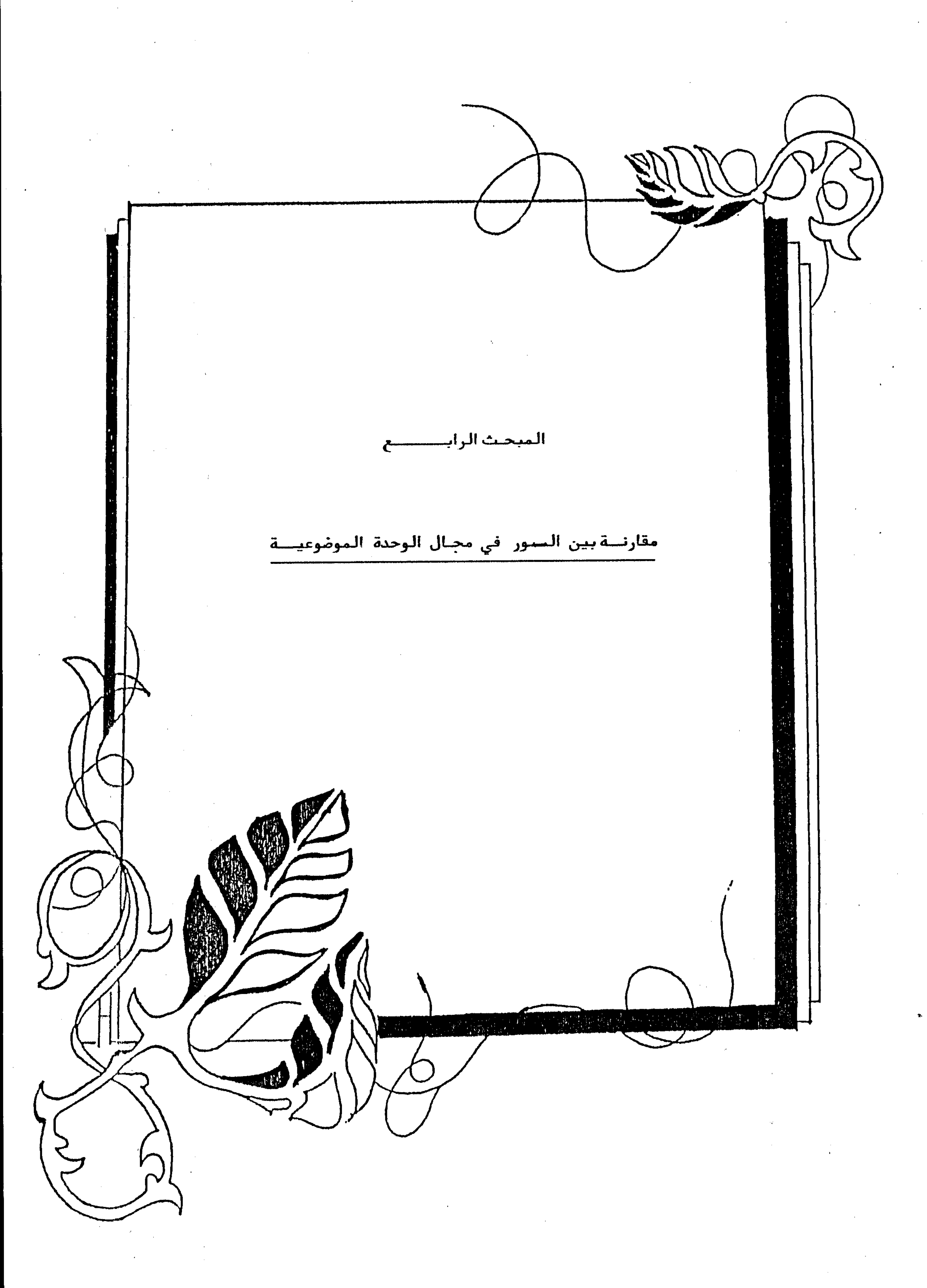
(٢) المجلد الرابع من ظلال القرآن ص ٢٤٥٤ بتصرف .

ويقول بعد ذلك : " ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الايمان بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه الى الله " (١)

وقوله هذا أيضا يثبت أن الوحدة الموضوعية في هذه الجزئية موجودة فليس أدل على صدق الايمان - الموضوع العام لسورة المؤمنين - الا تأدية الصلاة كما ينبغي أن تؤدى والمحافظة عليها .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥٧



المبحث الرابع

مقارنة بين السور في مجال الوحدة الموضوعية

* **المبحث الرابع: مقارنة بين السور في مجال الوحدة الموضوعية :**

لقد كان مؤلف الظلال - رحمه الله - يقارن بين السور ويربط بينها أثناء تعريفه بها ، وتحديده لموضوع كل منها علاوة على اظهاره الوحدة الموضوعية فيها وأمثلة ذلك كثيرة منها :

* **أولا: مقارنته بين سورتى الانعام والاعراف :**

ففي هذه المقارنة بيّن أن موضوع السورتين هو العقيدة ولكن طريقة عرض الموضوع اختلفت في كل منهما فسورة الانعام عرضته في مجالها النظرى التقريرى ، وسورة الاعراف عرضته في مجالها الحركى الواقعى يقول رحمه الله : " سورة الانعام تعالج العقيدة في ذاتها ، وتعرض موضوع ، العقيدة وحقيقتها ، وسورة الاعراف تعالج موضوع العقيدة كذلك ولكنها تأخذ طريقا آخر وتعرض موضوعها فى مجال آخر ... انها تعرضه في مجال التاريخ البشرى في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملا الاعلى ، وعائدة الى النقطة التى انطلقت منها .[1]

ونتيجة لذلك كانت طبيعة التعبير في السورتين مختلفة .

يقول - رحمه الله - " فالتعبير في كل سورة يناسب منهجها وطريقتها في عرض الموضوع

---

(١) انظر في ظلال القرآن المجلد /٣ ص ١٢٤٤ بتصرف وانظر (المنهج الحركي) للدكتور الخالدى ص ١٦١

وبينما يمضي سياق الآيات في الأنعام في موجات متدافقة ، وبينما تبلغ المشاهد دائما درجة التوهج والالتماع ويبلغ وقع الالفاظ درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع اذ السياق فى الاعراف يمضي هادئ الخطو ، سهل الايقاع تقريرى الاسلوب ، وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، حتى تؤوب ا وقد يشتد الايقاع أحيانا في مواقف التعقيب ولكنه سرعان ما يعود الى الخطو الوئيد الرتيب ".[(١)]

فسورة الأنعام تعالج موضوعها الأساسي " العقيدة " بصورة فريدة ٠٠ انها في كل لمحة منها وفي كل موقف وفي كل موضع رائعة تبهر القلوب الحساسة وتهدف الى تعريف الناس بربهم الحق لتصل بذلك الى تعبيدهم وأرواحهم وتعبيد سعيهم وشعائرهم وسلوكهم لسلطان الله المتفرد الذى لاسلطان لغيره ، لافي السموات ولا في الأرض ٠

والسورة لايمكن تجزئتها الى مقاطع ، فكل مقطع منها يتحدث عن جانب من الموضوع الرئيسي " العقيدة " وانما هي موجات[(٢)] وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها ، فالملاحظ أن السورة بدأت بمواجهة المشركين بحقيقة الألوهية يقول تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى

---

(١) انظر الظلال م ٣ ص ١٢٤٥ بتصرف وانظر (المنهج الحركي) للدكتور الخالدى ص١٦١

(٢) ولي ملاحظة على قوله (موجة) فهي لايصح اطلاقها على القرآن الكريم ٠

عِندَهُ ثُمَّ أَنتُم تَمتَرُونَ ، وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرضِ يَعلَمُ سِرَّكُم وَجَهرَكُم وَيَعلَمُ مَاتَكسِبُونَ ﴾ (١)

وهذه الحقيقة متجلية في لمسات عريضة : فاللمسة الأولى تشمل الوجود الكوني - خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور دائبين - المرئي المنظور الناطق بقدرة الخالق العظيم ، الشاهد على تدبيره الحكيم والمشركون مع ذلك لايؤمنون ولا يوحدون بل يجعلون الله شركاء يعدلونهم به ويساوونه .

واللمسة الثانية تشمل الوجود الانساني وتتفرع الى فرعين الأول يبين النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم الى نور الحياة البهيج ، والثاني يبين الأجل المؤدى للموت ، والأجل الثاني المسمى للبعث والمعرضون أيضا يشكون ولا يستيقنون .

أما اللمسة الثالثة فتضم اللمستين الأوليين في اطار واحد ، وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الانسانية .

وهذه المواجهة التي تمثل الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة نرى أنها خاطبت القلب الانساني والعقل البشرى بدليل الخلق ودليل الحياة ممثلين في الآفاق وفي الأنفس . (٢)

ثم عقبت السورة بموجة تالية يقول فيها المولى تبارك وتعالى :﴿ وَمَا تَأتِيهِم مِّن آيَةٍ مِّن آيَاتِ رَبِّهِم إِلَّا كَانُوا عَنهَا مُعرِضِينَ . فَقَد كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُم فَسَوفَ يَأتِيهِم أَنبَاءُ مَاكَانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ . أَلَم يَرَوا كَم أَهلَكنَا مِن قَبلِهِم مِّن قَرنٍ مَّكَّنَاهُم فِي الأَرضِ مَالَم نُمَكِّن لَّكُم ، وَأَرسَلنَا السَّمَاءَ عَلَيهِم مِّدرَارًا ، وَجَعَلنَا الأَنهَارَ تَجرِي مِن تَحتِهِم فَأَهلَكنَاهُم بِذُنُوبِهِم وَأَنشَأنَا مِن بَعدِهِم قَرنًا آخَرِينَ

---

(١) سورة الانعام آية : ١ : ٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٠٣٠ : ١٠٣١ بتصرف .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ • وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ • وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1]

فذكرت موقف المكذبين ـ بآيات الله المثبوتة في الكون والحياة ـ الغريب المنكر الدال على الاصرار والعناد والمكابرة ، وتركتهم أمام تهديد لايعرفون نوعه ولا موعده ، وبينت لهم مصارع الأجيال السابقة المكذبة حيث أعطاهم المولى تبارك وتعالى من أسباب القوة والسلطان مالم يعط مثله للقرشيين ـ المكذبين ـ وأرسل المطر عليهم بالخير والنماء وزيادة الأرزاق ومع ذلك عصوا وكذبوا فأخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر وما كان أهونهم على الله !! ثم أنشأ بعدهم أجيالا آخرين وكل جيل منهم فيه المؤمن وفيه المعاند الكافر الى أن أتى جيل القرشيين المعاندين .[2]

كما بينت هذه الموجه مدى حلم الله الواسع عليهم فلو أنزل سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هذا القرآن مكتوبا في ورقة منظورة ملموسة محسوسة ثم لمسها الكافرون بأيديهم فأسلموا بهذا الذى يرونه بل قالوا : ان هذا الا سحر مبين .

وقولهم هذا دليل على اصرارهم على الكفر و العناد ، ودليل على أن جبلتهم لا مجال معها لقبول أى حجة أو جدل أو دليل .

واقترحوا اقتراحا عجيبا وهو انزال ملك على الرسول صلى الله عليه وسلم يصاحبه في تبليغ الدعوة ويصدقه .

---

(١) سورة الانعام آية / ٤ : ١١ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٢ ، ص ١٠٣٧ بتصرف .

واقتراحهم ذاك دليل على جهلهم بطبيعة الملائكة ، وبسنة الله في ارسالهم ورحمته بهم في عدم استجابته لهذا الاقتراح ، فسنة الله اقتضت أن ينزل الملائكة لتدمير المكذبين وهلاكهم : وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله ، والجانب الآخر أن لهم القدرة على اتخاذ هيئة البشر وفي هذا زيادة لبس عليهم [1] واشكال وخلط فهم في شك من الحقيقة الواضحة - وهي كون محمد صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم لينذرهم ويبشرهم - فكيف سيصدقون الملك في أنه مرسل اليهم من عند الله سبحانه وتعالى وهم يرونه رجلا كأي واحد منهم .

يقول الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - : " وهكذا يكشف الله سبحانه جبلهم بطبيعة خلائقه كما كشف لهم جهلهم في معرفة سنته ، وذلك بالاضافة الى كشف تعنتهم وعنادهم بلا مبرر وبلا معرفة وبلا دليل "[2]

ثم يذكر بعد ذلك ماجاء في التصور الاسلامي عن التعريف بالملائكة وبوظائفهم :

١) فهم خلق من خلق الله يدين لله بالعبودية وبالطاعة المطلقة .

٢) وهم يحملون عرش الرحمن ويحفون به يوم القيامة كذلك لا ندرى كيف ، فليس لنا من علم الا بقدر ما كشف الله لنا من هذا الغيب .

٣) وهم خزنة الجنة وخزنة النار .

٤) وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى :

- منهم من يقوم عليهم حفظة بأمر الله .
- ومنهم من يبلغون الوحي الى الرسل عليهم السلام .
- ومنهم من ينزلون على المؤمنين بالتثبيت والمدد والتأييد .

---

(١) تفسير أبي السعود ، ج ٢ ، ص ١٧٥.
(٢) في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١٠٤٢.

- ومنهم من مشغولون بأمر المؤمنين يسبحون ربهم ، ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم ويدعون ربهم لهم .

- ومنهم من يستقبلون الكافرين في جهنم بالتأنيب والوعيد .

وانتهت هذه الموجة بعرض ماوقع للمستهزئين بالرسل ، ودعوة المكذبين الى تدبر هلاك اسلافهم ، وقصدت بيان غرضين ظاهرين :

* **الأول :** تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه مما يجده من أذى المشركين وعناد المكذبين بذكر أن جميع الرسل قبله قدلاقوا مالقيه ولكن المستهزئين أخذوا جزاء هم الحق ، وحاق بهم ماكانوا يستهزؤن به من العذاب .

* **الثاني :** تذكير المكذبين بمصارع اسلافهم الأقوياء الأشداء والأكثر منهم قوة وثراء ورخاء ، وبيان أن مثل هذه العاقبة تنتظرهم ان هم تمادوا في سخريتهم وتكذيبهم .

ثم بينت السورة موجة جديدة ثالثة . يقول المولى تبارك وتعالى فيها :

* قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَرَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ . وَلَهُ مَاسَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُل أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُل إِنِّيٓ أُمِرتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُل إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ . قُل أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ (١)

فنرى أنها استهدفت ابراز حقيقة الألوهية ، وعرض حقيقة الألوهية هنا تختلف عنه في الموجة الاولى فهو هنا مصحوب بحملة مؤثرات قوية وحقائق ثابتة تستقر في قلوب الوادعين المدركين .

وتبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء ولجميع الخلائق فاستقصى المولى جل وعلا جميع الخلائق في الآية الأولى من ناحية المكان وفي الآية الثانية استقصاهم من ناحية الزمان .

ونلاحظ حقيقة أخرى تستوقف النظر وتسترعي الانتباه وهي ذلك التفضل والتكرم من قبل الخالق المالك ذى السلطان بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة مكتوبة عليه ... بمحض ارادته ومطلق مشيئته ، فمثل هذه الحقيقة تثير في القلب الكثير من المشاعر وتدعه في عجب وفي دهشة كما تدعه في أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه . (٢)

ومن ثم الشعور برحمة الله تغمر المؤمن مع تقصيره وارتكابه للذنوب والأخطاء يؤثر فيه تأثيرا قويا حيث يتعلم كيف يرحم وكيف يعفو وكيف يصفح ولقد رأى قدوته في ذلك تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه هذه الأمور مستمدا اياها من هذه الحقيقة الكبيرة . (٣)

وبعد تقرير حقيقة الخلق والملك تأتي حقيقة أخرى مؤثرة تستنكر العبودية لغير الله والولاء لغيره وتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الاسلام لله

---

(١) سورة الانعام من آية / ١٢ : ١٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٠٤٩ بتصرف وايجاز .

(٣) في ظلال القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٠٥٢ بتصرف .

فمنطق الفطرة القوى العميق يقتضي كون الولاء المحض لفاطر السموات والأرض ، الذى أنشأهما وخلقهما ولرازق من في السموات والأرض الذى يطعم ولا يطلب طعاما .

ولقدأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلن الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونه الى الملاينة والمداهنة ثم انه لماذا يتخذ غير الله وليا ويعرض نفسه للشرك المنهي عنه ولما يعقب المعصية من عذاب عظيم ؟ هل يرجو نصرة الناس له في الضراء أم يرجو نفعهم له في السراء ؟ . ان هذا كله بيد الله وله القدرة المطلقة وله القهر على عباده وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعطاء . (١)

وتنتهي هذه الموجة بموقف عظيم يواجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم وتوحيده وشركهم وبين اسلامه وجاهليتهم في موقف الاشهاد والانذار والمفاضلة حيث يظهر حقيقة أن الله سبحانه وتعالى هو أكبر شهادة فلا شهادة بعد شهادته ، ولا قول بعد قوله وهو الذى أوحى بهذا القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم لننذرهم به وينذر به كل من يبلغه ، فاذا بلغ أحدا وكذّب به فقد حق عليه العذاب . ويؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم باعلان نكرانه لشهادتهم وشركهم بالله ويفاصلهم على ذلك ويتبرأ من شركهم بصيغة شديدة مؤكدة تهتز لها القلوب. (٢)

وتتوالى الموجات في السورة الكريمة وكل موجة تشتمل على حقائق ومشاهد ومؤثرات وموحيات كثيرة وكل موجه تتفق مع الموجة التي قبلها وتكملها ...

---

(١) في ظلال القرآن ، جـ ٢ ، ص ١٠٥٤ ـ ١٠٥٥ بتصرف وايجاز .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٥٦ ـ ١٠٥٧ بتصرف وايجاز .

يقول مؤلف الظلال : انها رحلة شاسعة الآماد عميقة الأغوار هائلة الأبعاد ... والتي قطعناها مع السورة رحلة مع حقائق الوجود الكبيرة :

١) حقيقة الألوهية بروعتها وجلالها وجمالها .

٢) وحقيقة الكون والحياة وما وراءهما من غيب ومن قدر ومن مشيئة لها التحكم في الاثبات والمحو ، وفي الانشاء والعدم ، وفي الاحياء والاماتة ، وفي تحريك الكون والاحياء والناس كما تشاء .

٣) وحقيقة النفس الانسانية بأهوائها وشهواتها وما يوسوس لها من شياطين الانس والجن ، وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال .

٤) ومشاهد القيامة ومواقف الحشر ، ولحظات الكرب والضيق ، ولحظات الأمل والاستبشار وغير ذلك من تاريخ الانسان في الأرض ومن تاريخ الكون والحياة .

وأمثال هذه الحشود التي لايمكن أن تعبر عنها الا السورة نفسها .

وأما سورة الاعراف فتعرض قصة هذه العقيدة في التاريخ البشرى في صورة معركة مع الجاهلية وتعرضها في مشاهد ومواقف بها أناس أحياء يواجههم القرآن بقصة العقيدة ويخاطبهم بما فيها من عبر وانذارات ، ويخوض معهم معركة حقيقية حية فبدأت السورة بمقدمة قصيرة ثم انتقلت الى الحديث عن التمكين للجنس البشرى في الأرض وعرضت قصة النشأة الأولى واتخذتها نقطة تعقيب للانذار والتذكير المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات ومؤثرات موحيات .

يقول تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ**

فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ • قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ • قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ • قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ • ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ • قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ • فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ • فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ • قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ • قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ • قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (١)

ونرى طلائع المعركة الكبرى بين هذا الشيطان وبين بني آدم جميعا كما نلاحظ نقاط الضعف في المخلوق الانسان جملة ومنافذ الشيطان اليه منها •

ثم يأتي عقب هذا انذار لبني آدم لئلا يقعوا في فتنة هذا العدو ، وتحذير من أن يكون مصيرهم كمصير أبويهم • يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الاعراف آية : ١١ : ٢٥ •
(٢) سورة الاعراف آية : ٢٧

هذا وقد استلهم المؤلف من قصة النشأة الانسانية حقائق تشارك في تقرير (مقومات التصور الاسلامي) وهي :

١) التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الانساني التي هي قدر مرسوم لافلتة عارضة ٠

٢) كرامة الكائن الانساني الفريد في العوالم الحية وضخامة دوره المنوط به وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها ٠

٣) كون الانسان ضعيفاً في بعض جوانب تكوينه بحيث يمكن قيادته الى الشر ، لكن رحمة الله به اقتضت ارسال الرسل اليه للانذار والتذكير ٠

٤) جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها واستمرارها وضراوتها ٠ (١)

ونلاحظ أنه قبل أن يفصّل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشري بعد آدم وزوجته وتجربته الأولى يبادر بذكر نهاية الرحلة حيث عرضها بشطريها في دار الابتلاء وفي دار الجزاء وقد جاء الحديث عن دار الجزاء مفصلا حافلا بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع ٠

وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد يعقب سياق السورة عليها مقررا حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية في مشاهد كونية حتى لايشذ هذا الانسان عن العبودية لرب هذا الكون الذى له الخلق والأمر وهو رب العالمين ٠

فيسرد قصة خلق السموات والأرض بعد قصة خلق الانسان ويلفت الأنظار والبصائر الى مافي هذا الكون من أسرار وظواهر طبيعية من ليل ونهار وشمس وقمر ونجوم ورياح دائرة تحمل السحب الى بلد ميت فيحييه باذن الله ، وهذا العرض لما في الكون هدفه أن يبين استسلام هذه المخلوقات جميعها لله وأن يرد البشر

---

(١) في ظلال القرآن ، جـ ٣ ، ص ١٢٧٠٠

لربهم ويقرر أن عبوديتهم لله جل وعلا ماهي الا فرع من اسلام الوجود كله له ، وليجعل قلوبهم تستشعر حقيقة العبودية وتتذوق طعمها الحقيقي في استسلام وطمأنينة ويسر وبدون أي قهر أو قسر .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ . وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (١)

وخلاصة ذلك - والله أعلم - : أن الله الخالق لهذا الكون المدبر له المهيمن عليه والمتصرف فيه بقدرته هو الذى يستحق أن يكون ربا لكم يربيكم بمنهجه ويجمعكم بنظامه ويشرع لكم باذنه ويقضي بينكم بحكمه فهو صاحب الخلق والأمر تبارك وتعالى جل شأنه .

واذا كانت الشمس والقمر والنجوم - مخلوقات كأنها حية ذات روح - تتلقى أمر الله وتنفذه وتخضع له وتسير وفق منهجه وتستجيب له .

فأولى بالبشر أن يدعوا ربهم - الذى لارب غيره - في انابة وخشوع وفي تضرع خفي وخضوع - وهو الأنسب والأليق بجلال الله وبقربه من عباده - وأن يلتزموا

---

(١) سورة الاعراف من آية : ٥٤ : ٥٨ .

حدود عبوديتهم له لايعتدون على سلطانه ولا يفسدون في الأرض بترك شرعه بعد أن أصلحها الله بمنهجه القويم .(١)

ويختم السياق هذا العرض في أرجاء الكون وأسرار الوجود بمثل يضربه للطيب والخبيث من القلوب ، يقول مؤلف الظلال رحمه الله : هذا المثل ينتزع من جو المشهد المعروض مراعاة للتناسق في المرأى والمشاهدة وفي الطبائع والحقائق .

فالقلب الطيب يشبه بالأرض الطيبة والتربة الصالحة وكذلك القلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة ، والقلب والتربة كلاهما منبت زرع ومأتى ثمر ، فالقلب ينبت نوايا ومشاعر وانفعالات واستجابات وأعمالا بعد ذلك وآثارا في واقع الحياة ... والتربة تنبت زرعا وثمرا مختلفا في أكله وألوانه ومذاقه وأنواعه ، وللشاكرين الذين يحسنون التلقي و الاستجابة تصرف الآيات ، فهم الذين ينتفعون بها ويصلحون لها وبها ، ونلاحظ أن الشكر يتكرر ذكره في هذه السورة كالانذار والتذكير .(٢)

ويمضي بنا بعد ذلك سياق السورة بموكب الايمان يرفع أعلامه رسل الله المكرمين : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ... محاولين انقاذ البشرية من الهاوية التي يقودهم الشيطان اليها هو وأعوانه من شياطين الانس المستكبرين عن اتباع الهدى والحق في كل زمان .

---

(١) في ظلال القرآن ، جـ ٣ ، ص ١٢٩٧ـ ١٢٩٨ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٠٠ بتصرف يسير واختصار .

ثم يبين لنا المولى تبارك وتعالى أن البشرية المعاندة العاصية نسيت الله خالقها ونقضت الميثاق فلم تشكر الله على عطاياه ولم ترع ذلك العهد الوثيق الذى قطعته على نفسها أمامه وقبل أن تظهر في الوجود .

يقول جل وعلا : ﴿ وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (١)

ونلاحظ في جملة هذه الآيات الكريمة أن الحديث يدور حول قضية التوحيد والشرك بعد مادار قصص السورة كله حول هذه القضية متخذا صورة التذكير من الرسل جميعا بحقيقة التوحيد والتحذير من عاقبة الشرك ثم تحقق النذر بعد التذكير والتحذير .

فالآيات الأولى تتحدث عن قضية الفطرة والعقيدة يعرضها القرآن الكريم في صورة مشهد رائع فريد : مشهد الذرية المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر في الوجود وهي تعترف للخالق بالربوبية وتقر له بالعبودية والوحدانية وهي منثورة كالذر ومجموعة في قبضته جل وعلا ، هذا المشهد الفريد لم تعرف

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٧٢ـ ١٧٧ .

له اللغة نظيرا في تصوراتها المأثورة ، وانه لمشهد عجيب رائع يرتعش له الكيان البشرى حين يتمثله .

ولكن هذه الفطرة لم ترع هذا العهد الوثيق بل تعرضت لعوامل الانحراف لذا اقتضت رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا فقد كان علمه جل وعلا سابقا لكل شيء ومحيطا بأن هذه الفطرة وهذه العقول لا تكفي وحدها للهدى دون رسل أو رسالات فضرب لنا مثلا لانحراف الفطرة عن سواء السبيل ونقضها لعهد الله المأخوذ عليها .

يقول الله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ (١)

ضرب مثلا لانسان أغدق المولى تبارك وتعالى عليه من نعمه الشيء الكثير فآتاه آياته وكساه من علمه وأعطاه من فضله ... فاذا هو ينسلخ من هذا كله ... بعنف وجهد ومشقة وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى فيهبط ويلتصق بالأرض ويتلوث بالطين ثم يمسخ في هيئة الكلب يلهث ان طورد ويلهث ان لم يطارد ذلك مثلهم ... فقد كانت آيات الهدى متلبسة بفطرتهم وكيانهم ثم اذا هم ينسلخون منها انسلاخا واذا هم ينحطون الى أسفل السافلين ﴿سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ .

وهل أسوأ مثل من الانسلاخ والتعري من الهدى ؟ .

---

(١) سورة الاعراف من الآية : ١٧٥ ـ ١٧٧ .

وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد الا هذا القرآن الفريد .[1]

ثم يعقب سياق السورة على هذا المثل ببيان أن مشيئة الرحمن اقتضت أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى ، وكذلك باضلال من لايستعمل عقله ، أو لايستخدم ما أودعه الله فيه من نعمة الرؤية ونعمة السمع في ادراك الآيات المثبوتة في الكون وفي رسالات الرسول الموحية بالهدى .

﴿ مَن يَهدِ اللَّهُ فَهُوَ المهتَدِي وَمَن يُضلِل فَأُولَئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ . وَلَقَد ذَرأنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُم قُلُوبٌ لَّايَفقَهُونَ بِهَا وَلَهُم أَعيُنٌ لَايُبصِرُونَ بِهَا وَلَهُم آذانٌ لَّايَسمَعُونَ بِهَآ أُولَئِكَ كَالأَنعَامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ [2]

ثم تختتم السورة بتوجيهات ربانية من المولى تبارك وتعالى يقول فيها :

﴿ خُذِ العَفوَ وَأمُر بِالعُرفِ وَأَعرِض عَنِ الجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزغٌ فَاستَعِذ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِّنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبصِرُونَ . وَإِخوَانُهُم يَمُدُّونَهُم فِي الغَيِّ ثُمَّ لَايُقصِرُونَ وَإِذَا لَم تَأتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَولَا اجتَبَيتَهَا قُل إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُم وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِّقَومٍ يُؤمِنُونَ . وَإِذَا قُرِىءَ القُرآنُ فَاستَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ . وَاذكُر رَّبَّكَ فِي نَفسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهرِ مِنَ القَولِ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الغَافِلِينَ . إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسجُدُونَ ﴾ [3]

---

(١) في ظلال القرآن ، جـ ٣ ، ص ١٣٩٧.

(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٨ـ ١٧٩.

(٣) سورة الأعراف من الآية : ١٩٩ـ ٢٠٦.

هذه التوجيهات موجهة الى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأخذ العفو والسماحة واليسر وألا يكلف بعضهم بعضا بأمور معقدة شاقة وأن يعرضوا عن الجاهلين فلا يجادلوهم ولايضيعوا أوقاتهم معهم في رد فاحش ونقاش وعناد وذلك لتمضي الحياة سهلة ميسرة ، أما اذا مس أحدهم الشيطان وأعمى بصيرته فليتذكر الله وليتقه وليخشى غضبه ترجع له بصيرته ويذهب عنه مس الشيطان باذن الله ٠

وأرشدهم أيضا الى دوام ذكره جل وعلا تضرعا وخيفة ، رغبة ورهبة ولا يكونون من الغافلين المنشغلين بأمور الدنيا وشهواتها ، فهو جل وعلا يريد التذكر المستمر المتواصل وانما ذكر الغدو وهو أول النهار والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار [١]، كما ذكر الليل في آيات أخر [٢]وذلك لما في هذه الأوقات من مؤثرات خاصة لايعلم ماتفعله في الناس الا خالق الناس ٠

وامتدح في آخر السورة ملائكته الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون وذلك ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ٠

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله معقبا : وبعد فان ذكر الله كما توجه اليه هذه النصوص ليس مجرد الذكر بالشفه واللسان ولكنه الذكر بالقلب والجنان الذكر الذى يرتعش له الوجدان ، ويخفق له القلب وتعيش به النفس ، والمصحوب بالتضرع والتذلل والخشية والخوف ٠

---

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠٠

(٢) كقوله تعالى : ﴿ فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ سورة ق آية/ ٣٩ ٠ وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا ٠ نصفه أو انقص منه قليلا ٠ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ سورة المزمل : ١ : ٤٠

انما هو استحضار جلال الله وعظمته .. ، والمخافة من غضبه وعقابه ، والرجاء فيه والالتجاء اليه حتى يصفو الجوهر الروحي في الانسان ... وحتى لا يأتي صغيرة ولا كبيرة الا وهو يعلم أن الله يراه ، فلا يغفل عن ذكره ولا ينشغل عن مراقبته وما أحوج الانسان الى أن يظل على اتصال دائم بربه .[1] ليتقوى على نزعات الشيطان .

ثم يلخص الاستاذ سيد قطب رحمه الله موضوعات السورة ويربط آخرها بأولها فيقول : (كانت السورة من قبل صورة للمعركة بين الانسان والشيطان في أوائلها وظل سياقها يعرض موكب الايمان وشياطين الجن والانس تعترض طريقه كما ذكر الشيطان في نبأ الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، وكما ذكر في أواخرها نزغ الشيطان والاستعاذة منه بالله السميع العليم وهو سياق متصل ينتهي بالتوجيه الى ذكر الله تضرعا وخيفة والنهي عن الغفلة ...

ويأتي هذا الأمر وهذا النهي في صدر توجيه الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين .

فاذا هو تكملة لمعالم الطريق وتزويد لصاحب الدعوة بالزاد وبالعون في الطريق الشاق الطويل).[2]

---

(١) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٤٢٧ بتصرف يسير .

(٢) المرجع السابق ، م ٣ ، ص ١٤٢٨ بتصرف يسير .

* **ثانيا : مقارنة بين سورتي يونس وهـود وربطهما بالانعام والاعراف :**

لاحظ المؤلف أن هذه السور الأربع يرتبط بعضها مع بعض في بعض النواحي وتختلف في الأخرى ، فقال في تعريفه بسورة يونس : " والعجيب أن هناك شبها كبيرا بين هاتين السورتين - يونس وهود - وتلكما - الانعام والاعراف - في الموضوع وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك [1] ... وأشار الى طريقة الانعام والاعراف في عرض العقيدة .

فبين أن سورة الأنعام تحدثت عن حقيقة العقيدة ذاتها وواجهت الجاهلية بها ثم فندت هذه الجاهلية وحللّتها عقيدة وشعورا وعبادة وعملا .

أما سورة الأعراف فتناولت حركة هذه العقيدة في الأرض وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ .

ثم قال المؤلف رحمه الله : وكذلك نحن هنا في سورتي يونس وهود نلاحظ ان الشبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضا ... الا أن سورة الانعام تنفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الايقاع ، وسرعة وقوة في النبض ، وفي التصوير والحركة ... بينما تمضي سورة يونس في ايقاع رخي ونبض هادىء وسلاسة وديعة ! ...

فاما هود فهي شديدة الشبه كثيرة الترادف بالاعراف موضوعا وعرضا وايقاعا ونبضا. "ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة وملامحها المميزة بعد كل هذا التشابه والاختلاف . [2]

---

(١) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٤٥. وانظر (المنهج الحركي) للدكتور الخالدى ص١٦٢

(٢) المرجع السابق ، م ٣ ، ص ١٧٤٦ بتصرف يسير . وانظر (المنهج الحركى) للدكتور الخالدى ص ١٦٢.

فسورة يونس مثلا واجهت موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية ، فقررت لهم أن الوحي لا عجب فيه .

يقول تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١)

فهذا السؤال - أبعث الله بشرا رسولا ؟ - يستنكر العجب الذى تلقى به الناس حقيقة الوحي : فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله ويتصل به عن طريق الوحي ويكلفه هداية الناس ... مع أنه رجل منهم يعرفهم ويعرفونه يطمئنون اليه ، ويأخذون منه ويعطونه بلا تكلف ولا تحرج .

ونظرا لحاجة كل الناس الى التبليغ والبيان والتحذير فقد كانت قضية الوحي تتلخص في انذار الناس بعاقبة المخالفة وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة من طمأنينة وثبات واستقرار ... (٢)

كما أن سورة يونس واجهت اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وبينت لهم أن ما يعبدونه من دون الله لن ينفعهم ولن يضرهم شيئا ولن يكون لهم شفعاء عند الله ، وقررت لهم صفات الاله الحق الذى يستحق العبادة وآثار قدرته في الوجود .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ

(١) سورة يونس ، آية / ٢ .
(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٥٩ - ١٧٦٠ باختصار وتصرف .

أفلا تذكرون . إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وماخلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ (١)

فهذه هي القضية الأساسية الكبرى في العقيدة قضية الربوبية ... فهم كانوا يعتقدون وجود الله ولكنهم كانوا يشركون مع الله أربابا يعبدونها اما ليقربوهم الى الله زلفى أو يكونوا لهم شفعاء عنده ... أو انهم يشرعون لأنفسهم مالم يأذن به الله .

ان قضية الربوبية سهلة واضحة لاتحتاج الى كدّ ذهني : ان الله جل وعلا هو الذى خلق السموات والأرض ومافيهن ... وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل ، وقدّر اختلاف الليل والنهار ،... ان الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون ربا يدين له البشر بالعبودية ﴿ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ .

نعم ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذى لا يستطيع أحد أن يشفع عنده الا باذنه هو الذى يستحق الربوبية وحده وأن تقدم الشعائر التعبدية له ، ولابد أن يكون هو ربهم الذى لارب غيره وحاكمهم الذى لا سلطان لأحد الا بسلطانه فان المرجع اليه والحساب عنده وهو يجزى المؤمنين والكافرين بالعدل والجزاء الذى يستحقونه . (٢)

---

(١) سورة يونس آية / ٣-٦ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٦١ - ١٧٦٣ بتصرف واختصار .

ومن ثم فهناك آيات كونية تدل على قدرته الالهية واستحقاقه للربوبية في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (١)

فهذه جميعها مشاهد بارزة من مشاهد الكون ننساها لطول ما ألفناها واعتدنا عليها فيرشدنا القرآن اليها ليثير في مشاعرنا الجدة ، وليحي في قلوبنا احساس التطلع الحي، والتيقظ لما في خلقها وطبيعة تكوينها من التدبير المحكم .

وكما هو معلوم أن هذا هو منهج القرآن الكريم في مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية ... يخاطبها بجملتها من أقصر طريق ومن أوسع طريق ومن أعمقه . (٢).

وقد لاحظت في تفسير الاستاذ سيد قطب لهذه الآيات أنه ذكر كلاما عند قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال فيه : الاستواء على العرش كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة باللغة التي يفهمها البشر ويتمثلون بها المعاني على طريقة القرآن في التصوير . (٣)

كما ذكر هذا الكلام عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٤) حيث قال : والاستواء على العرش كناية عن غاية السيطرة والاستعلاء . (٥)

فرجعت الى بعض الكتب لأتيقن من معنى الا ستواء ولأعرف هل وافق رأى الاستاذ

---

(١) سورة يونس آية / ٥ ، ٦ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٦٥ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٦٢ .

(٤) سورة طه آية / ٥ .

(٥) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ٢٣٢٨ .

سيد قطب الصواب أم أنّه أوّل الآية تأويلا لا ينبغي أن يرتضيه عالم مفكـــــر مثلـــه ؟ .

فجاءت في لسان العرب كلمة استوى ولها عدة معان أذكر منها :

استوى بمعنى : اعتدل ، واستوى الرجل : أي بلغ أشده ، واستوى الى بلد كـــذا أي قصد بالاستواء اليه ، واستوى الى السماء : صعد أمره اليها أو أقبل اليها واستوى الرجل : أي انتهى شبابه وقوته ، واستوى: عن اعوجاج فأصبح سويا مستقيمـــا ، واستوى على ظهر دابته : أي استقر ، وتأتي استوى فوق الشيء أو على ظهـــره بمعنى علا . (١)

وقد ذكر السيوطي رحمه اللـه في (الاتقان) أنه وجد صفة الاستواء على سبعـــة أقوال وقد ردها الا واحـدا منها سكت عنه وهو الأخير وهي :

١) استوى بمعنى استقـــر .
٢) استوى بمعنى استولـــى .
٣) استوى بمعنى صعـــد .
٤) استوى بمعنى ارتفع وعـلا .
٥) واستوى كلام منقطع عما قبله .
٦) واستوى بمعنى أقبل وعمد وقصد .
٧) واستوى بمعنى اعتـــدل . (٢)

وقد ذكر القرطبي رحمه اللـه : أن السلف الصالح أثبتوا أنه جل وعلا استوى على عرشه حقيقة ، ولكنهم جهلوا كيفية الاستواء فانه لا تعلم حقيقته كما قال مالـــك رحمه الله : الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب ، والسؤال عـــن هذا بدعـــة . (٣)

---

(١) لسان العرب ، جـ ٢

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، جـ ٢ ، ص ٨ ، ٩ .

(٣) الجامع لاحكام القرآن ـ القرطبي ، جـ ٣ ، ص ٢٦٥٥.

فهم رحمهم الله كانوا يأخذون بظاهر الآية فيما يخبر به المولى عز وجل عن نفسه أو يصف به نفسه وكذلك نحن يجب علينا أن نؤمن بما قاله جل وعلا عن نفسه بدون تأويل أو تحريف ٠

ونخلص من هذا كله الى أن الأستاذ سيد قطب لم يساير السلف الصالح في فهمهم للآية ولم يتبعهم ، وانما أوّل الآية تأويلا لا نرتضيه واعتمد في ذلك على شاهد من اللغة من معاني الاستواء يشهد له ٠

فهو قد أخطأ في هذه الجزئية حيث أوّل الاستواء بالاستعلاء والسيطرة ، وكان يجب عليه أن يقرر ما قرره السلف الصالح ٠

كما واجهت سورة يونس ـ عليه السلام ـ اطمئنان المشركين للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة وتكذيبهم بلقاء الله ، بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة وتعريفهم بأن هذه الحياة الدنيا انما هي للابتلاء وفي الآخرة الجزاء ٠٠٠ ثم واجهتهم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة ٠

ثم واجهت ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية وما يترتب على تكذيبهم بالبعث والآخرة وما يترتب على تكذيبهم بالوحي والنذارة ، من انطلاقهم في واقع الحياة العملية يزاولون خصائص الربوبية في التشريع لحياتهم واعتقادهم بالشركاء ٠

ولقد احتشدت السورة لابلاغ تلك الحقائق بشتى المؤثرات الموحية التي يحفل بها القرآن الكريم :

١) من مشاهد هذا الكون وظواهره الموحية للفطرة البشرية بحقيقة الالوهية الدالة على التدبير الحكيم ٠

٢) ومن مشاهد الأحداق والتجارب التي يشهدونها بأعينهم ويعيشونها بأنفسهم ولكنهم يمرون بها غافلين عن دلالتها على التدبير والتقدير والتصريف ٠

٣) ومن مصارع الغابرين من المكذبين التي تعرض مرة في صورة الخبر ، ومـــــرة في صورة قصص بعض الرسل ٠

٤) ومن مشاهد القيامة وعرض عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين عرضا حيـــــا مؤثـرا في القلوب ٠

٥) ومن تحدى المشركين المكذبين بالوحي أن يأتوا بآية من مثل هذا القرآن ، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم الى تركهم ومصيرهم ٠٠٠ فالتحدى ثم المفاصلـــة والاستعلاء كلها تؤكد وثوق النبي صلى الله عليه وسلم من الحق الذى معه ٠ (١)

وهكذا نرى أن القضية الأساسية التي يعتمد عليها السياق في سورة يونس هـــي قضية الألوهية والعبودية وتجلية حقيقتهما ، وبيان مقتضيات هذه الحقيقـــة في حياة الناس ٠

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله : ان حياة البشر لا تستقيم الا اذا استقامـت حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في اعتقادهم وتصورهم واستقامت كذلك فـــي حياتهم وواقعهم ٠

كذلك لا تستقيم حياة البشر بدون استقامة حقيقة العبودية في اعتقادهــــم وتصورهم ، وفي حياتهم وواقعهم ٠

ان انسانية الانسان وكرامته وحريته الحقيقية تتحقق بأمور :

١) افراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية والقوامة والحاكميـــة ٠

٢) جعل حق الهيمنة لله على حياة الناس في الدنيا والآخرة وفي السر والعلانيـــة

٣) الاعتراف بحق التشريع له وحده في كل جانب من جوانب الحياة الانسانية ٠

---

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ، م ٣ ، ص ١٧٤٨ : ١٧٥٢ باختصار وتصرف ٠

أما سورة هود فالمتأمل لها يلاحظ أن قصص الأنبياء فيها هو جسم السورة وقد جاء ليشهد وليمثل تصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها كما جاء ليستعرض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشرى .

* **فالسورة استعرضت** حركة العقيدة الاسلامية في التاريخ البشرى كله ، من لدن نوح عليه السلام الى عهد محمد عليه الصلاة والسلام وقررت أنها قامت على حقائق أساسية واحدة هي الدينونة لله وحده لاشريك له والعبودية له وحده بلا منازع والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ مع الاعتقاد والجزم بأن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء وأن الجزاء يكون في الآخرة وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للانسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء .

ولأجل تعميق هذه الحقائق الاعتقادية في الكيان البشرى وتثبيتها في الضمائر والنفوس احتوت السورة على مؤثرات موحية لها تأثير أكيد فعال في النفوس ومن ذلك :

١) الترغيب في خيرى الدنيا والآخرة للمستجيبين لرسل الله جل وعلا من ارسال السماء عليهم مدرارا الى الانعام عليهم بزيادة قوتهم الى غفران ذنوبهم الى جعلهم من أصحاب الجنة الخالدين فيها .

والترهيب أيضا من خيرى الدنيا والآخرة للمعرضين عن رسل الله وعن الحق وذلك عن طريق بيان حرمانهم من رحمة الله ودخولهم في لعنة الله .

وتوفية أعمالهم في الدنيا واحباط ما صنعوا فيها ، ومضاعفة العذاب لهم في الآخرة بنار الله الموقدة .

٢) ذكر القصص الطويل الذى يصدق ذلك الترغيب والترهيب ومن ذلك استعراض موكب الايمان بقيادة الرسل على مدار الزمان وكل واحد منهم يواجه الجاهلية الضالة في كل عصر بكلمة الحق الموحدة الجازمة : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

٣) اظهار السورة للمكذبين صور أنفسهم حالة مواجهتهم للعذاب الذى استعجلوه حين يحيط بهم .

٤) بيان بعض مشاهد يوم القيامة وما يجده المكذبون من خزى ومن عذاب يومئذ حيث لا نصير ولا أرباب ولا شفعاء .

٥) ذكر السورة لمؤثر ترتجف له القلوب ألا وهو حضور الله سبحانه وتعالى واطلاعه على مايخفيه البشر في صدورهم وهم لا يشعرون ذلك .

* **ويمكن أن نلم** بهذه الحقائق التي قامت عليها العقيدة الاسلامية حينما نقرأ الآيات الأولى من السورة .

يقول تعالى : ﴿ أَلَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

فنرى أنها تتلخص في النقاط التالية :

١) اثبات الوحي والرسالة .

---

(١) سورة هود آية : ١ : ٤ .

٢) العبودية لله وحده بلا شريك .

٣) جزاء الله في الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة .

٤) جزاء الله في الآخرة للمكذبين وعودة الجميع الى الله عصاة طائعين .

٥) قدرته المطلقة وعلمه اللطيف الدقيق وسلطانه غير المحدود .

فالنقطة الاولى تنطق بها الآية الاولى فهي تقرر أن هذا الكتاب المحكم الآيات المفصل وفق أغراض عظيمة عجز عن أن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله أي أحد ... وثبت كونه وحيا من لدن حكيم خبير .

والثانية : نراها فيما حمله هذا الوحي وتضمنته آيات هذا الكتاب المحكمة المفصلة من :

١) توحيد الربوبية والعبودية لله وحده .

وتتمثل في ربوبيته للناس والربوبية تعني القوامة على البشر .وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله لا من عند أحد سواه .

٢) وأيضا الاقرار بالرسالة فهو أساس للتصديق بالقضايا التي جاءت الرسالة لتقريرها - النذارة والبشارة - كما أن هذا الاقرار هو الذى يجعل هناك ضابطا لما يريده الله من البشر كي يتلقوا كل ما يتعلق بالعقيدة من مصدر واحد هو الرسول .(١)

أما بالنسبة للنقطة الثالثة والرابعة فهي تتضمن البشرى للتائبين والوعيد للمعرضين المكذبين وهاتان هما قوام الرسالة وقوام التبليغ ، وقد كان في علم الله أن طبيعة البشر يؤثر فيها الترغيب والترهيب لذا كان

---

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٢- ١٨٥٣ بتصرف وايجاز .

من الضروري جدا لاكمال شعور المرء بأن وراء الحياة حكمة الاعتقاد باليوم الآخر وبكل مايحدث فيه وخاصة مايجده فيه من جزاء وعقاب ، ومن ثم ليدرك صاحب الفطرة السليمة أن هدفه ليس في الحصول على الثواب والجزاء في ذلك اليوم ، وانما لأجل أن يحيا حياة تليق بالانسان الذى كرمه الله جل وعلا على كثير من خلقه ٠

وليشعر المستغفر التائب الصالح أن طمأنينة القلب الى العاقبة والاتصال بالله والرجاء في نصره واحسانه هو متاع حسن له حيث يرتفع بحسه درجة عن الأشياء المادية فهو اذا ضيق عليه في الرزق في الدنيا سينال [1] فضل الله حتما في الآخرة وان أوسع عليه أيضا في الدنيا ففضل الله خير وأوسع في الآخرة ففي كلا الحالين التضييق أو التوسيع في الدنيا سينال المستغفرون التائبون فضل ربهم واحسانه الواسع لهم في الآخرة وقد يكون الفضل والاحسان في الدنيا والآخرة معا ٠

أما من أعرض وتولى عن هدى الله ونهجه القويم فله الوعيد الشديد بعذاب أليم [2] حيث الكل والجميع يرجع الى الله الذى هو على كل شيء قدير ٠

أما قدرته جل وعلا المطلقة وعلمه اللطيف الخبير وسلطانه غير المحدود فتنطق بها الآيات الآتية ٠

يقول تعالى : ﴿ **أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٠ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي**

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٣ـ ١٨٥٤٠

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ، جـ ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، وكذا الظلال ، م ٤ ، ص ١٨٥٣٠

الأَرضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزقُهَا وَيَعلَمُ مُستَقَرَّهَا وَمُستَودَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ • وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلتَ إِنَّكُم مَبعُوثُونَ مِن بَعدِ المَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحرٌ مُبِينٌ • وَلَئِن أَخَّرنَا عَنهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحبِسُهُ أَلَا يَومَ يَأتِيهِم لَيسَ مَصرُوفاً عَنهُم وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يستهزءون • وَلَئِن أَذَقنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحمَةً ثُمَّ نَزَعنَاهَا مِنهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ • وَلَئِن أَذَقنَاهُ نَعمَاءَ بَعدَ ضَرَّاءَ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ • إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَغفِرَةٌ وَأَجرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١)

ونرى أن الآيتين الأوليين تستحضران مشهدا تخافه القلوب المتدبرة ألا وهو حضور المولى تبارك وتعالى واحاطة علمه بينما نرى بعض العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاف منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله الكريم والحال ان الله سبحانه وتعالى يعلم ماهو أخفى فليست أغطيتهم بساتر دون علمه فهو عليم بالأسرار المصاحبة للصدور التي سميت بذات الصدور لشدة خفائها وما من حركة أو سكنة أو خفقة قلب تغيب عنه ، وما من دابة من انسان أو حيوان أو زاحفة أو هامة مما يدب على وجه الأرض ويسير في دروبها الا وعند الله علم بها وعليه رزقها ويعلم ذهابها وايابها و مستقرها ومكمنها • (٢)

---

(١) سورة هود من الآية : ٥ : ١١ •

(٢) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٥ ـ ١٨٥٦ بتصرف وايجاز •

وهاتان الآيتان تعرفان الناس بربهم الحق لتعقد الصلة بينهم وبين خالقهم ، ولأجل تعبيد البشر للخالق الرازق العليم المحيط .

أما الآيات الأخرى فتستمر في اطلاع الناس على آثار قدرته وحكمته ثم تتطرق الى ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء .

وقد أحسن الاستاذ سيد قطب رحمه الله في أثناء تفسيره لهذه الآيات بالابتعاد عن التعرض لبعض الأمور الغيبية كالاستفسار عن حالة الماء مع كيفية كون العرش العظيم عليه ...

يقول رحمه الله : (أما كيف كان هذا الماء وأين كان وفي أية حالة من حالاته كان ، وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء ... فزيادات لم يتعرض لها النص وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئا على مدلول النص في هذا الغيب الذى ليس لنا من مصدر لعلمه الا هذا النص وفي حدوده). (١)

* وعرضت السورة أيضا مواقف الأنبياء والرسل عليهم السلام وهم يواجهون السخرية والاستهزاء والاعراض والتكذيب والايذاء من قبل المشركين المعاندين يواجهون ذلك كله بالصبر والثبات والثقة بنصر الله للمؤمنين وبقدرته على تدمير الكافرين ومثل ذلك ماجاء في قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن

---

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٧ .

كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ • وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ • وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ • وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ • قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ • قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (١)

وما جاء أيضا في قصة شعيب عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ • قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ • وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ • وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ • قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ • قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ • (٢)

* **كما** استهدفت السورة تقرير ربوبية الله وحده في حياة البشر لأنها القضية التي كانت تواجهها الرسالات وخاصة الرسالة الأخيرة .

---

(١) سورة هود الآية : ٢٧ ـ ٣٣ .

(٢) سورة هود الآية : ٨٧ ـ ٩٢ .

* **ثالثا : مقارنته بين سورتي الرعد وفاطر :**

ففي تعريفه بسورة الرعد يقول : " وهذه السورة من أعاجيب السور القرآنية حيث تكون ذات نفس واحد ، وايقاع واحد ، وجو واحد وعطر واحد من بدايتها الى نهايتها ، ومع ذلك فهي تملا الحس صورا ومشاهد وظلا لا وتطوف بالقلب المبصر المدرك آفاقا وعوالم وأزمانا!.[1]...

كما يقول : " ان هذه السورة تعرض على القلب البشرى الكون كله في شتى مجالاته الاخاذة في السماء ومافيها من شمس وقمر وسحاب ورعد ومطر والارض ومافيها من رواس وأنهار وجنات وخضرة وثمار مختلفة الاشكال والوان مع أنها نبتت في قطع من الارض متجاورات وتسقى بماء واحد وفي أحوال السماء من برق يخيف ويطمح ، ورعد يسبح بحمد الله وملائكة تخاف وتخشع ، وصواعق يصيب بها من يشاء ."[2]

ونجده في تعريفه بسورة فاطر يقول : " هذه السورة المكية نسق خاص في موضوعها ، في سياقها أقرب ماتكون الى نسق سورة الرعد ، فهي تمضي في ايقاعات تتوالى من بدئها الى نهايتها على القلب البشرى توقظه ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون وليتدبر آيات الله

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٠٣٩ . بتصرف .

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٢٠٤٠ بتصرف .

المبثوثة في تضاعيفه المتناثرة في صفحاته ، وليتذكر آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته ، وليتصور مصارع الغابرين في الارض ومشاهدهم يوم القيامة ، وليخشع وهو يواجه بدائع صنع الله في أجزاء الكون وأعماق النفس ، وحياة البشر وأحداث التاريخ .... ذلك كله في اسلوب وفي ايقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك ويتأثر تأثر الاحياء ". (١)

فسورة الرعد موضوعها الأساسي العقيدة وقضاياها كقضية التوحيد ، وقضية الوحي والرسالة وقضية البعث والجزاء وغيرها ، وهذه القضايا تعرض هنا في هذه السورة وحولها اطار كبير هو هذا الكون بكل ما فيه من عجائب وغرائب من سماوات مرفوعة بغير عمد ومن شمس وقمر وليل ونهار متعاقبين ، ومن جبال راسيات وأنها سائرة وجنات وزرع ونخيل مختلف شكله وطعمه ومن رعد وبرق ، وصواعق وأمطار ، وحياة وانبات وغير ذلك من مجالات الكون الأخاذة .

هذا ولقد تناول مؤلف الظلال - رحمه الله - السورة فقسمها الى شطرين :

---

(١) الظلال م ٥ ص ٢٩١٨ بايجاز وتصرف بسيط ، ولى ملاحظة بسيطة كان لاستاذى ، الفاضل الدكتور محمد التازى - رحمه الله - الفضل فيها : وهى أنه تأدبا مع الله جل جلاله ينبغى ألا يوصف بالقوة أو القدرة ... حيث وردت جملة من كلام المؤلف فى سورة فاطر يقول فيها : " السمة البارزة هى تجميع الخيوط فى يد القدرة المبدعة . فالافضل قول اليد القادرة أو يد القادر المبدع فأردت التنويه عن ذلك فقط .

* **الشطر الأول :** [١] ذكر فيه أنه يشير الى جملة قضايا السورة ثم استعرض عجائب الكون التي تدل على قدرة الخالق وأنه جل وعلا سخر معظم مافي الكون للبشر ليبلوهم فيما آتاهم وارسل اليهم الرسل عليهم السلام بوحيه ليرشدوهم ويبصرونهم الى وجوب توحيد العبادة للخالق العظيم ·

ويلفتون أنظارهم الى أن المستحق للعبادة هو من بسط لهم هذه الأرض وثبتها بالجبال الرواسي ، وشق لهم الأنهار الجارية وجعل لهم من الثمار والنباتات مختلف الأشكال والطعوم والألوان · [٢]

ومع ذلك يستنكرون أن يبعثهم الله خلقا جديدا ·

يقول تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا ······ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٣] بل يتجرأون فيستعجلون العذاب متناسين أنه على كل شيء قدير ··· وغافلين عن الفرق الهائل بين الخير الذى يريده الله لهم والشر الذى يريدونه لأنفسهم ومن وراء ذلك عمى أبصارهم وبصائرهم ، ثم يبين سياق السورة مدى علم الله الواسع المحيط فهو يعلم الحمل المكنون في الأرحام ··· أرحام جميع الاناث ··· في كل بقعة من بقاع العالم ، كما أنه يعلم من يسر القول ومن يجهر به ومن هو مستخف بالليل أو ذاهب بالنهار ··· وله جل وعلا حفظة تتعقب كل انسان فتحفظ كل مايصدر عنه من قول أو فعل أو عمل ·

---

(١) سورة الرعد آية : ١ : ١٨ ·

(٢) انظر الظلال ، م ٤ ، ص ٢٠٤٣ : ٢٠٤٧ ·

(٣) سورة الرعد جزء من آية ٥ وجزء من آية ٦ ·

ثم يبين لنا سياق السورة بعضا من الظواهر الكونية التي لها تأثير خاص على النفس ، كالبرق و الرعد والسحاب ، والصواعق ، ويذكر الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع وكذلك الدعاء الحق والدعاء غير المستجاب ، ويعقب الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - على ذلك بقوله : (ان هذه الأمور التي لا تجتمع في نص واحد اتفاقا أو جزافا ، وانما لتلقى جوا من الرهبة والخوف والطمع والضراعة والارتجاف ولتثبت في الاذهان سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر). [١]

* **اما الشطر الثاني**[٢]:فذكر فيه الاستاذ سيد قطب رحمه الله أنه يتحدث عن قضية الوحي والرسالة وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال العذاب وتحقق الوعيد في الدنيا .

فأما قضية الوحي فتأتي هنا على نسق جديد حيث يبين فيها السياق أن الناس في تصديق هذه الحقيقة الكبيرة ينقسمون الى قسمين :

١) مبصرون فهم يعلمون ويعملون الصالحات التي ترضى خالقهم - بقدرتهم البشرية - وبامكاناتهم المحدودة - من خشية له ومن صبر ابتغاء وجهه ومن انفاق على المحتاجين من خلقه ومن مقابلة الاساءة بالحسنة ومن اطمئنان قلوبهم بذكر الله وغير ذلك من الصالحات .

٢) وعمي فهم لايعلمون ، والعمى هنا المقصود به عمى البصيرة وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح بثباتهم على الكفر والضلال وبعنادهم واتباعهم لآبائهم الضالين .

---

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ٢٠٥٠ بتصرف .

(٢) سورة الرعد آية : ١٩ - ٤٣ .

وأما قضية الشركاء فيأتي بها السياق على هيئة سؤال تهكمي حين يقرنون الشركاء بالله القائم على كل نفس المجازى لها على ماعملته في الحياة الدنيا .

وتنتهي هذه القضية بذكر العذاب الذى ينتظر المفترين - هذا الافتراء - في الدنيا والعذاب الأكبر في الآخرة . (١)

وفي المقابل لهم يذكر النعيم والأمن والسلام الذى ينتظر المتقين .

* * *

---

(١) انظر الظلال ، م ٤ ، ص ٢٠٤٦ - ٤٠٦٢ باختصار .

أما سورة فاطر فتلاحظ أنها وحدة متماسكة لانها كلها موضوع واحد فهي عبارة عن ايقاعات تستمر من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث فتجعل القلب يهتف بالايمان ثم الخشوع والاذعان ، يقول مؤلف الظلال رحمه الله : ونظرا لطبيعة السورة فقد اخترنا تفسيمها الى ستة مقاطع متجانسة المعاني لتيسير تناولها والا فهي شرط واحد متصل الحلقات من بدايتها الى نهايتها ٠

* **المقطع الأول :**

يقول فيه المولى تبارك وتعالى : ﴿ الحَمدُ لِلّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِيَ أَجنِحَةٍ مَّثنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ٠ مَّا يَفتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحمَةٍ فَلا مُمسِكَ لَهَا وَمَا يُمسِكْ فَلا مُرسِلَ لَهُ مِن بَعدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ٠ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذكُرُوا نِعمَتَ اللَّهِ عَلَيكُم هَل مِن خَالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤفَكُونَ ﴾ (١)

والحديث في هذه السورة كما نرى يتردد حول الرسل والوحي وما أنزل الله من الحق فيبدا بتقديم الحمد لله خالق السموات والأرض المستحق للثناء والمجد ، ثم يتحدث عن الملائكة الذين هم رسل الله بالوحي الى من يختاره من عباده٠ وهم صلة مابين السماء والأرض ووصفهم الله بأنهم أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وفي هذا دلالة على قدرة المولى تبارك وتعالى ومشيئته المطلقة في تشكيل خلقه ،

---

(١) سورة فاطر آية : ١ : ٣ ٠

ثم يتحدث عن رحمة الله التي تتمثل في مظاهر لا تعد ولا تحصى ويعجز الانسان عن عدها ،وتشمل رحمته تعالى والرزق والصحة والقوة والمال والولد والسلطان والجاه والشعور بوجود الرحمة هو الرحمة ذاتها ٠

يقول مؤلف الظلال : (انها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته ٠ آية من القرآن تفتح كوة من النور ، وتفجر ينبوعا من الرحمة وتشق طريقا ممهودا الى الرضا والثقة والطمأنينة والراحة في ومضة عين وفي نبضة قلب وفي خفقة جنان)٠ (١)

ولا نجد أنه سبحانه وتعالى يذكر الناس بنعمته عليهم وأنه وحده الخالق والرازق الذى لا اله الا هو فالله ينعم عليهم ويرزقهم ولكنهم لا يشكرون ، بل ينصرفون عن حمده وشكره رغم انهم يرون ويحسون ويلمسون هذه النعم التي أنعم الله بها عليهم ولكنهم ينصرفون عن شكره وحمده تعالى ٠

* **المقطع الثاني :** (٢)

يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ليسليه ويخفف عنه وطأة كذب المشركين له ويبين له أن الأمور كلها ترجع الى الله وحده ، ثم يخاطب الناس ويخبرهم أن وعد الله حق فلا تغرنهم الحياة الدنيا فليحاولوا جاهدين أن يبتعدوا عن الغرور ، ويحذرهم من الشيطان فهو عدوهم اللدود الذى يلعب بهم ويخدعهم فيوسوس لهم ويزين لهم ما يقودهم الى جهنم وبئس المصير ٠ فاذا لم يمتثلوا

---

(١) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٩٢٤٠

(٢) سورة فاطر آية : ٤ : ٨

للأمر ويأخذوا حذرهم ، بل ويصروا على كفرهم فلهم عذاب شديد ذلك أن المولى تبارك وتعالى توعد الذين كفروا بعذاب أليم ووعد الذين استجابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بأجر كبير ٠

ثم نجده يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم ويبين له أن الهدى والضلال بيد الله فهو يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويرشده وألا يأسى عليهم وتذهب نفسه حسرات فالله عليم بما يصنعون ٠ (١)

* **المقطع الثالث :** (٢)

نرى في هذا المقطع مشاهدات متوالية في الكون يظهر القرآن فيها دلائل الايمان ويجعل من مناظره المعروضة للبصائر والأبصار أدلة وبراهين للايمان ٠ فمشهد الرياح تذهب يمينا وشمالا حيث يريدها خالقها أن تذهب الى بلد ميت قدّر الله أن تدب فيه الحياة بواسطة هذا السحاب ، والماء كما نعلم حياة كل شيء في هذه الأرض ، وبتأمل هذه المعجزة لا يستبعد النشور والبعث ثم يأتينا مشهد من يطلب أسباب العزة ووسائلها عند الله وهو يستعلي على شهوات النفس ، ويراقب الله في السراء والضراء فلا يصدر منه الا العمل الصالح والقول الصالح اللذان يصعدان الى الله ويرتفعان اليه فيمنح صاحبهما العزة ، أما من يمكرون السيئات قولا أو عملا فلا يملكون سبيلا الى العزة بقوتهم أو بطغيانهم ٠٠٠ وانما نهايتهم الى البوار والى العذاب الشديد ٠ ثم يطالعنا

---

(١) في ظلال القرآن ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢٥ بتصرف ٠

(٢) سورة فاطر آية : ٩ : ١٤٠

بعد ذلك مشهد النشأة الأولى للانسان وكونها من تراب ٠٠ وما لا يلابس تلك النشأة من حمل في بطون الأمهات ومن عمر طويل أو عمر قصير لجميع المخلوقات من طير أو حيوان أو انسان أو شجر أو غير ذلك ٠

يقول المؤلف رحمه الله : والتعمير يكون بطول الأجل وعد الاعوام ، كما يكون بالبركة في العمر ، والتوفيق الى انفاقه ، وكذلك يكون نقص العمر بقصره في عد السنين ، أو نزع البركة منه وانفاقه في اللهو والعبث والكسل والفراغ ، فرب ساعة تعدل عمرا بما يحتشد فيها من أفكار ومشاعر ، وبما يتم فيها من اعمال وآثار ، ورب عام يمر خاويا فارغا لاحساب له في ميزان الحياة ولا وزن له عند الله ، وكل ذلك في كتاب ، ومثل الانسان بقية المخلوقات الحية وكذلك الأشياء كالصخور والأنهار أو مايصنعه الانسان من بناء معمر وغير ذلك.[1]

ثم يأتي مشهد الماء بنوعيه فهذا عذب سائغ مذاقه ، وهذا ملح مر طعمه وكلاهما يفترقان ويلتقيان وكلاهما مسخر للانسان فالماء العذب قوام الحياة لكل حي والماء المالح المر الموجود في البحار والمحيطات أيضا تستمد منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتات وأخيرا الانسان نفسه ، ومن كل نأكل لحما طريا ، ونستخرج منه الحلية من لؤلؤ ومرجان ، ونستخدمه لسير السفن عليه للسفر والتجارة ٠

---

(١) في ظلال القرآن ، م ٥ ، ص ٢٩٣٣ بتصرف ٠

* **المقطع الرابع :** (١)

يخاطب الله الناس لينظروا في علاقتهم بالله وفي حقيقة أنفسهم فهو الغني الحميد يستطيع أن يذهبهم ويأتي بخلق جديد .

ويرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم بالتسلية عما يلقى والتسرية عما يجد مبيننا لهم ولمن اتبعه طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال والاختلاف بين طبيعتيهما أصيل وعميق ، كالاختلاف الأصيل بين العمى والابصار ، والظلمات والنور والموت والحياة ، وكذلك هنا فالفرق واضح بين الايمان والكفر ، فذاك بصر والآخر عمى ، والايمان نور وظل وحياة وان الكفر ظلمة وحرور وموت ، ونجد أن هناك تنبيها وتحذيرا للمكذبين الذين يكذبون الرسول في الحق الذى أتى به والنور الذى دعاهم اليه ، فبامكان العلي القدير أن يغنيهم ويهلكهم عن آخرهم كما فعل بأبائهم العصاة المكذبين . (٢)

* **المقطع الخامس :** (٣)

نجد في هذا المقطع قراءات في كتاب الكون وصحفه الرائعة المتعددة الألوان والأنواع والأجناس ، فالثمار مختلفة الألوان والجبال متلونة الشعاب ، وكذلك الناس والدواب والانعام كل تلك الصحف الرائعة في كتاب الكون المفتوح. (٤)

---

(١) سورة فاطر ، الآية ١٥ ـ ٢٦.

(٢) في ظلال القرآن ، جـ ٥ ، ص ٢٩٣٦ بتصرف .

(٣) سورة فاطر من آية : ٢٧ : ٣٨.

(٤) في ظلال القرآن ، جـ ٥ ، ص ٢٩٤١ بتصرف .

كما نجد في هذا المقطع بيانا لكون القرآ ن الكريم هو الحق المصدق لما بين يديه وانه خير ارث يتركه المصطفى صلى الله عليه وسلم لمن اتبعه من المسلمين وخاصة الصالحين منهم السابقين بالخيرات ، فهؤلاء وعدهم العلي القدير جنات عدن يدخلونها ويتنعمون فيها حيث يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، ويتوجهون للكريم الذى أنقذهم من النار وأحلهم دار المقامة برحمته بالحمد والشكر .

وبالمقابل نرى أن العصاة الكافرين توعدهم القادر الجبار بنار جهنم يخلدون فيها ويصطرخون ويندمون ولكن بعد فوات الأوان ، بل لا يلتفت اليهم ويؤنبون على كفرهم ويزاد في عذابهم أن يقال لهم : ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ .

فالمولى تبارك وتعالى عالم غيب السموات والأرض وما فيهما كما أنه عليم بذات الصدور وعليم بمن يستحق النعيم وبمن يستحق العذاب .

* **المقطع السادس :**(١)

ويشتمل على عدة جولات واسعة المدى :

* جولة مع البشرية في أجيالها المتعاقبة .
* جولة في السموات والأرض للبحث عن أى أثر للشركاء الذين يدعونهم من دون الله .

---

(١) سورة فاطر من الآ ية : ٣٩ ـ ٤٥ .

* جولة في السماوات والأرض لرؤية يد الله القوية الممسكة بالسموات والأرض أن تزولا .

* جولة مع المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها وقد سبق لهم أن عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم ، ثم نقضوا العهد وخالفوه ولما جاءهم النذير ازدادوا نفورا واعراضا .

* جولة في مصارع المكذبين السابقين وهم يشهدون آثارهم الدائرة ولا يخشون أن تمضي فيهم سنة الله الجارية بدوران الدائرة عليهم .

والختام الموحي الرهيب : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾

ففضل الله العظيم في امهال الناس وتأجيل هذا الأخذ المدمر المهلك (١)

نسأل الله السلامة في الدين والدنيا والآخرة .

* * *

---

(١) في ظلال القرآن ، جـ ٥ ، ص ٢٩٤٦ بتصرف يسير .

* **رابعا : مقارنته بين سورة التكوير والانفطار وبينهما وبين الانشقاق :**

وفي تلك المقارنة بيّن المؤلف أنه يجمع بين السور الثلاث الحديث عن الانقلاب الهائل الذى سيحدث في الكون يوم القيامة ، ويشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار والارض والسماء والانعام والوحوش ، وبيّن في نفس الوقت أن لكل سورة شخصية خاصة بها ، واتجاها آخر مختلف عن أختها .

ففي سورة التكوير ذكر تعريفا لها يقول فيه : " هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج السورة فيهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة .

* **الاولى :** حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل .
* **الثانية :** حقيقة الوحى وما يتعلق بها من صفة الملك الذى يحمله وصفة النبى الذى يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحى معه .

ومن ثم فالسورة بايقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن اليه وتركن لتلوذ بكنف الله ، وتأوى الى حماه ، وتطلب عنده الامن والطمأنينة والقرار . "(١)

وفي سورة الانفطار ذكر في تقديمه لها : " أنها تتحدث وهى السورة القصيرة عن الانقلاب الكونى الذى تتحدث عنه سورة التكوير ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتا خاصا بها ففيها ايقاعات من لون

(١) فى ظلال القرآن م ٦ ص ٣٨٣٦ .

جديد هادئ ، ولمسات كأنها عتاب وإن كان في طياته وعيد .

فهي تتحدث عن انفطار السماء وانتشار الكواكب وتفجير البحار وبعثرة القبور ، ثم تتحدث وتعاتب الانسان بعتاب مبطن بالوعيد لعدم معرفته حق نعمة ربه عليه . ثم تقرر علة هذا الجحود والانكار وتصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه وتفرد الأمر لله جل جلاله .(١)

ثم بدأ المؤلف في تفسير سورة التكوير فقال مامعناه :

ان مشهد الانقلاب سيكون عاما تاما لكل معهود حيث يشمل الاجرام السماوية والارضية والوحوش النافرة والانعام الاليفة ونفوس البشر ، فنجد أن كل مستور ينكشف وكل مجهول سوف يعلم ، ونجد أن النفس تقف في موقف الفصل والحساب .

---

(١) في ظل القرآن ، م ٦ ص ٣٨٤٥ بتصرف يسير .

وكل هذه الاحداث الكونية تشير الى ان هذا الكون المنسق الجميل الموزون الحركة المتين الصنعة ستفرط عقده وتتناثر اجزاؤه وينتهي الى أجله المقدر ،فمن خلال هذا الشعور العام نجد أن النفس تطالع مشاهدا هذا الانقلاب العجيب ،فمقدمات البعث تكون بخراب الدنيا واختلال نظامها وهلاك كل من فيها ،فتكوير الشمس يعني برودتها ولايكون لها ضوء ولا حرارة والنجوم تتناثر وتتساقط وترجف الأرض وتضطرب فتزول الجبال من أماكنها ،ونجد أن العشار عطلت أي أهملت وهي التي لاتهمل ،فنجدها لايهتم بشأنها أحد . ونجد أن الوحوش حشرت أي جمعت من كل مكان وزمان وأصبحت في صعيد واحد من شدة الهول العصيب .

وأما تسجير البحار أي ملئت بالماء واختلطت فضاعت الحواجز فيما بينها وأصبحت بحرا واحدا والنفوس زوجت اى جمعت الأرواح بأجسادها بعد اعادة انشائها ،ونجد ان الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت .

وهى التى دفنت وهى حية خوفا من الفقر أو العار وهو سؤال للتوبيخ والتسجيل عليهم وإذا الصحف نشرت، وهى التى كتبت فيها الأعمال وسجلت كل ما اقترفته الانسان نشرت ليقرأ كل انسان كتابه ويعرف عمله وحسابه .

وإذا السماء كشطت : وأزيلت فلم يعدلها وجود .

(وإذا الجحيم سعرت) وأحملت نارها وأوقدت وإذا الجنة أزلفت وقربت وقدمت للمتقين .

(علمت نفس ما أحضرت) شيئا أى كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل مالها وماعليها وهى لاتملك أن تغير شيئا مما أحضرت ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه، نجد أن هذا المقطع الأول ينتهى وقد امتلأ الحسن وفاض بمشاهد اليوم الذى تم فيه هذا الانقلاب الهائل .

ثم يجيء المقطع الثاني ويبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة لها تعابير دقيقة .

(فلا أقسم بالجنس . الجوا الكنس) فلا أقسم بالكواكب المختفية عن العين نهارا ، الجوارى التي تظهر في أفلا كها ليلا كالظباء في كناسها فهي تجرى وتختبيء في كناسها ثم ترجع من ناحية أخرى .

(والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس)

الليل اذا أدبر ظلا مه والصبح اذا أضاء وظهر .

أقسم على أن هذا القرآن قول رسول كريم (ذى قوة عند ذى العرش مكين) .

(ذو مرة فاستوى) فهو شديد القوى ذو حصانة في العقل والرأى ، عند ذ ى العرش أمين على الوحي ، وعلى نقله (وما صاحبكم بمجنون) كما يصفه المشركون بل هو صادق صلى الله عليه وسلم في خبره وهم يعرفون رجاحة عقله وصدقه وأمانته فقالوا عنه انه مجنون بل صاحبكم أمين مؤتمن على الغيب .

وما هو على الغيب بمتهم ، اذ ليس هذا القرآن قول شيطان وليس أساطير الأولين فأين تذهبون ، وأى طريق تسلكون وأية حجة تقولون ، بعد أن سدت عليكم كل الطرق .

ما هذا القرآن الا ذكر وتذكرة وموعظة وعبرة للعالمين .

(لمن شاء منكم أن يستقيم) على سواء السبيل أى من شاء منكم دخول الاسلام فهو الذى ينتفع بهذا الذكر الحكيم ، أما غيرهم فقد ختم الله على قلوبهم وسمعهم "وأبصارهم غشاوة فلا يمكن أن يروا نور الحق ولا أن يهتدوا بنور القرآن .

(وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين)

فالمشيئة من الله سبحانه وتعالى تكون عن طريق اعطاء الحرية في الاختيار فهو سبحانه يعطيكم ارادة الخير فتكون بمشيئته لديكم صفة الخير ولو شاء لسلبكم تلك الارادة فمشيئة الصبر تكون في ظل مشيئته سبحانه وتعالى.(١)

(١) في ظلال القرآن ، م ٦ ، ص ٣٨٣٦ : ٣٨٤٤ بتصرف .

وفي سورة الانشقاق ذكر في تعريفه لها قوله (تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكوير ثم في سورة الانفطار ، ومن قبل في سورة النبأ ، ولكنها هنا ذات طابع خاص : انها هادئة الايقاع ، جلية الايحاء ... سورة فيها طابع استسلام السماء والأرض لله في طواعية وخشوع ، سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة خطوة في راحة ويسر ، وفي ايحاء هادئ عميق .. والخطاب فيها بـ " يا أيها الانسان " فيه تذكير واستجاشة للضمير ، أما المقطع الاخير ففيه تعجب من حال الناس الذين لا يؤمنون ثم بيان لعلم الله بما يخفونه في ضمائرهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم .(١)

(اذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت واذا الارض مدت وألقت مافيها وتخلت وأذنت لربها وحقت).

عند قيام الساعة يرى أن السماء تتشقق وتكون قد استجابت لخالقها وانقادت له وامتثلت لأمره ،وكيف لايكون ذلك وهي في قبضته وتحت سلطانه ونجد الأرض مدت فاتسعت سهولتها واندكت جبالها وزادت البالية ولم يبق في باطنها شيء واستجابت لأمر ربها وامتثلت له هي الاخرى كالسماء .

(يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ،فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا).

يا أيها الانسان المجد في عمله النشيط في تحصيل معاشه وكسبه انك تكدح في طلب الدنيا تشق طريقك وتجهد نفسك حتى تصل في النهاية الى ربك فاليه المرجع واليه المآب بعد الجهاد فاعمل في دنياك على أساس انك ستلاقي ربك بعملك ، فاذا كنت من الصالحين المقربين فسوف حسابا يسيرا سهلا وترجع الى اخوانك المؤمنين فرحا مسرورا ،وتلقى الجزاء نتيجة الصبر من جنة ونعيم مقيم .

وأما من أوتي كتابه من وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ،ويصلى سعيرا انه كان في أهله مسرورا ، انه ظن أن لن يحور ،بل ان ربه كان به بصيرا)

---

(١) في ظلال القرآن ،م ٦ ص ٣٨٦٤ ـ ٣٨٦٥ بتصرف وايجاز.

ويقصد بهم الكفار الفجار يحاسبون حسابا عسيرا يدعزن ثبورا ، وهلا كا وموتا ويصلون سعيرا ، ويقاسون حر جهنم القاسي الشديد فقدكان في أهله مسرورا من حب الشهوات وترف واستمتاع باللذة فرحا مسرورا فقد ظن أن لن يرجع الى ربه للحساب ، ولم يحاسب هلى ما اقترفت يداه .

(ان ربه كان به بصيرا) فقد كان على علم بما يفعله المخلوق علما كاملا فهو لا يتركه سدى ، بل يحاسب المحسن على احسانه والمسيء غلى اساءته ، فهو على علم كامل بما يفعله الخلق .

(فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق فما لهم لا يؤمنون واذا قرى عليهم القرآن لايسجدون).

فالشفق هو الوقت المرهوب بعد الغروب وهو احمرار الشمس عند غروبها فالانسان يحس بوداع اليوم ، وقرب ظهور الليل ووحشته من ظلام ، وما وسق (١) من خشوع وسكون تتسق مع الشفق والقمر اذا اتسق تكامله واستدارته ينير الكون كليلة البدر .

(لتركبن طبقا عن طبق) حالا بعد حال من معاناة سوق تعانونها من أمور بعد أمور حتى يستقر بكم الأمر الى الواحد الأحد ليجازى كلا عن عمله .

(فما لهم لا يؤمنون) ان هذا الكون جميل وموحيات الايمان في لمحات الوجود فهذه اللمحات واللمسات آلا تحسون بها ؟ ،فحقيقة هذا الكون كلها تشير الى أن خالقها عظيم ، فبعد كل هذا لايؤ منون .

(واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون) حقا فمع كل هذه الشواهد الناطقة فهم لايؤمنون ولا يسجدون اذا قرىء عليهم القرآن ، فالواجب سجودهم لله حمدا وشكرا على هذه النعمة التي هم فيها .

(بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غيرممنون).

---

(١) ومعنى وسق : أى جمع وضم ، واتساق القمر : امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة . لسان العرب لابن منظور ج ٣ ،ص ٩٢٧.

فلا زال الكفار يكذبون بآيات الله التي أنعم الله عليهم بها فهو طابعهم الأصيل والله أعلم بما يحفظون في قلوبهم من كفر وحسد وبقضاء (فبشرهم بعذاب أليم) فيارسول الله بشرهم بالعذاب الأليم الذى سيلا قونه يوم الدين .

(الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أما الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات فلهم أجر دائم من الله سبحانه وتعالى وهو غير مقطوع فهذا الثواب أو الأجر يكون في الدار الآخرة دار البقاء والخلود يغدق عليهم من العلى القدير العدل الحكيم . الذى لايظلم أحدا مثقال ذرة .(١)

* * *

---

(١) في ظلال القرآن ،م ٦ ،ص ٣٨٧٠ .

* **خامسا : مقارنته بين كل من سورة الضحى والانشراح والكوثر :**

المتأمل لهذه السور الثلاث يجد انها تتحدث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم - وان كان كثير من السور والآيات لم تخل من ذكره عليه الصلاة والسلام - مبينة ما حباه الله به من الفضل والنعم الجليلة في الدنيا والآخرة وتوجيهه لطريق الشكر والحمد على هذه النعم .

يقول سيد - رحمه الله - فى تعريفه بسورة الضحى : " هذه السورة بموضوعها وتعبيرها ومشاهدها وظلالها وايقاعها لمسة من حنان ونسمة من رحمة وطائف من ود ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع وتنسم بالروح والامل ، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين انها كلها خالصة - للنبى صلى الله عليه وسلم - كلها نجوى لطيفة وحديث لطيف له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين ، كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وألطاف من القربى وراحة للروح المتعب والخاطر المقلق والقلب الموجوع ". [1]

---

(١) الظلال المجلد السادس ص ٣٩٢٥ بتصرف يسير .

فقد كان الوحي بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم زاده الذى يعتمد عليه في مشقة الطريق ولما فتر عنه وانقطع ،استوحش النبي صلى الله عليه وسلم من انقطاع اتصاله بالمولى تبارك وتعالى ومن كثرة شماتة المشركين به .

فنزلت هذه السورة تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه أبدا بدون وحي وقد بدأها المولى عز وجل بالقسم ﴿ بالضحى والليل اذا سجى ﴾ بأنه ماتركه وما ودعه وما جفاه ،وما قطع عنه بره أبدا ،وكيف يقطع عنه ذلك البر وقد رعاه من قبل برحمته وعنايته ، أفيتركه بعد أن أرسل ؟ بل انه جل وعلا سيدخر له في الآخرة من الحسنى خيرا مما يعطيه في الدنيا من التوفيق في الدعوة ومن ازاحة العقبات من طريقه ، ومن تثبته في مواجهة العناد ، والأذى والتكذيب والكيد والشماتة.

ثم وجه المولى عز وجل النظر في واقع حاله وما مضى حياته هل تركه بدون رعاية ، هل تركه فقيرا بدون عطاء أومساعدة ، كلا لم يتركه أبدا ،فقد كان يتيما فآواه اليه وكان فقيرا فأغنى الله نفسه بالقناعة وأغناه بكسب يده ، ومال زوجه خديجة رضي الله عنها .

ثم وجه الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين تبعا له الى رعاية كل يتيم وكفاية كل سائل والتحدث بنعمة الله الكبرى عليه . (١)

---

(١) في ظلال القرآن ،ج ٦ ،ص ٣٩٢٦ : ٣٩٢٧ بتصرف .

ويقول رحمه الله في مقدمة سورة الشرح ،نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى وكأنها تكملة لها ،فيها ظل العطف الندى ،وفيها روح المناجاة الحبيب ،وفيها استحضار مظاهر العناية واستعراض مواقع الرعاية ،وفيها البشرى باليسر والفرح ،وفيها التوجيه الى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق ".(١)

فالسورة توحى بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة وأنه كان يحس العبء الفادح على عاتقه فقد كان في حاجة الى عون وزاد ورصيد ،فنزلت هذه السورة وكانت هذه المناجاة ،وكان هذا الحديث الذى تطمئن به القلوب وتنشرح له الصدور .

انظر في صدرك ألا ترى فيه الروح والانشراح والنور ،وتأمل في حسك مذاق هذا العطاء ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب واليسر مع كل عسر والرضى مع كل حرمان ان العسر لايخلو من يسر يصاحبه ويلازمه وقد لازمه معك فعلا . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك فخفف حملك الذى أنقض ظهرك وكان اليسر مصاحبا للعسر يرفع اصره ز ويضع ثقله ثم اذا فرغت من شغلك مع الناس والأرض فتوجه بقلبك كله الى ربك وحده انه لابد من الزاد للطريق وهنا الزاد ،ولابد من العدة للجهاد وهنا العدة .

وتنتهى السورة كنهاية سورة الضحى وقد تركت الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذى ينسم على روح الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه الودود الرحيم . والشعور بالعطف على شخصه صلى الله عليه وسلم .(٢)

---

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٢٩ .

(٢) في ظلال القرآن ،م ٦ ،ص ٣٩٢٩ : ٣٩٣١ بتصرف وايجاز .

كما يربط المؤلف بين هاتين السورتين وسورة الكوثر في كونها خالصة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يسرى عنه ربه فيها ويعده بالخير ويوعد أعداءه بالبتر ز ويوجهه الى طريق الشكر (١) .

فالسورة هنا تمثل صورة من حياة الدعوة والداعية ،صورة من الكيد والاذى للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوة الله التي يبشر بها، وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة التى معه ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه صلى الله عليه وسلم .... وكذلك نجد أن السورة تمثل حقيقة الهدى والخير والايمان وحقيقة الضلال والشر والكفران ،فالسورة هنا نزلت لتمسح على قلبه صلى الله عليه وسلم بالروح والندى وتقرر حقيقة الخير الباقى الممتد الذى اختاره له ربه وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

---

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٨٧ .



المبحـــث الخامـــــس

الفــرق بين الوحــدة الموضوعيــة والتفسير الموضوعـــي

* المبحث الخامس : الفرق بين الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعى :

أرى من وجهة نظرى أنه لابد من أن أتعرض وأوضح أولا تعريف كل من الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعى قبل بيان الفرق بينهما :

(١) تعريف الوحدة الموضوعية :

هى البحث عن القضايا الخاصة التى عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر مافيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذى نبحثه لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية الكبرى في القرآن الكريم كله[1]، أما بالنسبة للوحدة الموضوعية في السورة فهى - البحث عن الهدف أو المقصد الواحد - أو الاهداف والمقاصد للسور الطوال - الذى عرضت له كل سورة من سور القرآن ومدى ارتباطه بأجزاء السورة وموضوعتها الاخرى - من جدل الى قصص الى تشريع الى وصف - فايجاد الوشائج التى تربط بين موضوعات السورة وما تثيره السورة من أحكام ومبادىء، وما تذكره من قصص ومشاهد والخروج من ذلك كله الى هدف واحد يجمع بينها هو الوحدة الموضوعية للسورة ، أما ربط السورة بهدفها مع السور التى قبلها بأهدافها والسور التى بعدها أيضا بأهدافها ، فهو ما نطلق عليه " الوحدة الموضوعية الكبرى للقرآن الكريم " حيث تتربط هذه الاهداف

---

(١) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازى ص ٣٣ - ٣٤

بعضهـا ببعض ويصدق بعضهـا بعضا ، ونصل فى النهاية الى وجوب عبـادة الله وحده لا شريك لـه ، وامتثال أمره واجتنـاب نهيـه ٠

* ومثال الوحدة الموضوعيـة :

(١) سورة البقرة ، وقد أفاض في الكلام عليهـا الدكتور محمد دراز فى كتابـه " النبأ العظيم " حيث ذكر أنها على طولهـا تتألف وحدتها من مقدمـة وأربعـة مقاصد وخاتمـة على هذا الترتيـب :

* **المقدمة :** في التعريف بشأن هذا القرآ ن ، وبيان أن مافيه من الهدايـة قد بلغ حدا من الوضوح لا يترتدد فيـه ذو قلب سليم ، وانما يعرض عنـه من لا قلب لـه ، أو من كان فى قلبـه مرض ٠

* **المقصد الاول :** في دعوتـه النـاس كافـة الى اعتناق الاسـلام ٠

* **المقصد الثانى :** في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك باطلهـم والدخـول في هذا الدين الحـق ٠

* **المقصد الثالث :** في عرض شرائع هذا الدين تفصيـلا ٠

* **المقصد الرابع :** ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمـة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها ٠

* **الخاتمـة :** في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهـم في آجلهـم وعاجلهـم ٠ (١)

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد دراز ص ١٦٣

(٢) سورة الاعراف أيضا : وهي سابع سورة في ترتيب المصحف وان كانت أطول سورة في المكي ، وأول سورة عرضت للتفصيل في قصص الانبياء مع أممهم الا أنه يمكن تلخيص وحدتها في مقدمة وثلاثة مقاصد وخاتمة ·

فالمقدمة كانت بالانذار بوجوب الايمان والبعد عن الكفر والعصيان

* **المقصد الاول :** توحيد الله في العبادة والتشريع ·
* **المقصد الثاني:** تقرير البعث والجزاء ·
* **المقصد الثالث :** تقرير الوحي والرسالة بوجه عام ، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم بوجه خاص · (١)

(٢) **تعريف التفسير الموضوعي :**

اختلف تعبير المفسرين المحدثين في تعريف التفسير الموضوعي اختلافا بسيطا على أقوال منها :

(١) جمع الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد والموضوع الواحد وترتيبها حسب النزول كلما أمكن ثم تناولها بالشرح والبيان والتعليق ، وافرادها بالدرس المنهجي الموضوعي الذي يجليها من جميع جوانبها وجهاتها ووزنها بميزان العلم الصحيح · (٢)

---

(١) تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ص ٤٤٨

(٢) البداية في التفسير الموضوعي للدكتور عبد الحي الفرماوي ص ٥٢ بتصرف ·

(٢) بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد وان اختلفت عباراتها وتعددت اماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع وبذلك يستوعب المفسر جميع نواحيه وله أن يستعين ببعض الاحاديث المناسبة للبيان والايضاح ٠ (١)

(٣) جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية ٠ (٢)

وبالتأمل فيما سبق نرى أن الجميع اتفق على أن التفسير الموضوعي يعني جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية وسأختار بمعونة الله موضوع الاخلاص كمثال للتفسير الموضوعي وأتحدث أولا عن معنى الاخلاص في اللغة ٠

جاء في المفردات : خلص : الخالص كالصافي الا أن الخالص هو مازل عنه شوبه بعد أن كان فيه ، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه ٠ (٣)

وجاء في أساس البلاغة : خلص الشيء خلوصا فهو خالص ، وخلصته : صفيته ، ومن المجاز أخلص له المودة وأخلص لله دينه ، وخلص من الورطة خلاصا سلم منها سلامة الشيء الذي يصفو من كدره ٠ (٤)

---

(١) التفسير الموضوعي : د / احمد الكومي ، د / محمد القاسم ص ١٦ بتصرف يسير ٠
(٢) دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الالمعي ص ٩
(٣) المفردات في غريب القرآن للاصفهاني ص ١٥٤
(٤) أساس البلاغة للزمخشري ص ١١٨

وورد في لسان العرب : خلص الشيء بالفتح يخلص خلوصا وخلاصا اذا كان قد نشب ثم نجا وسلم ، وأخلصه وخلصه وأخلص لله دينه أمحضه ، وأخلص الشيء اختاره ، ويقال : هذا الشيء خالصة لك أي خالص لك خاصة .(١)

ومن ذلك كله نستنتج ان الاخلاص يأتي بمعان مختلفة وقد وردت في القرآن الكريم على النحو التالي :

(١) الاخلاص بمعنى الخلوص من الشوائب والتصفية والتطهير ومثال ذلك :

أ - قوله تعالى : (**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ(٢) وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**).(٣)

قال ابن عباس : أن الدابة تأكل العلف فاذا استقر في كرشها طنمته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا واعلاه دما ، والكبد مسلط على هذه الاصناف فتقسم الدم وتميزه وتجريه في العروق ، وتجرى اللبن في الضرع ، ويبقى الفرث كما هو في الكرش.(٤) (ولبنا خالصا) أى صافيا من حمرة الدم وقذارة الفرث ، وخالصا من كل شيء يكدر صفوه سائغا للشاربين لذيذا هنيئا لا يغص به شاربه .(٥)

---

(١) لسان العرب جـ ١ ص ٨٧٧ - ٨٧٨

(٢) الفرث : السرجين مادام في الكرش ، وافرثت الكرش اذا شققتها ونثرت مافيها : لسان العرب جـ ٢ ص ١٠٦٥

(٣) سورة النحل آية / ٦٦

(٤) تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٣٧٤١

(٥) التفسير الواضح للدكتور محمد حجازى جـ ١٤ ص ٥١ المجلد الثاني .

ب - وقولـه تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .[١]

أي من عبادنا المجتبين المطهرين المختارين .[٢]

وذكر القرطبي - رحمه الله - أن " المخلصين " قرئت بكسر اللام وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله ، وقرئت بفتح اللام " المخلصين " وتأويلها الذين أخلصهم الله لرسالته ، وقد كان يوسف بهاتين الصفتين لانه كان مخلصا في طاعة الله تعالى مستخلصا لرسالة الله تعالى[٣] أي من الذين أخلصهم الله من السوء والفواحش[٤] بمعنى طهرهم وحماهم منها .

(٢) الاخلاص بمعنى الاصطفاء والاختيار :

ومثاله قوله تعالى : (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) .[٥]

أي اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين فأفردناهم بمفردة من خصال الخير[٦]

---

(١) سورة يوسف آية/ ٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٥

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٣٩٩

(٤) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ج ٤ ص ٢١٠

(٥) سورة ص آية/ ٤٦ ، ٤٧

(٦) زاد المسير في علم التفسير ج ٧ ص ١٤٦ .

هى - والله اعلم - ذكر الدار الآخرة والتأهب لها والزهد في الدنيا .

(٣) الاخلاص بمعنى الاختصاص ، أو الخصوصية : ومثاله :

أ - قوله تعالى : (قُل إِن كَانَت لَكُم الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوتَ إِن كُنتُم صَادِقِينَ)[١] مخالصة بمعنى خاصة بكم دون غيركم وليس لاحد سواكم فيها حق[٢]، فاليهود كانوا يعتقدون ان الجنة لهم ولا يدخلها الا اليهود فأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ان كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة خاصة بكم من دون الناس فاطلبوا الموت وتمنوه يكون حبيبا الى نفوسكم .[٣]

ب - وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحلَلنَا لَكَ أَزوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَت يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرنَ مَعَكَ وَامرَأَةً مُؤمِنَةً إِن وَهَبَت نَفسَهَا لِلنَّبِيِّ إِن أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَستَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ المُؤمِنِينَ)[٤] أي خاصة بك دون غيرك ، قال قتادة في قوله " خالصة لك " ليس لا مرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر الا للنبى صلى الله عليه وسلم.[٥]

---

(١) سورة البقرة آية / ٩٤
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩٧
(٣) التفسير الواضح للحجازى جـ ١ ص ٥٥
(٤) سورة الاحزاب آية / ٥٠
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٣ ص ٥٠٠

(٤) الاخلاص بمعنى التوحيد وهو الغالب في آيات الاخلاص في القرآن وأمثلته كثيرة منها :

أ - قوله تعالى : (قُل أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُم وَلَنَا أَعمَالُنَا وَلَكُم أَعمَالُكُم وَنَحنُ لَهُ مُخلِصُونَ).[1]

أي ونحن له موحدون مخلصون له بالايمان ، فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل اخلاصه لكرامته بالنبوة ، وكانوا يقولون نحن أحق بأن تكون النبوة فينا لانا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان .[2]

ب - وقوله تعالى : (قُل أَمَرَ رَبِّي بِالقِسطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُم عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ وَادعُوهُ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُونَ).[3] أي ادعوه وحده ولا تدعوا الها غيره ، وأمرهم ان يخلصوا له الدين والدعوة والعمل ثم يوجهوا وجوههم الى البيت الحرام[4] ، وجاء معنى " وادعوه " أي واعبدوه مخلصين له الدين أي الطاعة مبتغين بها وجهه خالصا .[5]

جـ - وقوله تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعبُدُوا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ).[6]

أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره[7] ، وقال ابن جرير : في قوله : (مخلصين) أي مفردين له الطاعة لا يخلطوا طاعتهم لربهم بشرك .[8]

---

(١) سورة البقرة آية / ١٣٩

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٠٦

(٣) سورة الاعراف آية/ ٢٩

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور جـ ٣ ص ٧٧

(٥) تفسير النسفي جـ ٢ ص ٥٠

(٦) سورة البينة آية/ ٥

(٧) تفسير الفخر الرازى المجلد السادس عشر جـ ٣٢ ص ٤٦ .

(٨) جامع البيان لابن جرير الطبرى جـ ٣٠ ص ١٧٠ المجلد الثاني عشر .

* **الاخلاص في الاصطلاح الشرعي :**

أن يتوجه الانسان بأفعاله وأقواله الى الله وحده دون سواه ابتغاء لمرضاته ٠

يقول الجرجاني (رحمه الله) الاخلاص في الاصطلاح : تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه ، وتحقيقه أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه يسمى خالصا ويسمى الفعل المخلص اخلاصا قال تعالى :(من بين فرث ودم لبنا خالصا) ، فانما خلوص اللبن أن لايكون فيه شوب من الفرث والدم ٠

وقال الفضيل بن عياض : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجلهم شرك ، والاخلاص الخلاص من هذين ٠

الاخلاص أن لا تطلب لعملك شاهدا غير الله ، وقيل الاخلاص : تصفية الأعمال من الكدورات ، وقيل الاخلاص : ستر بين العبد وبين الله تعالى لايعلمه ملك فيكتبه ولاشيطان فيفسده ولاهوى فيميله ٠

والفرق بين الاخلاص والصدق أن الصدق أصل وهو الأول والاخلاص فرع وهو تابع ، وفرق آخر الاخلاص لايكون الا بعد الدخول في العمل٠[1]

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ الاخلاص : تصفية العمل من كل شوب فلا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب ارادات النفس من طلب التزين في قلوب الخلق أو طلب مدحهم ، والهرب من ذمهم أو طلب تعظيمهم أوطلب أموالهم ، أوخدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه أوغير ذلك٠[2]

* **دعوة الاسلام الى الاخلاص :**

ولقد دعا القرآن الكريم والحديث الشريف الى الاخلاص ورغبا فيه

---

(١) التعريفات للشريف الجرجاني ص ٨ ، ٩

(٢) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية جـ ٢ص ٩٢ بتصرف ٠

فقال تعالى : ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ (١)

أي مفردين له الطاعة لا يخلطوا طاعتهم لربهم بشرك . (٢)

وقال تعالى : (فَمَن كَانَ يَرجوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَليَعمَل عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشرِك بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).(٣) أي فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه وان يلقاه لقاء رضا وقبول ، فلا يرائي بعمله ولايبتغي به الا وجه ربه خالصا لايخلط به غيره . (٤)

وقال تعالى : (إِنَّمَا نُطعِمُكُم لِوَجهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُم جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)(٥)

قال ابن عباس : كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا .(٦)

وقال سيد قطب : أن الابرار كانوا يطعمون الطعام باريحية نفس ورحمة قلب وخلوص نية واتجاه الى الله بالعمل ، يحكيه السياق من حالهم ومن منطوق قلوبهم ، فلا يبتغون جزاء من الخلق ولا شكورا ، ولا يقصدون استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . (٧)

والاحاديث الشريفة كذلك تضع في اعتبارنا أن العمل يكون صالحا ويكون مقبولا اذا جعلنا النية فيه مخلصة ومتجهة فقط للمولى عز وجل والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم - " انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله

---

(١) سورة البينة آية/ ٥
(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري ج ٣٠ ص ١٧٠
(٣) سورة الكهف آية / ١١١
(٤) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٠١ ، وفتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٣١٨
(٥) سورة الانسان آية/ ٩
(٦) تفسير القرطبي المجلد ٨ ص ٦٩٢١
(٧) في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٧٨١ باختصار وتصرف يسير .

ومن كانت هجرته لدنيا يصيبهـا أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه ".[١]

وتبين الاحاديث الشريفة أن صلاح النية واخلاص الضمير لرب العالمين يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوى فيجعلانه عبادة متقلبة لقوله صلى الله عليه وسلم : " ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها فى في امرأتك ".[٢]

وقوله صلى الله عليه وسلم : " دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى انفقته على أهلك ".[٣]

* **قيمة الاخلاص في الفرد والمجتمع :**

للاخلاص قيمة عظيمة وفوائد جليلة منها :

(١) يجعل المولى عز وجل ينظر اليه ويثبته على الطاعات لقوله صلى الله عليه وسلم : " ان الله لا ينظر الى أجسادكم ولا الى صوركم ولكن الى قلوبكم".[٤] التى

---

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان ، باب ماجاء أن الاعمال بالنية . ج ١ ص ١٢٦ من فتح البارى ومسلم بشرح النووى كتاب الامارة باب قوله ، انما الاعمال بالنية ج ١٣ ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) رواه البخارى في كتاب النفقات وفضل النفقة على الاهل ج ٩ ص ٤٣٨ من فتح البارى.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك ج ٧ ص ٨٢

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله ج ١٦ ص ١٢٠ - ١٢١ .

يستقر بها الهدى وينبع منها الاخلاص ٠

(٢) ييسر له ربه جل وعلا النجاة مما يعترضه من المحن والمخاطر ودليل ذلك قوله تعالى : (فَإِذَا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)٠ (١)

فنجاتهم الى البر هو كرم الهي من المولى عز وجل ، وربما لاعطائهم فرصة لمراجعة أنفسهم ومن ثم الالتحاق بركب الايمان ، ولكنهم نسوا فطرتهم السليمة ونسوا ما اضطرهم الى دعاء الله وحده مخلصين له الدين وانحرفوا الى الشرك بعد الاقرار والتسليم ٠ " (٢)

ودليله أيضا ماحدث للثلاثة أشخاص الذين اضطروا للمبيت في غار انحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فتوجهوا بالدعاء الى الله بصالح أعمالهم ففرج الله عنهم - نتيجة ما علم من اخلاصهم فيها - وانزاحت الصخرة عن باب الغار فخرجوا ٠ (٣)

(٣) يبلغه الله منازل الشهداء وان لم يجاهد ويقاتل على الحقيقة لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وان مات على فراشه "٠ (٤)

---

(١) سورة العنكبوت آية / ٦٥
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٥ ص ٢٧٥١ بتصرف
(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الرقاق : (باب قصة اصحاب الغار والتوسل بصالح الاعمال) جـ ١٧ ص ٥٥ - ٥٧
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الامارة باب استحباب طلب الشهادة جـ ١٣ ص ٥٥ -٥٦

* **نواقض الاخلاص :**

من أهم نواقض الاخلاص الرياء وسوء النية وذلك مالا يريده المولى عز وجل من خلقه بل يريد منهم أن يعرفوه معرفة تامة وأن يقدروه حق قدره في السراء والضراء ، وأن يجعلوا الاخلاص متمكنا من نفوسهم بحيث لايقصدون بعملهم غيره ايا كان ، أما اذا كانت نياتهم سيئة وخالطت اعمالهم الصالحة استحالت تلك الاعمال الى معاصي يستحقون عليها العقاب الاليم لقوله تعالى : (**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**).[1]

فتأديتهم للصلاة هنا تأدية لحركات لاروح فيها ، ولا تجرد لله فيها بل أداؤها رياء ، ولم تترك آثارها في قلوبهم واعمالهم فهي اذن هباء ، بل هي اذن مصيبة تنتظر سوء الجزاء.[2] ذلك لان الرياء نوع من الشرك الذي يحبط العمل أو يجرح كماله بقدر تمكنه من النفس بقوله صلى الله عليه وسلم "**اليسير من الرياء شرك**"[3] ولانه كذلك فسوف يوكل الله عز وجل المرائين - يوم القيامة - لاخذ جزائهم ممن حسنوا اعمالهم بسببهم ،

يقول عليه الصلاة والسلام: " ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر

(١) سورة الماعون آية/ ٤ - ٧

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩٨٦ بتصرف

(٣) **رواه الحاكم في المستدرك جـ ١ / ص ٤ ، وقال هذا حديث صحيح ، ولم يخرج في** الصحيحين ، وذكره الذهبي أنه صحيح لا علة فيه .

قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة اذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء"[١] .

ولكنه صلى الله عليه وسلم أرشدنا في حديث آخر أنه اذا عمل المرء العمل وأخلص فيه ثم أطلع عليه الناس دون قصد منه فاثنوا عليه وحمدوه وأعجبه ذلك فثناؤهم لايحبط العمل ، بل قد يكون من المبشرات المعجلة له في الدنيا .

فعن أبي ذر أنه قال : " قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " تلك عاجل بشرى المؤمن ". [٢]

وبعد فالحديث عن الاخلاص يطول ويتشعب وما ذكرته ايضاح لبعض جوانب الاخلاص وما يتعلق به وما يناقضه ، وقد استعنت بما ورد في السنة لانها موضحة ومبينة لما أجمل في القرآن الكريم .

---

(١) مسند أحمد جـ ٥ ص ٤٢٨ وقال فيه الهيثمي رجاله رجال الصحيح : مجمع الزوائد جـ ١ ص ١٠٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة باب المرء مع من أحب جـ ١٦ ص ١٨٩ ومسند أحمد جـ ٥ ص ١٥٦ .

يقول تعالى : (بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).(١)

(٢) الفرق بين الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي في القرآن :

الوحدة الموضوعية تهتم بالاهداف والمقاصد لكل سورة ، فكل سورة من السور مشتملة على غرض أو أغراض متنوعة مستنتجة من موضوعات السورة التي بينها من الترابط والتناسق العجيب ما يعجز الانس والجن عن الاتيان بمثله .

فاستنتاج الهدف أو الاهداف والمقاصد للسورة وربط بعضها ببعض هو ما نطلق عليه الوحدة الموضوعية للسورة ، والسورة أن يكون لها هدف واحد وموضوعات السورة تتعاضد لتحقيق ذلك الهدف ، وأما أن يكون للسورة أهداف أو مقاصد شتى وموضوعاتها تتحد لتحقيق تلك الاهداف.

أما ربط هذه السورة بهدفها أو بمقاصدها مع السورة التي قبلها والسور التي بعدها أيضا بأهدافها فهو ما نطلق عليه الوحدة الموضوعية للقرآ ن الكريم .

أما التفسير الموضوعي في القرآ ن فيراد به جمع آ يات القرآ ن المتفرقة في سورة - التي تتحدث عن موضوع واحد وتشترك في هدف واحد ، ثم

---

(١) سورة النحل آية / ٤٤

تناولها بالشرح والبيان مع الاحاطة التامة بكل جوانب الموضوع والاستعانة في ذلك بماجاء في السنة .

اذ الوحدة الموضوعية تبين العلاقة بين موضوعات السور في القرآن الكريم لتخدم الاهداف التى أنزلت من أجلها – السور – وتكون أساسا لفهما .

أما التفسير الموضوعي فمهمته بيان العلاقة بين آيات القرآن – المتفرقة في سوره – التى تتحدث عن موضوعات معينة وتشترك في أهداف واحدة .

* * * * * * *